



طَرِيقُ الْعَوْدَةِ وَتَقْرِيرِ الْمَصِيرِ

إعـداد

أَبُو عَبْدِ اللَّهِ
زَكَرِيَّا بْنُ طَهَ شَحَادَة

غـزة - فـلسطـين





إشْرَافُ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ



:: لِزيارَةِ المَنَصَّاتِ الإلكترونِيَّة؛ اضغَطْ على الأَيْقُونَةِ المُقابِلَةِ لِكُلِّ مَنَصَّةٍ ::

الموقعُ الرَّسْميُّ | قناةُ اليوتيوب

صفحةُ الفيسبوك | مجموعةُ الفيسبوك

قناةُ التليغرام | مجموعةُ التليغرام

مجموعاتُ الواتساب

حسابُ تويتر | حسابُ إنستغرام

مجموعةُ سنقال - Signal | قناةُ Bip | مجموعةُ Bip

لِلتَّبلِيغِ عَنْ خَطَأ؛ تَواصَلْ مَعَ إدارَةِ بَلِّغُوا عَنِّي وَمُنَسِّقِ الكُتُبِ:

:: وَجِّهْ كاميرا الجَوَّالِ عَلَى الأَشْكَالِ المُرَبَّعَةِ؛ للانتقالِ إلى المَنَصَّاتِ ::



القَارِئُ الكَرِيمُ

- اقْرَأ هَذَا الكِتَابَ بِنِيَّةِ الْعَمَلِ بِمَا فِيهِ؛ فَإِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ بِلَا عَمَلٍ، وَلَا خَيْرَ فِي عَمَلٍ بِلَا نِيَّةٍ خَالِصَةٍ.
- قِفْ عِنْدَ كُلِّ عُنْوانٍ، وَأَحْضِرْ لَهُ نِيَّةً خَالِصَةً؛ فَإِنَّ أَجْرَ الْعَبْدِ إِنَّمَا يَقَعُ عَلَىٰ قَدْرِ نِيَّتِهِ.
- كَتَبَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ: «اعْلَمْ يَا عُمَرُ أَنَّ عَوْنَ اللهِ لِلْعَبْدِ بِقَدْرِ نِيَّتِهِ، فَمَنْ خَلُصَتْ نِيَّتُهُ؛ تَمَّ عَوْنُ اللهِ لَهُ، وَمَنْ نَقَصَتْ نِيَّتُهُ؛ نَقَصَ عَنْهُ مِنْ عَوْنِ اللهِ بِقَدْرِ ذَلِكَ»[1].
- لا تَتْرُكِ الكِتَابَ حَتَّىٰ تُتِمَّهُ عَنْ آخِرِهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مِنْ أَيِّ صَفَحَاتِهِ تُصِيبُ البَرَكَةَ، ولَعَلَّ آخِرَهُ أَنْفَعُ لَكَ مِنْ أَوَّلِهِ.
- إِذَا قَضَيْتَ حَاجَتَكَ مِنَ الكِتَابِ؛ فَأَهْدِهِ لِمَنْ تُحِبُّ مِنْ إِخْوَانِكَ المُسْلِمِينَ؛ فَلَعَلَّهُ يَنْتَفِعُ بِهِ؛ فَيَكُونُ لَكَ مِثْلُ أَجْرِهِ، ولَعَلَّهُ يَنْتَفِعُ بِهِ أَكْثَرَ مِنْكَ، وَفِي الحَدِيثِ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا، وَحَفِظَهَا، وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»[2].

---

(1) انظرْ: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، لمحمد بن محمد بن الحسيني الزبيدي: 2/ 312.

(2) أخرجه الترمذي في سننه، بَابُ مَا جَاءَ فِي الحَثِّ عَلَىٰ تَبْلِيغِ السَّمَاعِ: 4/ 321، رقم: (2658)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

تقريظ (1)

الحَمْدُ للهِ وَكَفَىٰ، وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ، وَبَعْدُ:

فَإِنَّ الصَّلاةَ عِمَادُ الدِّينِ، وَمِعْرَاجُ الْمُتَّقِينَ، وَطَرِيقُ أَهْلِ الحَقِّ وَالدِّينِ، وَهِيَ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ وَأَنْفَعِهَا لِلْعَبْدِ؛ لِذَا كَانَ اعْتِنَاءُ الْعُلَمَاءِ فِي التَّصْنِيفِ فِيها أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، لَكِنَّ الصَّلاةَ المُرَادَ مَعْرِفَتُهَا هِيَ تِلْكَ الصَّلَاةُ الَّتِي تُؤْتِي ثِمَارَها، وَتُقَرِّرُ مَصِيرَ صَاحِبِهَا، وَتُطْلِقُ لَهُ الفَهْمَ فِي الدِّينِ واليَقِينِ.

وَقَدْ جاءَ كِتَابُ «الصَّلَاةُ طَرِيقُ العَوْدَةِ وَتَقْرِيرُ المَصِيرِ» لِلْأَخِ الحَبِيبِ الشَّيْخِ: زكريا بن طه شحادة، حَفِظَهُ اللهُ، بِهَذِهِ المَعَانِي، وَقَدْ قَرَأْتُهُ وَوَقَفْتُ عَلَىٰ عِبَارَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ؛ فَوَجَدْتُهَا سَهْلَةً وَاضِحَةً، وَأُسْلُوبَهُ مَاتِعًا سَهْلًا لَا غُمُوضَ فِيهِ، يَجْذِبُ القَارِئَ وَيَشُدُّهُ. طَرِيقَتُهُ فِي العَرْضِ غَايَةٌ فِي الوُضُوحِ، أُسْلُوبُهُ مُمَيَّزٌ يَجِدُ فِيهِ القَارِئُ وُضُوحَ الفِكْرَةِ، وَحُسْنَ العَرْضِ.

فَجَزَىٰ اللهُ أَخَانَا الشَّيْخَ خَيْرَ الجَزَاءِ، وَأَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَنْفَعَ الطُّلَّابَ وَالتَّلَامِيذَ بِهَذَا الكِتَابِ، وَهُوَ حَرِيٌّ أَنْ يَتَدَاوَلَهُ الطُّلَّابُ فِي حَلَقَاتِ العِلْمِ؛ فَيَحْصُلُونَ فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ عَلَىٰ عِلْمٍ كَثِيرٍ.

---

(1) التَّقْرِيظُ: مَدْحُ الحَيِّ وَوَصْفُهُ، والمَقْصُودُ هُنَا مَدْحُ الشَّيْخِ المَادَّةَ وَتَزْكِيَتُهَا؛ بُغْيَةَ تَلَقِّيهَا بالقَبُولِ، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 7/ 455.

وَأَرْجُو مِنَ اللهِ أَنْ يُوَفِّقَهُ إِلَىٰ الاسْتِمْرَارِ فِي خِدْمَةِ القُرْآنِ وَأَهْلِهِ، رَاجِيًا مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يَحْشُرَهُ مَعَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَلَنَا أَجْمَعِينَ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الشيخ الدكتور

عبد الباري بن محمّد خِلّة





مُقَدِّمَة

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَكَمَا يَنْبَغِي لِكَرَمِ وَجْهِهِ، وَعِزِّ جَلَالِهِ، حَمْدًا يَمْلَأُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَمَا شَاءَ رَبُّنَا مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، بِمَجَامِعِ حَمْدِهِ كُلِّهَا: مَا عَلِمْنَا مِنْهَا، وَمَا لَمْ نَعْلَمْ؛ عَلَىٰ نِعَمِهِ كُلِّهَا: مَا عَلِمْنَا مِنْهَا، وَمَا لَمْ نَعْلَمْ؛ عَدَدَ مَا حَمِدَ الحَامِدُونَ، وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الغَافِلُونَ، وَعَدَدَ مَا جَرَىٰ بِهِ قَلَمُهُ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ؛ حَمْدًا وَافِيًا تَامًّا كَامِلًا، مِنْ لَدُنْهُ[1] إِلَىٰ مُنْتَهَىٰ عِلْمِهِ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَرَضِيَ وَبَارَكَ عَلَىٰ سَيِّدِنَا وَإِمَامِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَعَنِ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَبَعْدُ:

فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَنْصَرِفُ ذِهْنُ القَارِئِ أَوَّلَ مَا يَنْصَرِفُ، وَيَتَوَجَّهُ فِكْرُهُ عِنْدَ قِرَاءَةِ العُنْوَانِ أَنَّ العَوْدَةَ المَقْصُودَةَ هِيَ العَوْدَةُ إِلَىٰ أَرْضِ الوَطَنِ: عَوْدَةُ الغَائِبِ عَنْ وَطَنِهِ، المُغْتَرِبِ عَنْهُ، أَوِ المُبْعَدِ قَسْرًا، أَوِ الفَارِّ خَوْفًا، أَوِ العَوْدَةُ إِلَىٰ الوَطَنِ السَّلِيبِ، والأَرْضِ المَغْصُوبَةِ فِلَسْطِينَ المُحْتَلَّةِ؛ أَعَادَهَا اللهُ تَعَالَىٰ عَزِيزَةً كَرِيمَةً حَمِيدَةً.

---

(1) لَدُنْ: أَي من عِنْده، انظرْ: جَمْهَرَةَ اللُّغَةِ، لابن دريد: 2/ 681.

كَمَا يَرِدُ بِبَالِهِ عِنْدَ (تَقْرِيرِ مَصِيرِهِ): تَقْرِيرُ مَصِيرِهِ العِلْمِيِّ فِي مَرَاحِلِ دِرَاسَتِهِ المُخْتَلِفَةِ، أَوِ الوَظِيفِيِّ باخْتِيارِ وَظِيفَةِ العُمُرِ المُنَاسِبَةِ، أو الاجْتِمَاعِيِّ باخْتِيارِ الزَّوْجَةِ المُكَافِئَةِ التِي تُرَافِقُهُ شَطْرَ حَيَاتِهِ الثَّانِي، ومَنْ سَيَكُونُ لَهُ مِنْهَا مِنَ الأَبْنَاءِ: ذُكْرَانًا وإِنَاثًا، أَوْ لَعَلَّ فِكْرَهُ يَذْهَبُ إِلَىٰ حَقِّهِ فِي تَقْرِيرِ مَصِيرِهِ بِإِقَامَةِ دَوْلَتِهِ المُسْتَقِلَّةِ عَلَىٰ تُرَابِ الوَطَنِ المُحْتَلِّ... وَكُلُّ هَذَا حَقٌّ؛ فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ أَنْ يُقَرِّرَ مَصِيرَهُ العِلْمِيَّ والاجْتِمَاعِيَّ، كَمَا أَنَّ الوُجْدَانَ والقُلُوبَ والنُّفُوسَ تَهْفُو إِلَىٰ تَقْرِيرِ المَصِيرِ عَلَىٰ أَرْضِ الوَطَنِ السَّلِيبِ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ تَشْتَاقُ إِلَىٰ الأَرْضِ والوَطَنِ، وَتَحِنُّ إِلَيْه حَنِينَ الطُّيُورِ إِلَىٰ أَعْشَاشِهَا، وَلَا يَكَادُ الفِكْرُ يَمَلُّ الطَّيَرَانَ الحَالِمَ بالعَوْدَةِ إِلَيْهَا، يُطَوِّفُ فِي فَضَاءَاتِهَا وَجنَبَاتِهَا، يَفْتَرِشُ أَرْضَهَا وَيَلْتَحِفُ سَمَاءَهَا، يَرْتَشِفُ مِنْ مَائِهَا وَغُدُرِهَا، يَأْكُلُ مِنْ خَيْرِهَا، يَسْتَنْشِقُ نَسِيمَهَا وَعَبِيرَهَا؛ فَلَا أَحْلَىٰ وَلَا أَجْمَلَ مِنْ وَطَنٍ حُرٍّ عَزِيزٍ، لَا سِيَّمَا لِمَنْ فَقَدَ وَطَنَهُ وأَرْضَهُ...، كُلُّ هَذَا حَقٌّ؛ وَلَكِنْ هُنَاكَ عَوْدَةٌ هِيَ آكَدُ، وأَوْثَقُ، وَأَلْزَمُ، وَأَطْوَلُ، وَأَخْلَدُ مِنْ هَذِهِ.. إِنَّها العَوْدَةُ إِلَىٰ الوَطَنِ الأَوَّلِ، الوَطَنِ الذِي فِيهِ خُلِقْنَا، وَمِنْهُ أُبْعِدْنَا، وَإِلَىٰ العَوْدَةِ إِلَيْهِ وُعِدْنَا.. إِنَّهُ الجَنَّةُ؛ قَالَ الحَسَنُ: «المُؤْمِنُ فِي الدُّنْيا كالغريبِ، لا يَجْزَعُ مِنْ ذُلِّهَا[1]، ولا يُنافِسُ فِي عِزِّها، لَهُ شَأْنٌ، وللنَّاسِ شَأْنٌ. لَمَّا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ آدمَ عليه السلام، أُسكِنَ هُوَ وزوجتُهُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أُهبِطَا

---

(1) المَقْصُودُ بِقَوْلِهِ: (ذُلِّهَا) يَعْنِي ذُلَّ الدُّنْيا: فَقْرَهَا وَشِدَّتَها وَأَنْكَادَهَا؛ فَهُوَ يَصْبِرُ عَلَيْهَا، وذُلَّ العَبْدِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي عِبَادَتِهِ؛ وَلَيْسَ المَقْصُودُ أَنْ يَذِلَّ المُسْلِمُ لِغَيْرِهِ؛ فَإِنَّ هَذا المَعْنَىٰ بَعِيدٌ، فالمُسْلِمُ عَزِيزٌ فِي ذُلِّهِ، يَعْنِي لَوْ كانَ فَقِيرًا؛ فَإِنَّهُ يَبْقَىٰ عَزِيزًا لَا يَذِلُّ لِغَيْرِهِ، وَفِي الحَدِيثِ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ». أخرجه الترمذي في سننه، بَابٌ، أَيْ: مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيَاحِ: 4/ 523، رقم: (2254)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

مِنْها، ووُعِدَ بالرُّجوعِ إِلَيْها، وصَالِحُو ذُرِّيَتِهِمَا، فَالمُؤْمِنُ -أَبَدًا- يَحِنُّ إِلَىٰ وَطَنِهِ الأَوَّلِ، وَحُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإيمانِ، كَمَا قيلَ:

كَمْ مَنْزِلٍ لِلمَرْءِ يَأْلَفُهُ الْفَتَىٰ *** وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

ولابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ:

فَحَيَّ عَلَىٰ جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا *** مَنَازِلُنَا الأُولَىٰ وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ

وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تُرَىٰ *** نَعُودُ إِلَىٰ أَوْطَانِنَا وَنُسَلَّمُ

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الغَرِيبَ إِذَا نَأَىٰ *** وَشَطَّتْ[1] بِهِ أَوْطانُهُ فَهُوَ مُغْرَمُ[2]

وأيُّ اغْتِرابٍ فَوْقَ غُرْبَتِنَا التِي *** لَهَا أَضْحَتِ الأَعْداءُ فِينَا تَحَكَّمُ»[3].

وَلَئِنِ اشْتَاقَتْ نُفُوسُ الغُرَبَاءِ إِلَىٰ أَوْطَانِهِمْ؛ فَإِنَّ الشَّوْقَ إِلَىٰ الوَطَنِ الأَوَّلِ أَوْلَىٰ، والغُرْبَةُ عَنْهُ أَوْحَشُ؛ وإِنَّ المُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيا غُرْبَاءُ. وَلَئِنْ كَانَتِ العَوْدَةُ هُنَا مَحْدُودَةً بِمُدَّةِ حَياتِنَا القَصِيرَةِ؛ فَإِنَّ العَوْدَةَ هُنَاكَ طَوِيلَةٌ مَدِيدَةٌ، مُمْتَدَّةٌ أَبَدَ الآبَادِ؛ حَيْثُ لَا تَحَوُّلَ وَلَا انْتِقَالَ وَلَا فَنَاءَ. وَلَئِنْ كانَتِ العَوْدَةُ هُنَا مَحْفُوفَةً بالغُصَصِ والأَنْكَادِ؛ فَهُنَاكَ لَا غُصَصَ وَلَا

---

(1) شَطَّتْ واشْتَطَّتِ الدَّارُ: تباعدت، انظر: غريب الحديث، لإبراهيم الحربي: 3/ 1157.

(2) مُغْرَمُ: مُحِبٌّ، والغَرَامُ: الْحبّ اللَّازِم، يُقَال: رجل مغرم بالحب، وَقد لزمه الْحبّ، فِي «الصِّحَاح»: الغرام: الولوع، انظر: الكليات، للكفوي: 1/ 399.

(3) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب: 2/ 379.

أَنْكَادَ، هَنَاءَةٌ دَائِمَةٌ، لَا هَمَّ، وَلَا حُزْنَ، وَلَا غَمَّ[1]، وَلَا أَذًىٰ، وَلَا نَصَبَ، وَلَا وَصَبَ[2]، وَلَا لُغُوبَ[3]، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ، وَلَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ. «فَهِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ -كَمَا وُصِفَتْ- رَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَنُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ، وَزَوْجَةٌ لَا تَمُوتُ فِي خُلُودٍ، وَنَعِيمٍ فِي مَقَامٍ آبِدٍ»[4].

وَإِنَّنَا فِي هَذِه المَادَّةِ لَنُؤَكِّدُ هَذِهِ الحَقِيقَةَ، وَنَقِفُ عَلَىٰ السَّبِيلِ الآمِنِ، والطَّرِيقِ السَّلِيكِ، الذِي يُبَلِّغُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَإِلَىٰ رِضْوَانِهِ؛ وَيَؤُولُ بِصَاحِبِهِ وَيَعُودُ بِهِ إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَطَنِ الأَبِ الأَوَّلِ، حتَّىٰ يَكُونَ العَبْدُ أَبْصَرَ لِهَذَا الطَرِيقِ مِنْ طَرِيقِهِ إِلَىٰ بَيْتِهِ يَكُونُ لَهُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْ أَبْصَرَ طَرِيقَ الجَنَّةِ فِي الدُّنْيَا وسَلَكَهَا؛ هَدَاهُ اللهُ تَعالَىٰ إِلَيْها يَوْمَ القِيَامَةِ؛ فَهُوَ أَدَلُّ إِلَيْهِ مِنْ دَارِهِ فِي الدُّنْيَا؛ كَمَا أَقْسَمَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ بِقَوْلِهِ: «فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَىٰ بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»[5].

---

(1) الهَمُّ: يَنْشَأُ عَنِ الفِكْرِ فِيما يُتَوَقَّعُ حُصُولُهُ مِمَّا يَتَأَذَّىٰ بِهِ، والهَمُّ: الحُزْنُ الذِي يُذِيبُ الإِنْسانَ، فَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الحُزْنِ والْحُزْنُ: الأَلَمُ الحاصِلُ لِوُقُوعِ مَكْرُوه أَو فَواتِ مَحْبوبٍ فِي الماضِي، والْغَمُّ: هو كَرْبٌ يَحْدُثُ لِلْقَلْبِ بِسَبَبِ مَا حَصَلَ، انظر: فتح الباري، لابن حجر: 10/ 106، وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلَّانِي: 8/ 340، وفيض القدير، للمناوي: 2/ 151.

(2) الوَصَبُ: الْمَرَضُ والأَلَمُ، وَالنّصَبُ: الإِعْيَاءُ والتَّعَبُ، انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: 3/ 403.

(3) اللُّغُوبُ: التَّعَبُ والمَشَقَّةُ والإِعْيَاءُ، انظر: مجمل اللغة، لابن فارس: 1/ 810.

(4) انظر: صفة الجنة، لأبي نعيم الأصبهاني: 1/ 52.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ القِصَاصِ يَوْمَ القِيَامَةِ: 8/ 111، رقم: (6535).

وَإِنَّنَا هُنَا نَرْصُدُ الطَّرِيقَ الآكَدَ الأَوْكَدَ، الذِي بِهِ وَعَلَيْهِ يَتَقَرَّرُ مَصِيرُ العَبْدِ: إِمَّا بِالفَلَاحِ أَوِ البَوَارِ؛ إِنَّهَا الصَّلَاةُ. وَلَقَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ أَنَّهُ إِذَا أَحْرَزَ العَبْدُ مِنْ دُنْيَاهُ أَمْرَيْنِ، فَقَدْ أَحْرَزَ الجَنَّةَ، وَلَا يُبَالِي مَتَىٰ يَأْتِيهِ المَوْتُ: بِلَيْلٍ أَمْ بِنَهَارٍ، إِنَّهُمَا: إِخْلَاصُ الأَعْمَالِ[1]، وَصِحَّةُ الصَّلَاةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا[2]؛ صَحَّتْ عَلَىٰ ذَلِكَ الأَخْبَارُ وَالآثَارُ.

وإِنَّ مَا يَجِدُهُ المُخْلِصُ مِنْ لَذَّةِ الإِخْلَاصِ أَطْيَبُ بِكَثِيرٍ مِمَّا يَجِدُهُ المُرَائِي والمُعْجَبُ مِنْ لَذَّةِ الشُّهْرَةِ وَثَنَاءِ النَّاسِ. وَإِنَّ مَا يَجِدُهُ العَابِدُ الخَاشِعُ فِي صَلَاتِهِ أَطْيَبُ بِكَثِيرٍ مِمَّا يَجِدُهُ الدُّنْيَوِيُّ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَنِكَاحِهِ، فَالإِخْلَاصُ، والصَّلَاةُ بِحُضُورِ قَلْبٍ وخُشُوعٍ جَنَّةٌ حَاضِرَةٌ، لَا يَضُرُّ العَبْدَ -إِنْ أَحْكَمَهُمَا- مَا فَاتَهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ مَعَ فَوَاتِهِمَا مَا أَحْرَزَ وأَصَابَ، وَلَوْ أَفْنَىٰ العَبْدُ مَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ عَلَىٰ إِحْرَازِهِمَا وإِحْكَامِهِمَا، وَتَرَكَ لِأَجْلِهِمَا القَلِيلَ والكَثِيرَ، وحَصَلَ لَهُ ذَلِكَ المَقْصُودُ؛ لَكَانَ قَلِيلًا فِي جَنْبِ مَا حَصَلَ لَهُ مِنْ كَرَامَةٍ وإِكْرَامٍ، واللهُ تَعَالَىٰ وحْدَهُ المُوَفِّقُ، وهُوَ المُسْتَعَانُ عَلَىٰ بَيانِ ذَلِكَ، ولُزُومِهِ إِلَىٰ المَمَاتِ...

فَأَنَا وَأَنْتَ اليَوْمَ مَدْعُوانِ أَنْ نَرْفَعَ السَّاعَةَ، لَنَا هَدَفًا عَالِيًا عَلَىٰ لَافِتَةٍ عَرِيضَةٍ: (إِصْلَاحُ الصَّلَاةِ)؛ يَكُونُ هَدَفًا لِمَشْرُوعِ حَيَاةٍ كَبِيرٍ، وَنُوقِفُ حَيَاتَنَا عَلَىٰ العَمَلِ لِتَحْقِيقِ هَذَا الهَدَفِ

---

(1) وَفَّقَ اللهُ تَعَالَىٰ لِإِصْدَارِ كِتَابٍ يُعَالِجُ الإِخْلَاصَ، بِعُنْوانِ: (الإِخْلَاصُ أَوَّلًا: الدَّاءُ وَالدَّوَاءُ)، فُصِّلَ فِيهِ مَعْنَىٰ الإِخْلَاصِ وَحَقِيقَتُهُ ونَوَاقِضُهُ، وعِلَاجُ نَواقِضِهِ، والنِّيَّةُ وأَحْكَامُهَا؛ فَلْيُرَاجِعْ لِمَنْ أَرَادَ الفَائِدَةَ.

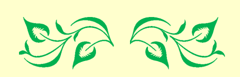
(2) وَقَدْ وَفَّقَ اللهُ تَعَالَىٰ لِإِصْلَاحِ الصَّلَاةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا هَذِهِ المَادَّةَ؛ لِتَكُونَ المَادَّتَانِ مَنْهَجًا يُرَبِّي عَلَيْهِ العَبْدُ نَفْسَهُ؛ وَيُرَبِي مَنْ وَرَاءَهُ؛ لِيَكُونَ الفَلَاحُ والظَّفَرُ، والعَوْدَةُ الحَمِيدَةُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، والمَصِيرُ السَّعِيدُ.

العَظِيمِ، والمَشْرُوعِ الكَبِيرِ؛ فَهَلْ أَنْتَ جَاهِزٌ مَعِيَ للعَمَلِ والمُجَاهَدَةِ لتَحْقِيقِ ذَلِكُمُ الهَدَفِ العَظِيمِ، والمَشْرُوعِ الكَبِيرِ؟!

إِذَنْ بِنَا نَبْدَأُ، وَمَعَ أَوَّلِ الخُطُواتِ: قِرَاءَةُ الكِتَابِ بِنِيَّةِ العِلْمِ والعَمَلِ والمُجَاهَدِةِ، واللهُ تَعالَىٰ وَحْدَهُ المُسْتَعانُ عَلَىٰ هَذَا وَعَلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ، وَهُوَ المُوَفِّقُ لِذَلِكَ، وقُلْ مَعِيَ مَا قَالَ النَّبِيُّ الصَّالِحُ العَارِفُ بِرَبِّهِ ﷿: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

وكتبه

زكريا بن طه شحادة



(1) هود: 88.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الصَّلَاةُ طَرِيقُ العَوْدَةِ، وَسَبِيلُ الفَلَاحِ، وَتَقْرِيرُ مَصِيرِ العِبَادِ يَوْمَ المَعَادِ

إِنَّ عَوْدَةَ الخَلَائِقِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَصِيرَهُمْ إِلَيْهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ، حَقِيقَةٌ أَحَقُّ وأَصْدَقُ مِنْ كُلِّ الحَقَائِقِ، وَهُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَوْكَدُ مِنْ كُلِّ الأَنْبَاءِ، لا مَفَرَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ، وَهُوَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِيمانِ، فَلا يكونُ المُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حتَّىٰ يَسْتَقِرَّ الإيمانُ بِهِ فِي قَلْبِهِ. جَاءَتْ بِذَا الآياتُ مِنْ رَبِّ الأَرْبَابِ سُبْحانَهُ وَتَعالَىٰ مُتَكَاثِرَةً، مِنْهَا قَولُهُ تَعالَىٰ فِي التَّأْكيدِ عَلَىٰ العَوْدَةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[3]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[4]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[5]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[6]، وَمِنْهَا

---

(1) يونس: 56.

(2) الأنبياء: 35.

(3) المؤمنون: 115.

(4) القصص: 70.

(5) القصص: 88.

(6) العنكبوت: 17.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[1]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[2].

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي التَّأْكِيدِ عَلَىٰ أَنَّ مَصِيرَ العِبَادِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[3]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[4]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[5].

كُلُّ هَذَا الحَشْدِ الكَثِيرِ مِنَ الآيَاتِ؛ لِيُؤَكِّدَ فِي حِسِّ المُؤْمِنِ ووُجْدانِهِ حَقِيقَةَ العَوْدَةِ والمَصِيرِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَيَدْعُوهُ إِلَىٰ التَّهَيُّؤِ لِهَذَا الوَعْدِ الصَّادِقِ الأَكِيدِ بِمَا يُحَقِّقُ سَعَادَتَهُ فِيهِ، بَلْ إِنَّ آخِرَ مَا نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وآخِرَ مَا حَمَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ، وآخِرَ مَا أَهْدَتِ السَّمَاءُ للأَرْضِ مِنْ كَلَامِ الوَحْيِ قَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ

---

(1) السجدة: 11.

(2) الجاثية: 15.

(3) آل عمران: 28.

(4) النور: 42.

(5) غافر: 3.

فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1] [2]؛ لِتَبْقَىٰ هَذِه الحَقِيقَةُ حَاضِرَةً فِي الأَذْهانِ؛ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا مِنْ مَفَرٍّ مِنْ هَذَا الوَعْدِ أَوْ نِسْيانٍ؟!

وَلَئِنِ اخْتَلَفَ النَّاسُ هُنَا فِي السَّبِيلِ إِلَىٰ العَوْدَةِ إِلَىٰ الوَطَنِ القَرِيبِ فِي الدُّنْيا، فَإِنَّ السَّبِيلَ إِلَىٰ العَوْدَةِ إِلَىٰ الوَطَنِ الأَوَّلِ هُناكَ واحِدٌ وَحِيدٌ، واضِحٌ سَلِيكٌ لَحِيبٌ[3]؛ إِنَّهُ تَوحيدُ اللهِ تَعَالَىٰ تَوْحِيدًا صَحِيحًا كَامِلًا: بالقَلْبِ وباللِّسَانِ، والقِيامُ بِمُقْتَضَىٰ ذَلِكَ التَّوْحِيدِ مِنْ وَظَائِفِ العِبَادَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، والتِي عَمُودُهَا وَأَهَمُّهَا الصَّلَاةُ.

أَوَّلًا: الصَّلاةُ تَقْرِيرُ مَصِيرِ العَبْدِ عِنْدَ اللَّهِ تَعالَى

إِنَّ الصَّلاةَ هِيَ الشَّارِعُ الأَعْظَمُ، والفَجُّ[4] الأَوْسَعُ، والمَحَجَّةُ[5] الأَبْيَنُ، والصِّرَاطُ الأَقْوَمُ، والطَّرِيقُ الأَقْصَرُ إِلَىٰ خَيْرِ مَصِيرٍ، وأَفْضَلِ مُسْتَقَرٍّ؛ فَعَوْدَةُ العَبْدِ إِلَىٰ وَطَنِهِ الأَوَّلِ الذِي خُلِقَ فِيهِ أَبوهُ[6]، وَوُعِدَ بالعَوْدَةِ إِلَيْهِ، وتَقْرِيرُ مَصِيرِهِ إِلَىٰ إِحْدَىٰ الدَّارَيْنِ: الجَنَّةِ أَمْ

---

(1) عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281]» قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يَقُولُونَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَكَثَ بَعْدَهَا تِسْعَ لَيَالٍ، وَبَدَا يَوْمَ السَّبْتِ، وَمَاتَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري: 5/ 68.

(2) البقرة: 281.

(3) لَحِيبٌ: واضِحٌ، واسِعٌ، مُوَطَّأٌ، مَسْلوكٌ، مُنْقادٌ لِمَنْ يَسْلُكُهُ، انظر: معجم العين، للخليل: 3/ 239، وغريب الحديث، للخطابي: 1/ 121.

(4) الفَجُّ: الطَّريق الواسِعُ، انظر: معجم العين، للخليل: 6/ 24.

(5) المَحَجَّةُ: الطريق، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 2/ 228.

(6) يَعْنِي آدَمَ عليه السلام، إِذْ خَلَقَهُ اللهُ تَعالَىٰ فِي الجنَّةِ، ثُمَّ أُهْبِطَ إِلىٰ الأرضِ بالمعصيةِ، وَوَعَدَهُ إِنْ هُوَ عادَ إِلَىٰ طَاعَتِهِ، وَلَزِمَهَا؛ أَنْ يُعِيدَهُ هُوَ ومَنْ تَبِعَهُ مِنْ أَبْنَائِهِ الصَّالِحِينَ إِلَىٰ وَطَنِهِ الأَوَّلِ.

إِلَىٰ النَّارِ إِنَّمَا تَتَحَدَّدُ بالصَّلَاةِ؛ وإنَّ مَصيرَ العَبْدِ فِي قَبْرِهِ وآخِرَتِهِ إنَّما يَتَقَرَّرُ بالصَّلاةِ؛ فَإِنْ كانَتْ صالِحَةً مَقْبولَةً؛ فازَ فَوْزًا عَظِيمًا، وإنْ كانَتْ علَىٰ غيرِ ذلِكَ؛ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرانًا مُبِينًا؛ ولَقَدْ جاءَ بِذَا الأَخْبَارُ الصَّادِقَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فعَنْ حُرَيْثِ بْنِ قَبِيصَةَ، قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، قَالَ فَجَلَسْتُ إِلَىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِي جَلِيسًا صَالِحًا؛ فَحَدِّثْنِي بِحَدِيثٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ[1]، فَإِنْ

---

(1) جاءَ فِي الحَدِيثِ المُتَّفَقِ عَلَيْهِ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»، ولا تَعارُضَ بَيْنَهُ وبَيْنَ حَدِيثِ الصَّلَاةِ، وَقَدْ جَمَعَ العُلَماءُ بَيْنَهُمَا؛ فقَالَ الْأَبْهَرِيُّ: وَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذَا، وَبَيْنَ قَوْلِهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الدِّمَاءُ» أَنَّ الْأَوَّلَ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالثَّانِي مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ، أَوِ الْأَوَّلَ مِنْ تَرْكِ الْعِبَادَاتِ، وَالثَّانِي مِنْ فِعْلِ السَّيِّئَاتِ. وقال علي القاري: «يُقَالَ: لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَنْهِيَّاتِ، وَهَذَا فِي الْمَأْمُورَاتِ. وَقَالَ الحَافِظُ العِرَاقِيُّ: وَظَاهِرُ الأَخْبَارِ أَنَّ الذِي يَقَعُ أَوَّلًا المُحَاسَبَةُ عَلَىٰ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ»، يَعْنِي الصَّلَاةَ، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 3/ 997، وفيض القدير، للمناوي: 3/ 89.

وحاصِلُ الحَدِيثَيْنِ، أنَّ مَنْ قامَ بِحَقِّ اللهِ تَعالَىٰ مِنْ أَمْرِ الصَّلاةِ، وَسَلِمَ مِنْ دِمَاءِ العِبَادِ؛ فَهُوَ المُسَلَّمُ، وَمَنْ فاتَهُ واحِدَةٌ مِنْهُمَا؛ فَقَدَ وَقَعَ فِي الهَلَكَةِ والوَرْطَةِ الكُبْرَىٰ، واللهُ تَعالَىٰ أَعْلَمُ.

صَلُحَتْ؛ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ[1]، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ[2]، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؛ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ[3]، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ[1]»[2].

---

(1) قوله ﷺ: (أَفْلَحَ)، أَيْ: فَازَ بِمَقْصُودِهِ، (وَأَنْجَحَ)، أَيْ: ظَفَرَ بِمَطْلُوبِهِ، فَيَكُونُ فِيهِ تَأْكِيدٌ، أَوْ أَفْلَحَ بِمَعْنَىٰ خُلِّصَ مِنَ الْعِقَابِ، وَأَنْجَحَ، أَيْ حَصَلَ لَهُ الثَّوَابُ، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 3/ 997.

وحاصِلُ الحَدِيثَيْنِ، أَنَّ مَنْ قامَ بِحَقِّ اللهِ تَعالَىٰ مِنْ أَمْرِ الصَّلاةِ، وَسَلِمَ مِنْ دِمَاءِ العِبَادِ؛ فَهُوَ المُسَلَّمُ، وَمَنْ فاتَهُ واحِدَةٌ مِنْهُمَا؛ فَقَدَ وَقَعَ فِي الهَلَكَةِ والوَرْطَةِ الكُبْرَىٰ، واللهُ تَعالَىٰ أَعْلَمُ.

(2) قوله ﷺ: (خَابَ): بِحِرْمَانِ الْمَثُوبَةِ، (وَخَسِرَ): بِوُقُوعِ الْعُقُوبَةِ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ خَابَ: نَدِمَ وَخَسِرَ، أَيْ صَارَ مَحْرُومًا مِنَ الْفَوْزِ وَالْخَلَاصِ قَبْلَ الْعَذَابِ، أَوْ خَسِرَ فِي تِجَارَتِهِ الْأُخْرَوِيَّةِ؛ فَلَمْ يَرْبَحِ الثَّوابَ الْمُتَرَتِّبَ عَلَىٰ عَمَلِهَا لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 3/ 997، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان: 6/ 565.

وحاصِلُ الحَدِيثَيْنِ، أَنَّ مَنْ قامَ بِحَقِّ اللهِ تَعالَىٰ مِنْ أَمْرِ الصَّلاةِ، وَسَلِمَ مِنْ دِمَاءِ العِبَادِ؛ فَهُوَ المُسَلَّمُ، وَمَنْ فاتَهُ واحِدَةٌ مِنْهُمَا؛ فَقَدَ وَقَعَ فِي الهَلَكَةِ والوَرْطَةِ الكُبْرَىٰ، واللهُ تَعالَىٰ أَعْلَمُ.

(3) قَالَ العُلَمَاءُ: المَعْنَىٰ أَنَّهُ يُكَمَّلُ لَهُ مَا نَقَصَ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ؛ بِفَضْلِ صَلَاةِ التَّطَوُّعِ؛ وَفِي هَذَا فُرْصَةٌ للعَبْدِ لاسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَهُ مِنْ أَمْرِ صَلَاتِهِ؛ فَعَلَىٰ مَنْ قَصَّرَ فِي الفَرِيضَةِ؛ فَلَمْ يُؤَدِّهَا حَقَّهَا مِنِ اطْمِئْنَانٍ وخُشُوعٍ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي إِتْقَانِ النَّافِلَةِ وَإِحْسَانِهَا؛ جَبْرًا لِمَا فَاتَهُ مِنَ الفَرِيضَةِ، قوت المغتذي علىٰ جامع الترمذي، للسيوطي: 1/ 195.

وحاصِلُ الحَدِيثَيْنِ، أَنَّ مَنْ قامَ بِحَقِّ اللهِ تَعالَىٰ مِنْ أَمْرِ الصَّلاةِ، وَسَلِمَ مِنْ دِمَاءِ العِبَادِ؛ فَهُوَ المُسَلَّمُ، وَمَنْ فاتَهُ واحِدَةٌ مِنْهُمَا؛ فَقَدَ وَقَعَ فِي الهَلَكَةِ والوَرْطَةِ الكُبْرَىٰ، واللهُ تَعالَىٰ أَعْلَمُ.

وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ أَنَسٍ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ صَلَحَتْ؛ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ؛ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ»(3).

قال المُنَاوِيُّ فِي شَرْحِ الحَدِيثِ: «قَوْلُهُ ﷺ: (فَإِنْ صَلَحَتْ) بِأَنْ كَانَ أَتَىٰ بها مُتَوَفِّرَةَ الشُّرُوطِ والأَرْكانِ، وشَمِلَهَا الْقَبُولُ مِنَ الرَّحْمَنِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَهَمِّ، أَوْ أَهَمِّ مَا يتَعَيَّنُ رِعَايَتُهُ فِي الصَّلَاةِ الْخُشُوعُ؛ فَإِنَّهُ رُوحُها؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الصَّلَاةَ صِلَةٌ بَينَ العَبْدِ ورَبِّهِ، وَمَا كَانَ صِلَةً كَذَلِكَ، فَحَقُّ العَبْدِ أَنْ يكونَ خَاشِعًا؛ لِصَوْلَةِ الرُّبُوبِيَّةِ علَىٰ الْعُبُودِيَّةِ(4)، وقولُهُ ﷺ: (صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ) يَعْنِي سُومِحَ فِي جَمِيعِ أَعمالِهِ، وَلَمْ يُضَيَّقْ عَلَيْهِ فِي جَنْبِ مُحافَظَتِهِ عَلَيْهَا، وقَوْلُهُ ﷺ: (وَإِنْ فَسَدَتْ) بِأَنْ لَمْ تكُنْ

---

(1) أَيْ: إِنْ تَرَكَ شَيْئًا مِنَ الْمَفْرُوضِ مِنْ سَائِرِ الأَعْمَالِ: مِنْ حَجٍّ وَصِيامٍ وزَكَاةٍ؛ فَإِنَّهُ يُكَمَّلُ لَهُ بِالتَّطَوُّعِ ما نَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ، كَمَا يُكْمَلُ بِنَافِلَةِ الصَّلَاةِ مَا فَاتَهُ مِنْ فَرْضِهَا، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 3/ 997.

وحاصِلُ الحَدِيثَيْنِ: أَنَّ مَنْ قامَ بِحَقِّ اللهِ تَعالَىٰ مِنْ أَمْرِ الصَّلاةِ، وَسَلِمَ مِنْ دِمَاءِ العِبَادِ؛ فَهُوَ المُسَلَّمُ، وَمَنْ فاتَهُ واحِدَةٌ مِنْهُمَا؛ فَقَدْ وَقَعَ فِي الهَلَكَةِ والوَرْطَةِ الكُبْرَىٰ، واللهُ تَعالَىٰ أَعْلَمُ.

(2) أخرجه الترمذي في سننه، بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ الصَّلَاةُ: 1/ 535، رقم: (413)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(3) أخرجه الطبراني في الأوسط، بَابُ من اسمه أحمد: 2/ 240، رقم: (1859)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(4) مَعْنَىٰ (لِصَوْلَةِ الرُّبُوبِيَّةِ علَىٰ الْعُبُودِيَّةِ): للرَّبِّ صَوْلَةٌ وسُلْطَانٌ قاهِرٌ علَىٰ عَبِيدِهِ، فَإِذَا اسْتَشْعَرَ العَبْدُ مَعْنَىٰ أَنَّهُ عَبْدٌ لِرَبٍّ ذَا سُلْطانٍ قَاهِرٍ؛ خَشَعَ قَلْبُهُ لَهُ، وَذَلَّتْ رَقَبَتُهُ لِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ؛ فَكَانَ الخُشوعُ والانكِسارُ، واللهُ تعالَىٰ أَعْلَمُ.

كَذَلِك؛ (فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ)؛ تِبْعًا لِفَسَادِهَا؛ وَهَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الزَّجْرِ والتَّحْذِيرِ مِنَ التَّفْرِيط فِيهَا»[1].

ثَانِيًا: الصَّلَاةُ أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

لَمَّا تَقَرَّرَ أَنَّ العَوْدَةَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ حَقِيقَةٌ كائِنَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ المَصِيرَ والمَرْجِعَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، لا شَكَّ فِي ذَلِكَ، وأَنَّ المَآلَاتِ يومها مُخْتَلِفَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تعالَىٰ، وأَنْذَرَ فِي كِتَابِهِ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[2]، وَأَنَّ الخَلْقَ فِي هَذَيْنِ المَسْكَنَيْنِ مُتَفَاوِتُونَ أَعْظَمَ التَّفَاوُتِ؛ فَإِنَّهُ «يَتَعَيَّنُ عَلَىٰ العَبْدِ المُؤْمِنِ الطَّالِبِ للنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ، وَلِدُخُولِ الجَنَّةِ، وللقُرْبِ مِنْ مَوْلَاهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ، والنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ أَنْ يَطْلُبَ ذَلِكَ بالأَسْبَابِ المُوصِلَةِ إِلَىٰ رَحْمَةِ اللهِ تَعالَىٰ وَعَفْوِهِ ومَغْفِرَتِهِ وَرِضَاهُ ومَحَبَّتِهِ؛ فَبِها يُنالُ مَا عِنْدَ اللهِ تَعالَىٰ مِنَ الكَرَامَةِ؛ فَالواجِبُ عَلَىٰ العَبْدِ البَحْثُ عَنْ خِصَالِ التَّقْوَىٰ التِي شَرَعَها اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، والتَّقَرُّبُ بِذَلِكَ إِلَىٰ اللهِ ﷻ؛ فَإِنَّهُ لَا طَرِيقَ للعَبْدِ يُوصِلُهُ إِلَىٰ رِضَا مَوْلَاهُ وَقُرْبِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ ومَغْفِرَتِهِ سِوَىٰ ذَلِكَ»[3].

وَقَدْ تَوافَرَتِ الأَخْبارُ، وتَكاثَرَتِ الآثارُ علَىٰ أَنَّ أَحَبَّ مَا تَقَرَّبَ بِهِ العِبَادُ إِلىٰ اللهِ تعالَىٰ ما افْتَرَضَهُ عَلَيْهِمْ، وأَحَبَّ الأَعْمالِ -مِمَّا افْتَرَضَهُ اللهُ تعالَىٰ- إِليهِ الصلاةُ؛ فَقَدْ جاءَ النَّصُّ الصَّرِيحُ بِذَا عَنِ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ ﷺ، فعن أَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ يَقُولُ: حَدَّثَنَا صَاحِبُ هَذِهِ الدَّارِ -وَأَشَارَ إِلَىٰ دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه- قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: «أَيُّ الْعَمَلِ

---

(1) التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي: 1/ 390.

(2) الشورىٰ: 7.

(3) انظر: المَحَجَّةَ فِي سَيْرِ الدُّلْجَةِ، لابن رجب: 1/ 41،42.

أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَىٰ وَقْتِهَا»[1]، وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁، قَالَ: قُلْتُ: قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَيُّ الأَعْمَالِ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَىٰ مَوَاقِيتِهَا»[2].

قال ابنُ رَجَبٍ: «مَا كانَ مِنَ الأعمالِ أحبَّ إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ الأعمالِ، وَهُوَ أقربُ إِلَىٰ الجنَّةِ مِنْ غيرِه؛ فإنَّ مَا كانَ أَحَبَّ إِلىٰ اللهِ ﷿؛ فعامِلُهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ اللهِ تعالَىٰ مِنْ غيرِهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ، قَالَ: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ؛ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ»[3]، وَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﵁: «أفضلُ الأَعْمالِ أَدَاءُ مَا فَرَضَ اللهُ تَعالَىٰ؛ فَدَلَّ حديثُ ابنِ مَسْعودٍ ﵁ هَذَا عَلَىٰ أنَّ أَفْضَلَ الأَعْمالِ وأَقْرَبَها إِلَىٰ اللهِ تعالَىٰ، وأَحَبَّها إليهِ الصَّلاةُ علَىٰ مَواقِيتِها المُؤَقَّتَةِ لَهَا»[4].

ثَالِثًا: الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ

لَقَدْ تَأَكَّدَ هَذَا الخَبَرُ بِمَا رَوَىٰ أَبو هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ؛ فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ؛ فَلْيَسْتَكْثِرْ»[5].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ فَضْلِ الصَّلَاةِ لِوَقْتِهَا: 1/ 112، رقم: (527)، ومسلم، بَابُ بَيَانِ كَوْنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَىٰ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ: 1/ 90، رقم: (85).

(2) أخرجه مسلم، بَابُ بَيَانِ كَوْنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَىٰ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ: 1/ 89، رقم: (85).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، باب التواضع: 8/ 105، رقم: (6502).

(4) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب: 4/ 208.

(5) أخرجه الطبراني في الأوسط، من اسمه أحمد: 1/ 84، رقم: (243)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

قَالَ عَلِيٌّ القَارِيُّ: «وَفِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَىٰ مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَنَّ الصَّلَاةَ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَيُوَافِقُهَا الْخَبَرُ الصَّحِيحُ: الصَّلَاةُ خيرُ مَوْضُوعٍ، أَيْ: خَيْرُ عَمَلٍ وَضَعَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ؛ لِيَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِهِ»[1].

وَعَنْ نَافِعٍ، مَوْلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه كَتَبَ إِلَىٰ عُمَّالِهِ: «إِنَّ أَهَمَّ أُمُورِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ، فمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا؛ حَفِظَ دِينَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا؛ فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ»[2]. وبِهَذَا الفَهْمِ قَالَ ابنُ قُدَامَةَ: «وأَمَّا الصَّلَاةُ فَإِنَها عِمَادُ الدِّينِ، وَغُرَّةُ الطَّاعَاتِ»[3].

رَابِعًا: علَى الصَّلَاةِ مَدَارُ القَبُولِ والرَّدِّ

الصلاةُ أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ فيهِ مِنْ أَعْمالِ العَبْدِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَعَلَيْهَا مَدَارُ القَبُولِ والرَّدِّ بَعْدَ ذَلِكَ، وبَاقِي أَعْمَالِ العَبْدِ تَبَعٌ لِذَلِكَ، أَخْرَجَ مَالِكٌ فِي مُوَطَّئِهِ: عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، أَنَّهُ قَالَ: «بَلَغَنِي أَنَّ أَوَّلَ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ الْعَبْدِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ قُبِلَتْ مِنْهُ؛ نُظِرَ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عَمَلِهِ، وَإِنْ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ؛ لَمْ يُنْظَرْ فِي شَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ»[4].

---

(1) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 2/ 509.

(2) أخرجه مالك في الموطأ، بابُ وُقُوتِ الصلاة: 2/ 10، رقم: (9).

(3) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي: 1/ 19.

(4) أخرجه مالك في الموطأ، بَابُ جامع الصلاة: 1/ 173، رقم: (89).

وَعَنْ عَوْنِ بنِ عَبْدِ اللهِ قالَ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا دَخَلَ قَبْرَهُ، سُئِلَ عَنْ صَلاتِهِ أَوَّلَ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ، فَإِنْ جَازَتْ لَهُ[1]؛ نُظِرَ فِيمَا سِوَىٰ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِ، وإِنْ لَمْ تُجزْ لَهُ؛ لَمْ يُنْظَرْ فِي شَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ بَعْدُ»[2].

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﵁، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ عَلَىٰ الْعِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ؛ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ؛ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ»[3].

خَامِسًا: الأَذَانُ نِدَاءُ الفَلَاحِ

وَلَّما كَانَتِ الصَّلاةُ سِرَّ فَلَاحِ العَبْدِ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ، وكانَ فَوْزُهُ مَوْقُوفًا عَلَيْها؛ كانَ الأَذَانُ بالصَّلاةِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَتَرَدَّدُ مَرَّتَيْنِ، وَذَلِكَ وَفَاءُ العَشَرَةِ، أَذَانًا بالفَلَاحِ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ قَوْلُ المُؤَذِّنِ: (حَيَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ.. حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَاحِ).

---

(1) معنىٰ: جَازَتْ لَهُ: أُجِيزَتْ، وقُبِلَتْ، قال ابن الأثير: «جَازَ وأَجَازَ بِمَعْنًىٰ واحِدٍ»، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 1/ 315.

(2) تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِيِّ: 1/ 218، والصلاة وأحكام تاركها، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 41، والكبائر، للذهبي: 1/ 20.

(3) أخرجه أحمد في مسنده، حديث عبادة بن الصامت ﵁: 37/ 366، رقم: (22693)، وأبو داود، بَابٌ فِيمَنْ لَمْ يُوتِرْ: 2/ 62، رقم: (1420)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

فَانْظُرْ كَيْفَ اخْتِيرَتْ لَفْظَةُ الفَلَاحِ فِي الأَذَانِ، كَمَا اخْتِيرَتْ فِي الآيَةِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1]، وكَمَا اخْتِيرَتْ فِي الحَدِيثِ: «فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ»[2]؛ تَعْلَمْ عَظَمَةَ هَذِهِ الكَلِمَةِ وبَرَكَتِها؛ قالَ النَّوَوِيُّ: «لَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ كَلِمَةٌ أَجْمَعَ لِلْخَيْرِ مِنْ لَفْظَةِ الْفَلَاحِ[3]، فَمَعْنَىٰ (حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَاحِ)، أَيْ: تَعَالَوْا إِلَىٰ سَبَبِ الْفَوْزِ، وَالْبَقَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَالْخُلُودِ فِي النَّعِيمِ، وَالْفَلَاحُ وَالْفَلَحُ تُطْلِقُهُمَا الْعَرَبُ أَيْضًا عَلَىٰ البَقَاءِ»[4]. و«الفَلَاحُ: الظَّفَرُ وإِدْرَاكُ البُغْيَةِ، وذَلِكَ ضَرْبَانِ[5]: دُنْيَوِيٌّ، وأُخْرَوِيٌّ؛ فالدُّنْيَوِيُّ الظَّفَرُ بالسَّعَادَةِ التِي تَطِيبُ بِهَا حَيَاتُها، والأُخْرَوِيُّ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: بَقَاءٌ بِلَا فَنَاءٍ، وَعِزٌّ بِلَا ذُلٍّ، وَغَنَاءٌ بِلَا فَقْرٍ، وَعِلْمٌ بِلَا جَهْلٍ»[6].

سَادِسًا: الصَّلَاةُ رَافِعَةٌ للعَبْدِ إِلَى مَنَازِلِ القُرْبِ

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَرْفَعَ للعَبْدِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ مَنَازِلِ القُرْبِ مِنَ الصَّلَاةِ؛ فالصَّلَاةُ رَافِعَةٌ للعَبْدِ عِنْدَ اللهِ تَعالَىٰ، فَإِنَّ المُسْلِمَ كُلَّمَا سَجَدَ للهِ تَعَالَىٰ سَجْدَةً؛ ارْتَفَعَ بِهَا عِنْدَ اللهِ تعالَىٰ دَرَجَةً، وَلَقَدْ كانَ مِنْ وَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ أَنْ يُكْثِرُوا مِنَ السُّجُودِ؛

---

(1) المؤمنون: 1-2.

(2) أخرجه الترمذي في سننه، بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ الصَّلَاةُ: 1/ 535، رقم: (413)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(3) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي: 2/ 37.

(4) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي: 4/ 89.

(5) ضَرْبَانِ: نَوْعانِ، والضَّرْبُ: النَّوْعُ والنَّمَطُ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 13/ 254.

(6) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني: 1/ 266، والتوقيف علىٰ مهمات التعاريف، للمناوي: 1/ 264.

فَعَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمَرِيِّ، قَالَ: «لَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْخِلُنِي اللهُ بِهِ الْجَنَّةَ؟ أَوْ قَالَ قُلْتُ: بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ، فَسَكَتَ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَسَكَتَ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ للهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ للهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً». قَالَ مَعْدَانُ: ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ لِي: مِثْلَ مَا قَالَ لِي: ثَوْبَانُ[1].

فَالسُّجُودُ قُرْبٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ أَيَّمَا قُرْبٍ، فَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنَ الأَرْضِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَرْفَعُ مَا يَكُونُ فِي الدَّرَجَاتِ؛ ولِذَلِكَ قالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[2]، وَفِي الحَدِيثِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»[3]، فَمَنْ أَرَادَ مِنَ العُبَّادِ أَنْ يَرْتَفِعَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَلْيُكْثِرْ مِنَ السُّجُودِ أَكْثَرَ، وَمَهْمَا أَكْثَرَ العَبْدُ؛ فاللهُ تَعالَىٰ أَكْثَرُ!

سَابِعًا: الصَّلَاةُ سَبَبٌ فِي رُفْقَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الجَنَّةِ

وإِنَّ كَثْرَةَ السُّجُودِ؛ سَبَبٌ فِي رُفْقَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الجَنَّةِ، ونَيْلِ شَفَاعَتِهِ، والعِتْقِ مِنَ النَّارِ؛ فَعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: «كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: سَلْ، فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ:

---

(1) أخرجه مسلم، بَابُ فَضْلِ السُّجُودِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ: 1/ 353، رقم: (488).

(2) العلق: 19.

(3) أخرجه مسلم، بَابُ مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ: 1/ 350، رقم: (482).

أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[1]. وَفِي رِوَايَةٍ: قالَ رَبِيعةُ: «فَنَظَرْتُ فَقُلْتُ: إِنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا يَنْقَطِعُ، فَلَا أَرَىٰ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ شَيْءٍ آخُذُهُ لِنَفْسِي لِآخِرَتِي، فَدَخَلْتُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا حَاجَتُكَ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اشْفَعْ لِي إِلَىٰ رَبِّكَ عَزَّوَجَلَّ؛ فَلْيُعْتِقْنِي مِنَ النَّارِ، فَقَالَ: مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَمَرَنِي بِهِ أَحَدٌ، وَلَكِنِّي نَظَرْتُ فِي أَمْرِي، فَرَأَيْتُ أَنَّ الدُّنْيَا زَائِلَةٌ مِنْ أَهْلِهَا؛ فَأَحْبَبْتُ أَنْ آخُذَ لِآخِرَتِي، قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[2].

ثَامِنًا: الصَّلَاةُ سَبَبٌ فِي رُؤْيَةِ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى فِي الجَنَّةِ

إِنَّ مِنْ شَرَفِ الصَّلَاةِ وعَظِيمِ بَرَكَتِهَا أَنَّ المُحافَظَةَ عَلَيها، خَاصَّةً صَلاةَ الصُّبْحِ، وصَلاةَ العَصْرِ؛ سَبَبٌ فِي أَعْلَىٰ نَعِيمِ الجَنَّةِ، وَهُوَ التَّنَعُّمُ بِرُؤْيَةِ وَجْهِ اللهِ تَعالَىٰ، فَعَنْ أَبِي مُوسىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّىٰ البَرْدَيْنِ[3]؛ دَخَلَ الجَنَّةَ»[4]. وقَالَ

(1) أخرجه مسلم، بَابُ فَضْلِ السُّجُودِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ: 1/ 353، رقم: (489).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، حديث ربيعة بن كعب الأسلمي: 27/ 107، رقم: (16579)، وَحَسَّنَهُ شعيب الأرنؤوط.

(3) البَرْدَانِ: الصُّبْحُ وَالْعَصْرُ، سُمِّيَا بِالبَرْدَيْنِ؛ لِأَنَّهُمَا يُصَلَّيَانِ فِي بَردَيِ النَّهَار: وَهُمَا طَرَفَاهُ حِينَ يَطِيبُ الهَوَاءُ، وتَذْهَبُ شِدَّةُ الْحَرِّ، انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: 1/ 401، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر: 2/ 53.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ الفَجْرِ: 1/ 119، رقم: (574)، ومسلم، بَابُ فَضْلِ صَلَاتَيِ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا: 1/ 440، رقم: (635).

-وقَدْ نَظَرَ إِلَىٰ البَدْرِ-: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ[1] فِي رُؤْيَتِهِ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا»[2]. وقَالَ: «الَّذِي تَفُوتُهُ صَلَاةُ العَصْرِ؛ كَأَنَّمَا وُتِرَ[3] أَهْلَهُ وَمَالَهُ»[4]. وفِي لَفْظٍ: «مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ العَصْرِ؛ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ[5]»[6].

فَانْظُرِ المُحافَظَةَ علَىٰ الصلواتِ سَبَبٌ فِي أَعْلَىٰ نَعِيمِ الجَنَّةِ، وعَدَمُ المُحَافَظَةِ عَلَىٰ صلاةٍ واحِدَةٍ مِنَ الصَّلواتِ سَبَبٌ فِي حُبُوطِ العَمَلِ، وَشَرٌّ مِنْ فُقْدانِ الأَهْلِ والمَالِ، وسَبَبٌ فِي عَذَابِ اللهِ تَعَالَىٰ.

---

(1) لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَته، أَي: لَا يَنْضَمُّ بَعْضكُم إِلَىٰ بعضٍ كَمَا تَنْضَمُّونَ فِي رُؤْيَة الْهلَالِ رَأسَ الشَّهْرِ، بَلْ تَرَوْنَهُ جَهْرَةً مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لِطَلَبِ رُؤْيَتِهِ كَمَا تروْنَ الْبَدْرَ، وَهُوَ الْقَمَرُ لَيْلَةَ الرَّابعَ عَشَرَ إِذَا عايَنَهُ المُعَايِنُ جَهْرَةً؛ لَمْ يحْتَجْ إِلَىٰ تكَلُّفٍ فِي طَلَبِ رُؤْيَتهِ ومُعَايَنَتِهِ، انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: 1/ 429.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ العَصْرِ: 1/ 115، رقم: (554)، ومسلم، بَابُ فَضْلِ صَلَاتَي الصُّبْحِ وَالْعَصْر، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا: 1/ 439، رقم: (633).

(3) قَالَ البخاري: وَتَرْتُ الرَّجُلَ: إِذَا قَتَلْتَ لَهُ قَتِيلًا، أَوْ أَخَذْتَ لَهُ مَالًا، انظر: صحيح البخاري: 1/ 115.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ إِثْمِ مَنْ فَاتَتْهُ العَصْرُ: 1/ 115، رقم: (552)، ومسلم، بَابُ التَّغْلِيظِ فِي تَفْوِيتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ: 1/ 435، رقم: (626).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ مَنْ تَرَكَ العَصْرَ: 1/ 115، رقم: (553).

(6) الرقائق، لمحمد أحمد الراشد: 1/ 22.

وَلِهَذَا المَعْنَىٰ -واللهُ تَعالَىٰ أَعْلَمُ- جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ بَيْعَةً، كانَ يُبَايِعُ عَلَيْهَا مَنْ يَدْخُلُ فِي الإِسْلَامِ؛ فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»(1).

تَاسِعًا: الصلاةُ خِدْمَةُ العبدِ للمَعْبودِ

إنَّ مِمَّا تَعَارَفَتْ عَلَيْهِ الأُمَمُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا أَنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ خَدَمًا، ولِكُلِّ خَدَمٍ خِدْمَةٌ، بِها يَتَحَبَّبُونَ ويَتَقَرَّبونَ إِلَىٰ مَلِكِهِمْ، وَبِها يَتَوَسَّلُونَ إِلَىٰ بُلُوغِ حَاجَاتِهِمْ مِنْهُ، أَلَا وَإِنَّ صَلَاةَ العِبَادِ خِدْمَةٌ لِرَبِّهِمْ وَمَلِيكِهِمْ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ، ولَيْسَ خُدَّامُ مُلُوكِ الأَرْضِ بِأَوْلَىٰ بِخِدْمَةِ مُلُوكِهِمْ مِنَ العُبَّادِ بِخِدْمَةِ المَلِكِ الحَقِّ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ، فَعَنْ ثَابِتٍ البُنَانِيِّ، قال: «الصَّلَاةُ خِدْمَةُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ عَلِمَ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنَ الصَّلَاةِ مَا قَالَ: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾(2)»(3).

والصَّلَاةُ قرابينُ المُقَرَّبينَ، وَهَدَايا المُحِبِّينَ، بها يَتَحَبَّبُونَ إِلَىٰ إِلهِهِمُ الرَّحِيمِ، وَبِها يَتَقَرَّبونَ إلىٰ مَلِكِهِمُ العظيمِ بين يَدَيْ حوائِجِهِمْ في رَغَبَاتِهِمْ وَرَهَباتِهِمْ. روىٰ المَرْوَزِيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «الصَّلَاةُ قُرْبَانٌ، إِنَّمَا مَثَلُ الصَّلَاةِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَرَادَ مِنْ إِمَامٍ حَاجَةً فَأَهْدَىٰ لَهُ هَدِيَّةً»(4).

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ: للهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»: 1/ 21، رقم: (57).

(2) آل عمران: 39.

(3) تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِيِّ: 1/ 99.

(4) تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِيِّ: 1/ 185.

والصَّلاةُ عَلَمُ العُبَّادُ التِي بِهَا يُعْرَفُونَ، وإِلَيْهَا يَنْتَسِبُونَ؛ فَعَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ، قالَ: «لَا يُسَمَّىٰ عَابِدٌ أَبَدًا عَابِدًا -وَإِنْ كَانَ فِيهِ كُلُّ خَصْلَةِ خَيْرٍ- حَتَّىٰ تَكُونَ فِيهِ هَاتَانِ الْخَصْلَتَانِ: الصَّوْمُ، وَالصَّلَاةُ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمِهِ»[1]؛ ولَمَّا كانَتِ الصَّلَاةُ كَذَلِكَ؛ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَمَلُّ الصَّلَاةَ، فَعَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ، قالَ: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ لَا يَشْبَعُ مِنَ الصَّلاةِ»[2].

وَلِهَذَا المَعْنَىٰ -واللهُ تَعالَىٰ أَعْلَمُ- كَانَتِ الصَّلاةُ آخِرَ وَصِيَّتِهِ ﷺ أُمَّتَهُ: فَعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ آخِرُ كَلامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «الصَّلاةَ الصَّلاةَ، اتَّقُوا اللهَ، فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»[3]، وفِي رِوَايَةٍ: «اتَّقُوا اللهَ فِي الصَّلَاةِ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ»[4].

عَاشِرًا: صَلاةُ الخَاشِعِينَ سَعَادَةٌ ونَعِيمٌ وَقُرَّةُ عُيُونٍ

لَا جَرَمَ[5] أَنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ يَنْشُدُ السَّعَادَةَ، وَيَبْحَثُ عَنْهَا، وَيَسْعَىٰ فِي تَحْصِيلِهَا بِكُلِّ سَبِيلٍ، وَكُلُّ واحِدٍ مِنَ الخَلْقِ لَهُ تَصَوُّرٌ خَاصٌّ للسَّعَادَةِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَرَاهَا تَفَوُّقًا فِي دِرَاسَتِهِ الأَكَادِيمِيَّةِ، ومِنْهُم مَنْ يَرَاهَا وَظِيفَةً أَوْ عَمَلًا؛ يُؤَهِّلُهُ لِحياةٍ كَرِيمَةٍ، ومِنْهُم مَنْ يَرَاهَا مَوْقِعًا

---

(1) حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الأَصْفِيَاءِ، لِأَبِي نُعَيْمٍ: 2/ 318.

(2) المحبة لله، لأبي إسحاقَ، إبراهيمَ بنِ الجُنَيْد الخُتَّلِيِّ: 1/ 38.

(3) أخرجه أحمد في مسنده، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه: 2/ 24، رقم: (585)، وأبو داود، بَابٌ فِي حَقِّ الْمَمْلُوكِ: 4/ 339، رقم: (5156)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(4) انظر: صحيحَ الجامع الصغير وزيادته، للألباني: 1/ 83.

(5) لَاجَرَمَ: بمعنىٰ حقًّا، مِنْ قولهم: لاجَرَمَ لأَفْعَلَنَّ كَذَا، أي: حقًّا، قالَ الفَرَّاءُ: لاجَرَمَ كَلِمَةٌ كانَتْ فِي الأَصْلِ بِمَنْزِلَةِ لا بُدَّ وَلَا مَحَالَةَ، فَجَرَتْ عَلَىٰ ذلِكَ، وكَثُرَتْ حتَّىٰ تحوَّلَتْ إِلَىٰ معنَىٰ القَسَمِ، وَصَارَتْ بِمَنْزِلَةِ حَقًّا، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 12/ 94.

مَرْمُوقًا، أَوْ رِئَاسَةً وَجَاهًا رَفِيعًا، ومِنْهُمْ مَنْ يَرَاهَا زَوْجَةً حَسْنَاءَ، يَقْضِي وَطَرَهُ[1] مِنْهَا، ومِنْهُمْ مَنْ يَرَاهَا بَيْتًا وَاسِعًا فَسِيحًا تَحُوطُهُ حَدِيقَةٌ غَنَّاءُ، مَحْفُوفَةٌ بالنَّخْلِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، ومِنْهُمْ مَنْ يَرَاهَا ذُرِّيَّةً نَجِيبَةً، تَقَرُّ بِهَا عَيْنُهُ، ولَعَلَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَصَابَ مِنَ السَّعَادَةِ حَظًّا يَسِيرًا، وجَانِبًا قَلِيلًا، يُوشِكُ أَنْ يَنْقَضِي سَرِيعًا، أَوْ يَنْقَلِبَ مِحْنَةً وَفِتْنَةً وبَلَاءً، وَكُلُّهُمْ قَدْ أَخْطَأَ سَبِيلَ السَّعَادَةِ الكَامِلَةِ الحَقَّةِ، التِي لَا سَعَادَةَ فَوْقَها، وَإِنَّ السَّعَادَةَ أَقْرَبُ إِلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ مِنْ شِرَاكِ[2] نَعْلِهِ، ومِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ، واللهُ تَعَالَىٰ شَرَعَ أَنْ يُنَادَىٰ إِلَىٰ السَّعَادَةِ عَلَىٰ مَلَأِ النَّاسِ، نِدَاءً يَمْلَأُ الآفَاقَ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، بِنِدَاءِ الأَذَانِ: (حَيَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ.. حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَاحِ)، والفَلَاحُ -كَمَا تَقَرَّرَ- الظَّفَرُ بالسَّعَادَةِ، والفَوْزُ بالسُّرورِ الذِي تَطِيبُ بِهِ الحَياةُ.

فَمَنْ يَرُومُ[3] السَّعَادَةَ ويَبْحَثُ عَنْهَا لَا يَجِدُهَا فِي شَيْءٍ كَمَا يَجِدُهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لَا سِيَّمَا فِي صَلاتِهِ خَاصَّةً، ومَا عَلَىٰ العَبْدِ الذِي يَرْجُو ذَوْقَ طَعْمِ نَعِيمِ الجَنَّةِ وَهُوَ بَعْدُ فِي الدُّنْيا إِلَّا أَنْ يَتَوَضَّأَ، ويَدْخُلَ علَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مُصَلِّيًا مَتَىٰ شَاءَ؛ فَسَيَجِدُ حِينَها مِنْ ذَوْقِ حَلاوَةِ السَّعَادَةِ، ومِنْ قُرَّةِ العُيُونِ بِهَا بِقَدْرِ مَا يَفْتَحُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْه مِنْ خُشُوعٍ وتَعْظِيمٍ، قالَ ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «لَيْسَ فِي الدُّنْيَا نَعِيمٌ يُشْبِهُ نَعِيمَ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا هَذَا؛ وَلِهَذَا

---

(1) وَطَرَهُ: حاجته، الوَطَرُ: كلُّ حاجةٍ كان لصاحبها فيها همّة فهي وَطَرُهُ، انظر: معجم العين، للخليل: 7/ 446.

(2) شِرَاكُ: الشِّرَاكُ: سَيْرُ النَّعْلِ الذِي يُرْبَطُ بِهِ، انظر: المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده: 6/ 684.

(3) يَرُومُ: يَطْلُبُ، الرَّوْمُ: طَلَبُ الشَّيْءِ. والمَرامُ: المَطْلَبُ. رام يروم رومًا ومرامًا: طَلَبَ، انظر: معجم العين، للخليل: 8/ 291.

قَالَ النَّبِي ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْياكُمُ النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[1]، فَأخْبرَ أَنَّهُ حُبِّبَ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئَانِ: النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، ثُمَّ قَالَ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وَقُرَّةُ الْعَيْنِ فوقَ الْمَحَبَّةِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَحْبُوبٍ تَقَرُّ بِهِ الْعَيْنُ، وَإِنَّمَا تَقَرُّ الْعَيْنُ بِأَعْلَىٰ الْمَحْبُوباتِ. فَإِنَّ مَا تَقَرُّ بِهِ الْعَيْنُ أَعلَىٰ مِنْ مُجَرَّدِ مَا يُحِبهُ، فَالصَّلَاة قُرَّةُ عُيُونِ الْمُحِبِّينَ فِي هَذِه الدُّنْيَا؛ لِمَا فِيهَا من مُنَاجَاةِ مَنْ لَا تَقَرُّ الْعُيُونُ، وَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ، وَلَا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إِلَّا إِلَيْهِ، والتَّنَعُّمِ بِذِكْرِهِ، والتَّذَلُّلِ والخُضُوعِ لَهُ، والقُرْبِ مِنْهُ، وَلَا سِيمَا فِي حَال السُّجُودِ، وَتلك الْحَالُ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ ﷻ فِيهَا، وَمِنْ هَذَا قَولُ النَّبِيِّ ﷺ: «يَا بِلَالُ أَرحْنَا بِالصَّلَاةِ»[2]؛ فَأَعْلَمَ بِذلِكَ أَنَّ رَاحَتَهُ ﷺ فِي الصَّلَاةِ كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِيهَا، فَكَيْفَ لَا تَكُونُ قُرَّةَ العَيْنِ؟ وكَيْفَ تَقَرُّ عَيْنِ الْمُحِبِّ بِسِواهَا؟»[3].

حَادِي عَشَرَ: الصَّلَاةُ رَاحَةُ بَالِ المَهْمُومِينَ وَمُسْتَرَاحُهُمْ وَأَمَانُهُمْ

وإِنَّ الصَّلاةَ راحَةُ بَالِ المَهْمُومِينَ ومُسْتَرَاحُهُمْ مِنَ الهُمُومِ والأَحْزَانِ والأَنْكَادِ وسَائِرِ المَشَاقِّ؛ قَالَ الشَّاطِبِيُّ: «فَالصَّلاةُ أَصْلُ مَشْرُوعِيَّتِها الخُضُوعُ للهِ سُبْحانَهُ بِإِخْلاصِ التَّوَجُّهِ إِليهِ، والانْتِصَابِ عَلَىٰ قَدَمِ الذِّلَّةِ والصَّغَارِ بينَ يديهِ، وتذكيرِ النَّفْسِ بالذِّكْرِ لَهُ، قالَ تَعالَىٰ:

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه: 19/ 305، رقم: (12293)، وَحَسَّنَهُ شعيب الأرنؤوط.

(2) أخرجه أبو داود، بَابٌ فِي صَلَاةِ الْعَتَمَةِ: 4/ 296، رقم: (4985)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(3) رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه: 1/ 31-34.

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾[1]، والاسْتِرَاحَةُ إِلَيها مِنْ أَنْكادِ الدُّنْيا، وفي الخَبَرِ: «أَرِحْنَا بِهَا يا بِلالُ[2]»[3].

والصَّلاةُ أَمَانٌ مِنْ كُلِّ مَخُوفٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّ المُصَلِّيَ لَا يَزَالُ فِي ذِمَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ وحِفْظِهِ؛ فَعَنْ جُنْدَبٍ الْقَسْرِيِّ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ صَلَاةَ الصُّبْحِ؛ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ، فَلَا يَطْلُبَنَّكُمُ اللهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدْرِكْهُ، ثُمَّ يَكُبَّهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ[4]»[5].

فَإِذَا مَا دَخَلَ العَبْدُ فِي صَلاتِهِ؛ «فإِنَّ القَلْبَ يَطْمَئِنُّ بالوُصُولِ إِلَيْها. ومَحْضُ لَذَّتِهِ، وفَرَحِهِ، وَسُرُورِهِ، وبَهْجَتِهِ؛ إِنَّمَا هُوَ فِي الصَّلَاةِ التِي هِيَ صِلَةٌ باللهِ تَعَالَىٰ، وحُضُورٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، ومُنَاجَاةٌ لَهُ، واقْتِرَابٌ مِنْهُ؛ فَإِذَا حَصَلَ للنَّفْسِ هَذَا الحَظُّ الجَلِيلُ؛ فَأَيُّ شَيْءٍ يُخْشَىٰ

---

(1) طه: 14.

(2) أخرجه أبو داود، بَابٌ فِي صَلَاةِ الْعَتَمَةِ: 4/ 296، رقم: (4985)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(3) الموافقات، للشاطبي: 3/ 142.

(4) مَعْنَىٰ الحَدِيثِ: أَنَّ مَنْ صَلَّىٰ الْفجْرَ؛ فَقَدْ أَخَذَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ ذِمَامًا وَعَهْدًا وأَمَانًا؛ فَلَا يَنْبَغِي لِأَحدٍ أَنْ يُؤْذِيَهَ بِظُلْمٍ، فَمَنْ ظَلَمَهُ، أو تعَرَّضَ لَهُ بِأَذىٰ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُطَالِبُهُ بِذِمَّتِهِ، ومن يُطَالِبُهُ بِذِمَّتِهِ؛ يُلْقِيهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تَتْرُكُوا صَلَاةَ الصُّبْحِ؛ فَيَنْتَقِضَ بِهِ العَهْدُ الذِي بَيْنَكُمْ وبَيْنَ رَبِّكُمْ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ؛ فَيَطْلُبَكُمْ بِهِ، انظر: كشف المُشْكِلِ من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: 2/ 49، وشرح المشكاة، للطيبي (الكاشف عن حقائق السنن): 3/ 896.

(5) أخرجه مسلم، بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَالصُّبْحِ فِي جَمَاعَةٍ: 1/ 454، رقم: (657).

مَعَهُ؟ وَأَيُّ غِنًىٰ فَاتَهَا حَتَّىٰ تَلْتَفِتَ إِلَيْهِ؟[1] ولِهَذَا قالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «إِنِّي أَدْخُلُ الصَّلاةَ، فَأَحْمِلُ هَمَّ خُرُوجِي مِنْهَا، ويَضِيقُ صَدْرِي؛ إِذَا عَرَفْتُ أَنِّىٰ خَارِجٌ مِنْهَا»[2].



---

(1) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 40.

(2) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 321.

الفَصْلُ الثَّانِي

شَرْطَا قَبُولِ الصَّلَاةِ

اتَّفَقَ السَّادَةُ العُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّ العَمَلَ المَقْبُولَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ فِيهِ شَرْطَانِ: الصِّحَّةُ والإِخْلاصُ، فَعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْعَثِ قال: «سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1] قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قُلْتُ: مَا أَخْلَصُهُ وأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: إِنَّ العَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا، ولَمْ يَكُنْ صَوَابًا؛ لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا؛ لَمْ يُقْبَلْ؛ حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا صَوابًا. وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ للهِ، وَالصَّوَابُ إِذَا كَانَ عَلَىٰ السُّنَّةِ»[2]. وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَا: «لَا يَنْفَعُ قَوْلٌ إِلَّا بِعَمَلٍ، وَلَا قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَلَا نِيَّةٌ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ»[3].

فَمَدَارُ قَبُولِ الأَعْمَالِ وَرَدِّهَا إِنَّمَا هُوَ وَفْقَ هَذَيْنِ الأَصْلَيْنِ، «فَلَا يَقْبَلُ اللهُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ، عَلَىٰ مُتَابَعَةِ السُّنَّةِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَىٰ

---

(1) هود: 7.

(2) حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الأَصْفِيَاءِ، لِأَبِي نُعَيْمٍ: 8/ 95، والكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثعالبي: 9/ 356.

(3) الشريعة، للآجري: 2/ 638.

عَامِلِهِ، يُرَدُّ عَلَيْهِ أَحْوَجَ مَا هُوَ إِلَيْهِ هَبَاءً مَنْثُورًا، وَكُلُّ عَمَلٍ بِلَا اقْتِدَاءٍ؛ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ عَامِلَهُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا»[1].

فَالعَمَلُ الذِي يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَيَقْبَلُهُ، وَيَرْضَىٰ عَنْ صَاحِبِهِ هُوَ العَمَلُ الذِي يُتْقِنُهُ عَامِلُهُ، وَيُخْرِجُهُ للهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَحْسَنِ حَالٍ وَأَتَمِّهِ؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»[2].

وإِنَّ الصَّلاةَ المَقْبُولَةَ التِي يَتَقَرَّرُ بِهَا مَصِيرُ العَبْدِ يَوْمَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَيُحْسَمُ بِهَا أَمْرُهُ: الفَلَاحُ أَوِ الخُسْرَانُ، لَا بُدَّ أَنْ يَتَوَفَّرَ فِيها شَرْطَا: الإِخْلَاصِ، والصِّحَّةِ.

أَمَّا الإِخْلَاصُ، فَهُوَ أَنْ يَبْتَغِيَ العَبْدُ بِصَلاتِهِ كُلِّهَا اللهَ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، لَا يُخَالِطُ نِيَّتَهُ وعَمَلَهُ شَائِبَةٌ مِنْ شَوائِبِ الرِّيَاءِ أَوِ العُجْبِ أَوَ حَظٍّ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ. وَأَمَّا الصِّحَّةُ، فَهِيَ تَنْتَظِمُ أَمْرَيْنِ: صِحَّةَ ظَاهِرِ الصَّلَاةِ، وَصِحَّةَ بَاطِنِهَا.

إِصْلَاحُ ظَاهِرِ الصَّلَاةِ وَبَاطِنِهَا

للصَّلَاةِ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، فَأَمَّا إِصْلَاحُ ظَاهِرِ الصَّلَاةِ؛ فَبِأَنْ يَأْتِيَ بِهَا عَلَىٰ وَجْهِهَا الصَّحِيحِ مِنْ حَيْثُ مُوَافَقَتُهَا لِأَحْكَامِ الصَّلَاةِ: شُرُوطِهَا، وَفَرَائِضِهَا وَسُنَنِهَا، وَأَمَّا إِصْلَاحُ بَاطِنِ الصَّلَاةِ، فَيَتَحَقَّقُ بِعَمَارَةِ القَلْبِ والفِكْرِ بالتَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ والتَّذَكُّرِ

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 105.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، الأَمَانَاتُ وَمَا يَجِبُ مِنْ أَدَائِهَا إِلَىٰ أَهْلِهَا: 7/ 233، رقم: (4930)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ.

والخُشُوعِ. فَمَنْ أَصْلَحَ ظَاهِرَ الصَّلَاةِ وبَاطِنَهَا؛ فَهُوَ المُفْلِحُ المُوَفَّقُ المَقْبُولُ، ومَنْ أَخَلَّ بِهِمَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا؛ فَصَلاتُهُ عَلَىٰ خَطَرٍ، ومَصِيرُهُ مَخُوفٌ، وأَمْرُهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ. وَإِنَّ إِصْلَاحَ ظَاهِرِ الصَّلَاةِ وَبَاطِنِهَا يَتَحَقَّقُ بِأُمُورٍ يَنْبَغِي أَنْ تُعْلَمَ؛ حتَّىٰ يَجْتَهِدَ العَبْدُ فِي تَحْقِيقِهَا واسْتِكْمَالِهَا؛ لِيَكُونَ مِنَ المُوَفَّقِينَ المَقْبُولِينَ المُفْلِحِينَ.

الشَّرْطُ الأَوَّلُ: إِصْلَاحُ ظَاهِرِ الصَّلَاةِ

أَمَّا إِصْلَاحُ ظَاهِرِ الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّهُ يَتَحَقَّقُ بِسَبَبَيْنِ، مَنِ اسْتَوْفَاهُمَا؛ فَقَدْ أَصَابَ وأَجَادَ، واسْتَحَقَّ عَظِيمَ الثَّوابِ، وَمَنْ أَخَلَّ بِهِمَا؛ فَهُوَ المُقَصِّرُ المُفَرِّطُ، وَصَلَاتُهُ لَا تَسْتَحِقُّ الثَّوابَ، وَإِنَّمَا أَمْرُهَا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ: إِنْ شَاءَ قَبِلَهَا بِرَحْمَتِهِ، وَإِنْ شَاءَ رَدَّهَا بِعَدْلِهِ؛ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

السَّبَبُ الأَوَّلُ: مُوَافَقَةُ الصَّلَاةِ لِصِفَةِ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ

إِنَّ أَظْهَرَ مَا يُمَيِّزُ الصَّلَاةَ الصَّحِيحَةَ هُوَ مُوَافَقَتُهَا لِصَلاةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَيْثُ صِفَتُهَا، وكَيْفِيَّةُ أَدَائِهَا، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِمُتَابَعَتِهِ عَلَىٰ صِفَةِ صَلَاتِهِ؛ فَعَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ، مَالِكِ بْنِ الحُوَيْرِثِ، قَالَ: أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ، وَنَحْنُ شَبَبَةٌ[1] مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فظَنَّ أَنَّا اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، وَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، وَكَانَ رَفِيقًا رَحِيمًا، فَقَالَ: «ارْجِعُوا إِلَىٰ أَهْلِيكُمْ، فَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا

---

(1) شَبَبَةٌ: جَمْعُ شَابٍّ، وتُجْمَعُ عَلَىٰ شُبَّانٍ أَيْضًا، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 2/ 438.

رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ؛ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»[1].

فَانْظُرْ قَوْلَهُ ﷺ: (فَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي)؛ تَجِدْ أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَىٰ كُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يُصَلِّيَ كَمَا كَانَ ﷺ يُصَلِّي، وأَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَىٰ كُلِّ مُكَلَّفٍ تَعَلُّمُ أَحْكَامِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ مِنَ المُقَرَّرِ أَنَّ تَعَلُّمَ أَحْكامِ الصَّلاةِ مِنَ الفُروضِ العَيْنِيَّةِ التِي لَا يُعْفَىٰ مِنَ العِلْمِ بِهَا أَحَدٌ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ للعَبْدِ أنْ يَتَوَصَّلَ إِلَىٰ القِيَامِ بِفَرْضِ الصَّلاةِ علَىٰ الوَجْهِ الذِي أَمَرَ اللهُ تَعالَىٰ إِلَّا بِتَعَلُّمِ صِفَتِهَا وأَحْكَامِهَا؛ وما لا يَتِمُّ الواجبُ إلَّا بهِ فهوَ واجبٌ؛ قال ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «إِنَّ العِلْمَ مِنْهُ فَرْضُ عَيْنٍ، لَا يَسَعُ مُسلمًا جَهلُهُ. وَاللَّازِمُ مِنْهَا: عِلْمُ مَا يَخُصُّ العَبْدَ مِنْ فِعْلِهَا؛ كَعِلْمِ الْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ...، وتوابِعِها، وشروطِها، ومُبْطِلاتِها»[2].

أَوَّلًا: عَدَمُ التَّهَاوُنِ بِصِفَةِ الصَّلَاةِ الظَّاهِرَةِ

لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَتَهَاوَنُ بِشَأْنِ صِفَةِ الصَّلَاةِ الظَّاهِرَةِ، بَلْ كَانَ يُؤَكِّدُ عَلَيْهَا مَا لَا يُؤَكِّدُ عَلَىٰ غَيْرِهَا؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّىٰ، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَرَدَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ، فَصَلَّىٰ، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ ثَلَاثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، فَمَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي، قَالَ: إِذَا قُمْتَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ، حَتَّىٰ

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ: 8/ 9، رقم: (6008).

(2) مِفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 156.

تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ، حَتَّىٰ تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ، حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ، حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ، حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»(1).

وَالاطْمِئْنَانُ فِي الصَّلَاةِ: «بِتَسْكِينِ الجَوارِحِ فِي الرُّكُوعِ والسُّجُودِ وَنَحْوِهِمَا مِنَ الرَّفْعِ والاعْتِدَالِ والجُلُوسِ، حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ مَفَاصِلُهُ قَدْرَ تَسْبِيحَةٍ فِي الرُّكُوعِ والسُّجُودِ والرَّفْعِ مِنْهُمَا، وَيَسْتَقِرَّ كُلُّ عُضْوٍ فِي مَحِلِّهِ»(2).

انْظُرْ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ الرَّجُلَ بِإِعَادَةِ الصَّلَاةِ بِقَوْلِهِ: (ارْجِعْ فَصَلِّ) مِرَارًا، وَحُكْمَهُ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ: (فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ)، وَهُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ بالأُمَّةِ؛ تَجِدْ أَهَمِّيَّةَ الأَمْرِ؛ فَلَوْ كَانَ فِي الأَمْرِ رُخْصَةٌ؛ لَمَا أَلَحَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ إِعَادَتِهَا، ولَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّىٰ عَلَّمَهُ إِيَّاهَا.

وَهَكَذَا كَانَ ﷺ يُلِحُّ عَلَىٰ تَعْلِيمِ المُسْلِمينَ هَذَا الحُكْمَ؛ فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ شَيْبَانَ رضي الله عنه، أَنَّهُ خَرَجَ وَافِدًا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «فَصَلَّيْنَا خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَحَ بِمُؤْخِرِ عَيْنِهِ إِلَىٰ رَجُلٍ لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّهُ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ»(3). وَعَنْ

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي لَا يُتِمُّ رُكُوعَهُ بِالإِعَادَةِ: 1/ 158، رقم: (793)، ومسلم، بابٌ: اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ: 1/ 298، رقم: (397).

(2) الفقه الإسلامي وأدلته، للزحيلي: 2/ 811.

(3) أخرجه أحمد في مسنده، حديث علي بن شيبان: 26/ 224، رقم: (16297)، وابن ماجه، باب الركوع في الصلاة: 1/ 282، رقم: (871)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَتِمُّوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ بَعْدِ ظَهْرِي إِذَا مَا رَكَعْتُمْ، وَإِذَا مَا سَجَدْتُمْ»(1).

وكَانَ ﷺ لَا يَتَوَانَىٰ فِي النَّهْيِ الشَّدِيدِ عَنِ الإِخْلَالِ بِصِفَةِ الصَّلَاةِ؛ فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِبْلٍ ﷺ، قَالَ: «نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، وَافْتِرَاشِ السَّبُعِ، وَأَنْ يُوَطِّنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ فِي الْمَسْجِدِ كَمَا يُوَطِّنُ الْبَعِيرُ»(2).

قَوْلُهُ ﷺ: «(نَقْرَةُ الْغُرَابِ): الْمُبَالَغَةُ فِي تَخْفِيفِ السُّجُودِ، وَأَنَّهُ لَا يَمْكُثُ فِيهِ إِلَّا قَدْرَ وَضْعِ الْغُرَابِ مِنْقَارَهُ فِيمَا يُرِيدُ أَكْلَهُ، (وَافْتِرَاشُ السَّبُعِ): وَهُوَ أَنْ يَبْسُطَ سَاعِدَيْهِ عَلَىٰ الْأَرْضِ فِي السُّجُودِ، (وَأَنْ يُوَطِّنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ): أَنْ يَأْلَفَ الرَّجُلُ مَكَانًا مَعْلُومًا مِنَ الْمَسْجِدِ مَخْصُوصًا بِهِ لَا يُصَلِّي إِلَّا فيهِ، فَإِنْ سَبَقَهُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ شَقَّ عَلَيْهِ»(3).

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُجْزِئُ صَلَاةُ الرَّجُلِ حَتَّىٰ يُقِيمَ ظَهْرَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ»(4).

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابٌ: كَيْفَ كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ: 8/ 131، رقم: (6644)، ومسلم، بَابُ الْأَمْرِ بِتَحْسِينِ الصَّلَاةِ وَإِتْمَامِهَا وَالْخُشُوعِ فِيهَا: 1/ 320، رقم: (425).

(2) أخرجه ابن ماجه، باب ما جاء في توطين المكان في المسجد يصلىٰ فيه: 1/ 459، رقم: (1429)، وأبو داود، بَابُ صَلَاةِ مَنْ لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ: 1/ 228، رقم: (862)، والنسائي في السنن الكبرىٰ، باب النَّهْيِ عَنْ نَقْرَةِ الْغُرَابِ: 1/ 352، رقم: (700)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(3) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 2/ 726.

(4) أخرجه ابن ماجه، باب الركوع في الصلاة: 1/ 282، رقم: (870)، وأبو داود، بَابُ صَلَاةِ مَنْ لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ: 1/ 226، رقم: (855)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَدَّ التَّقْصِيرَ فِي الصَّلَاةِ سَرِقَةً أَسْوَأَ مِنْ سَرِقَةِ المَالِ والمَتَاعِ؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ صَلَاتَهُ، قَالَ: وَكَيْفَ يَسْرِقُ صَلاتَهُ؟ قَالَ: لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا، وَلَا سُجُودَهَا»(1).

ثَانِيًا: خَطَرُ التَّهَاوُنِ بِصِفَةِ الصَّلَاةِ

وَإِنَّ التَّهَاوُنَ بِصِفَةِ الصَّلَاةِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ عَظِيمٌ، وَخَطَرَهُ جَلِيلٌ، وَإِنَّ مِنْ أَخْطَرِ الأَحْكَامِ التِي أَطْلَقَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ مَنْ لَا يُحْسِنُ صَلَاتَهُ مَا جَاءَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: «صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ، ثُمَّ جَلَسَ فِي طَائِفَةٍ مِنْهُمْ، فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَقَامَ يُصَلِّي، فَجَعَلَ يَرْكَعُ وَيَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ رضي الله عنه: أَتَرَوْنَ هَذَا؟ مَنْ مَاتَ عَلَىٰ هَذَا، مَاتَ عَلَىٰ غَيْرِ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ؛ يَنْقُرُ صَلَاتَهُ كَمَا يَنْقُرُ الْغُرَابُ الدَّمَ، إِنَّمَا مَثَلُ الَّذِي يَرْكَعُ وَيَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ كَالْجَائِعِ لَا يَأْكُلُ إِلَّا التَّمْرَةَ وَالتَّمْرَتَيْنِ؛ فَمَاذَا تُغْنِيَانِ عَنْهُ؟ فَأَسْبِغُوا الْوُضُوءَ، وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ(2)، أَتِمُّوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ»(3).

---

(1) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ذِكْرُ إِثْبَاتِ اسْمِ السَّارِقِ عَلَىٰ النَّاقِصِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ فِي صَلَاتِهِ: 5/ 209، رقم: (1888)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(2) وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ: الأَعْقَابُ: جَمْعُ عَقِبٍ، وَهُوَ مُؤَخَّرُ الْقَدَمِ، والوَيْلُ: الهَلَاكُ والعَذَابُ، ومَعْنَاهُ: وَيْلٌ لِأَصْحَابِ الْأَعْقَابِ الْمُقَصِّرِينَ فِي غَسْلِهَا، انظر: حاشية السُّيُوطِيِّ علىٰ سنن النسائي: 1/ 78.

(3) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، بَابُ إِتْمَامِ السُّجُودِ، وَالزَّجْرِ عَنِ انْتِقَاصِهِ وَتَسْمِيَةِ الْمُنْتَقِصِ رُكُوعَهُ وَسُجُودَهُ سَارِقًا، أَوْ هُوَ سَارِقٌ مِنْ صَلَاتِهِ: 1/ 355، رقم: (665)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ.

وَهَذَا هُوَ حُكْمُ الصَّحَابَةِ ﷺ عَلَىٰ مَنْ لَا يُحْسِنُ صَلاتَهُ؛ فعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، قَالَ: رَأَىٰ حُذَيْفَةُ ﷺ رَجُلًا عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ[1] يَنْقُرُ، فَقَالَ: «مُذْ كَمْ صَلَّيْتَ هَذِهِ الصَّلَاةَ؟ قَالَ: مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً؟ قَالَ: لَوْ مُتَّ، مُتَّ عَلَىٰ غَيْرِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا مُحَمَّدٌ ﷺ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيُخَفِّفُ وَيُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ[2]»[3].

ثَالِثًا: الشَّفَقَةُ عَلَى المُسِيءِ صَلَاتَهُ

وَإِنَّ الذِي لَا يُحْسِنُ صَلَاتَهُ لَفِي بَلَاءٍ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَعَلَىٰ خطَرٍ جَسِيمٍ، وَلَقَدْ كَانَتْ شَفَقَةُ الأَوَّلِينَ وَخَوْفُهُمْ عَلَىٰ مَنْ يُسِيءُ صَلاتَهُ مِثْلَ شَفَقَتِهِمْ وخَوْفِهِمْ عَلَىٰ مَنْ يَتَعَرَّضُ لِأَبْلَغِ بَلَاءٍ؛ قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: «مَثَلُ الَّذِي يَرَىٰ الرَّجُلَ يُسِيءُ صَلَاتَهُ، فَلَا يَنْهَاهُ، مَثَلُ الَّذِي يَرَىٰ النَّائِمَ تَنْهَشُهُ حَيَّةٌ، ثُمَّ لَا يُوقِظُهُ»[4].

بَلْ إِنَّ الصَّالِحِينَ كَانُوا يَرْحَمُونَ أَبْنَاءَ مَنْ لَا يُحْسِنُ صَلاتَهُ، خَشْيَةَ أَنْ يَتَعَلَّمُوا مِنْهُ صَلَاتَهُ؛ فَعَنْ فُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ، قَالَ: رَأَىٰ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رَجُلًا يُسِيءُ صَلَاتَهُ،

---

(1) كِنْدَةُ: اسْمُ حَيٍّ مِنَ اليَمَنِ، وهُمْ وَلَدُ كِنْدَةَ، واسْمُهُ عُقَيْرُ بنُ ثَوْرِ بن عَدِيِّ بنِ الحَارِثِ بنِ مُرَّةَ بن أَدَدِ بنِ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ عُرَيْبِ بنِ مَالِكِ بنِ زَيْدِ بنِ كَهْلانَ بنِ سَبَأٍ، انظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان: 9/ 5906.

(2) معنىٰ: (لَيُخَفِّفُ وَيُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ) أي: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُخَفِّفُ فِي صَلَاتِهِ بِأَنْ يُخَفِّفَ فِي القِرَاءَةِ مَثَلًا، وَيُتِمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا، وَسَائِرَ وَاجِبَاتِهَا، ويُحْسِنَ أَدَاءَهَا، يَعْنِي أَنَّ التَّخْفِيفَ لا يَتَنَافَىٰ مَعَ الإِتْمَامِ والإِحْسَانِ فِي الصَّلَاةِ، انظر: ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ، للوَلَّوِي: 15/ 267.

(3) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ذِكْرُ الْإِخْبَارِ عَنْ نَفْيِ جَوَازِ صَلَاةِ الْمَرْءِ إِذَا لَمْ يُقِمْ أَعْضَاءَهُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: 4/ 219، رقم: (1894)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(4) شُعَبُ الإِيمانِ، للبيهقي: 4/ 505.

فَقَالَ: «مَا أَرْحَمَنِي بِعِيَالِهِ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا يَحْيَىٰ، يُسِيءُ هَذَا صَلَاتَهُ، وَتَرْحَمُ عِيَالَهُ؟! قَالَ: إِنَّهُ كَبِيرُهُمْ، وَمِنْهُ يَتَعَلَّمُونَ»[1].

وَمَا هَذِهِ الشَّفَقَةُ، وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ، وَهَذَا الخَوْفُ عَلَىٰ مَنْ لَا يُحْسِنُ صَلَاتَهُ، وَعَلَىٰ أَبْنَائِهِ؛ إِلَّا لِخَطَرِ أَمْرِ التَّهَاوُنِ فِي إِصْلَاحِ الصَّلَاةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ أَلَا فَلْيَتَنَبَّهِ العُقَلَاءُ!

رَابِعًا: تَعَلُّمُ الصَّلاةِ أَوْلَى

وَإِنَّ مِنَ العَجَبِ أَنْ تَجِدَ المَرْءَ يُمْضِي أَكْثَرَ مِنْ شَطْرِ حَيَاتِهِ يَتَنَقَّلُ مِنْ مَدْرَسَةٍ إِلَىٰ مَدْرَسَةٍ، وَمِنْ مَعْهَدٍ إِلَىٰ مَعْهَدٍ، وَمِنْ جَامِعَةٍ إِلَىٰ جَامِعَةٍ، يَتَلَقَّىٰ العُلُومَ التِي لَا يَضُرُّ الجَهْلُ بِهَا، وَيُقَصِّرُ فِي سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ يَتَعَلَّمُ فِيها أَمْرَ صَلاتِهِ؛ مِمَّا لَا يَسَعُهُ الجَهْلُ بِهِ؛ فَيُكْتَبُ لَهُ بِهَا السَّعَادَةُ وَالفَلَاحُ، وَهِيَ أَوْلَىٰ لَهُ مِنْ كُلِّ العُلُومِ وَأَبْرَكُ وَأَشْرَفُ.

فَعَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ يَنْشُدُ الفَلَاحَ وَالنَّجَاةَ أَنْ يَتَعَلَّمَ صِفَةَ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَطْبِيقِهَا عَمَلِيًّا فِي كُلِّ صَلاتِهِ، وَأَنْ يُعَلِّمَهَا أَهْلَهُ وَأَبْنَاءَهُ وَمَنْ لَهُمْ عَلَيْهِ حَقٌّ. وَإِنَّهَا لَكَثِيرَةٌ هِيَ الكُتُبُ وَالدُّرُوسُ التِي تُعْنَىٰ بِتَعْلِيمِ صِفَةِ الصَّلَاةِ الصَّحِيحَةِ. وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ -بِفَضْلِهِ وَتَمَامِ مِنَّتِهِ- وَفَّقَنَا لِإِعْدَادِ مَادَّةٍ لِذَلِكَ بِعُنْوانِ: (السَّهْلُ فِي صِفَةِ الصَّلَاةِ، وَأَحْكَامِها، وَحَظِّ القَلْبِ مِنْها)، وَلَهَا مُخْتَصَرٌ لَطِيفٌ مُجْزِئٌ، بِعُنْوانِ: (السَّهْلُ مُخْتَصَرُ صِفَةِ الوضوءِ، وَصِفَةِ الصَّلَاةِ) كَمَا لَهَا تَسْجِيلٌ مَرْئِيٌّ: بِالصَّوْتِ وَالصُّورَةِ، يُوَضِّحُ عَمَلِيًّا صِفَةَ الصَّلاةِ الصَّحِيحَةِ خُطْوَةً فَخُطْوَةً، بِوُسْعِ المُسْلِمِ أَنْ

---

(1) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نُعَيْم: 2/ 383.

يُرَاجِعَهَا، وَيَتَدَارَسَهَا، أَوْ أَنْ يَتَدَارَسَ أَيَّ مَادَّةٍ مُعْتَبَرَةٍ فِي صِفَةِ الصَّلَاةِ؛ يَحْصُلُ لَهُ بِهَا العِلْمُ الذِي يُعِينُهُ علَىٰ أَدَاءِ الصَّلَاةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا الصَّحِيحِ المَقْبُولِ.

السَّبَبُ الثَّانِي: الصَّلَاةُ فِي المَسْجِدِ لِلرِّجَالِ

كَثُرَتِ الأَحَادِيثُ التِي تُرَغِّبُ رِجَالَ الأُمَّةِ فِي المُحَافَظَةِ عَلَىٰ الصَّلَاةِ جَمَاعَةً فِي بُيُوتِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ مَا يَجْعَلُهَا مِنْ أَجَلِّ القُرُبَاتِ، ومِنْ أَبْرَكِ أَعْمَالِ العَبْدِ، وأَرْجَاهَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، كَمَا وَرَدَ فِي التَّرْهِيبِ مِنْ تَرْكِ الجَمَاعَةِ فِي بُيُوتِ اللهِ تَعَالَىٰ، والتَّغْلِيظِ عَلَىٰ مَنْ زَهِدَ فِيها أحادِيثُ تَتَصَدَّعُ مِنْها الرُّؤُوسُ، مِنْها:

أَوَّلًا: اسْتِحْوَاذُ الشَّيْطانِ عَلَى تَارِكِ صَلَاةِ الجَمَاعَةِ

تَرْكُ صَلاةِ الجَمَاعَةِ فِي بُيُوتِ اللهِ تَعَالَىٰ سَبَبٌ فِي اسْتِحْوَاذِ الشَّيْطانِ وَسَيْطَرَتِهِ عَلَىٰ العَبْدُ؛ فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ، لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ، إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ[1] عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ»، قَالَ زَائِدَةُ: قَالَ السَّائِبُ: يَعْنِي بِالْجَمَاعَةِ: الصَّلَاةَ فِي الْجَمَاعَةِ[2]. وَمَنِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطانُ؛ أَخَذَ بِزِمَامِهِ إِلَىٰ كُلِّ سُوءٍ، وَصَرَفَ عَنْهُ كُلَّ خَيْرٍ، فَلَا يُبَالِي فِي أَيِّ أَوْدِيَةِ الدُّنْيا هَلَكَ.

---

(1) اسْتَحْوَذَ: سَيْطَرَ وَغَلَبَ واسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِمْ، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 1/ 457.

(2) أخرجه أبو داود، بَابٌ فِي التَّشْدِيدِ فِي تَرْكِ الْجَمَاعَةِ: 1/ 150، رقم: (547)، والنسائي في سننه، بَابٌ فِي التَّشْدِيدِ فِي تَرْكِ الْجَمَاعَةِ: 2/ 106، رقم: (847)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ.

ثَانِيًا: هَمُّ النَّبِيِّ ﷺ بحَرْقِ الذِينَ يُصَلُّونَ فِي بُيُوتِهِمْ بِغَيْرِ عُذْرٍ

ولَقَدْ هَمَّ النَّبِيُّ ﷺ بحَرْقِ الذِينَ يُصَلُّونَ فِي بُيُوتِهِمْ، وَيَتْرُكُونَ الصَّلَاةَ جَمَاعَةً فِي المَسَاجِدِ لِغَيْرِ عُذْرٍ شَرْعِيٍّ؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَىٰ رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ؛ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ»[1].

قَوْلُهُ ﷺ: «(عَرْقًا): هُوَ الْعَظْمُ الَّذِي أُخِذَ عَنهُ اللَّحْمُ، وقَوْلُهُ: (مِرْمَاتَيْنِ): هِيَ مَا بَين ظِلْفَيِ الشَّاةِ من اللَّحْمِ، أَيْ: لَوْ عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ حَضَرَ صَلَاةَ الْعِشَاءِ؛ لَوَجَدَ نَفْعًا دُنْيَوِيًّا وَإِنْ كَانَ خَسِيسًا حَقِيرًا؛ لَحَضَرَها لقُصُورِ هِمَّتِهِ، وَلَا يَحْضُرُها لِمَا لَهَا مِنَ الأُجُورِ والمَثُوبَاتِ. ومَعْنَىٰ الظِلْفُ: الظُّفْرُ»[2].

فَكَيْفَ بِعَبْدٍ يُحِبُّ اللهَ تَعَالَىٰ، وَرَسُولَهُ ﷺ يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلاةِ فِي بُيُوتِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ يَسْمَعُ وَعِيدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِحَرْقِ بَيْتِهِ عَلَيْهِ؟! تَخَيَّلْ نَفْسَكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَهُمُّ بِحَرْقِكَ، كَيْفَ تَجِدُ شُعُورَكَ؟!

ثَالِثًا: عَدَمُ الإِذْنِ لِأَعْمَى لَا قَائِدَ لَهُ بالتَّخَلُّفِ عَنِ الصَّلَاةِ فِي المَسْجِدِ

وإِنَّ مِنْ عَظِيمِ أَمْرِ الصَّلَاةِ فِي بُيُوتِ اللهِ تَعَالَىٰ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْذَنْ لِأَعْمَىٰ لَا قَائِدَ لَهُ، بَعِيدِ المَنْزِلِ عَنِ المَسْجِدِ، وطَرِيقُهُ مَحْفُوفَةٌ بِالمَخَاوِفِ؛ بِالصَّلَاةِ فِي بَيْتِهِ،

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، بَاب وُجُوبِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ: 1/ 131، رقم: (644).

(2) انظر: عمدة القاري، لبدر الدين العيني: 5/ 161.

والتَّخَلُّفِ عَنِ الصَّلَاةِ فِي المَسَاجِدِ؛ فعَنِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ﵁، أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي رَجُلٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ شَاسِعُ الدَّارِ[1]، ولِي قَائِدٌ لَا يُلَائِمُنِي، فَهَلْ لِي رُخْصَةٌ أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِي؟ قَالَ: «هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «لَا أَجِدُ لَكَ رُخْصَةً»[2].

❋ وَفِي رِوَايَةٍ: قالَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ﵁: «إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ نَخْلًا، وَشَجَرًا، وَلَا أَقْدِرُ عَلَىٰ قَائِدٍ كُلَّ ساعَةٍ، أَيَسَعُنِي أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِي؟ قَالَ: «أَتَسْمَعُ الْإِقَامَةَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأْتِهَا»[3].

(1) شَاسِعُ الدَّارِ، أي: بَعِيدُهَا عَنِ المَسْجِدِ، حاشية السندي علىٰ سنن ابن ماجه: 1/ 265.

(2) أخرجه أبو داود، بَابٌ فِي التَّشْدِيدِ فِي تَرْكِ الْجَمَاعَةِ: 1/ 151، رقم: (552)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(3) أخرجه أحمد في مسنده، حديث عمر بن مكتوم: 24/ 245، رقم: (15491)، وَصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

* وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ: إِنَّ الْمَدِينَةَ أَرْضُ هَوَامٍّ[1] وَسِبَاعٍ، فَهَلْ لِي رُخْصَةٌ أَنْ أُصَلِّيَ الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي بَيْتِي؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَسْمَعُ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ» قَالَ: فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَحَيْهَلَا[2]»[3].

فَلَوْ أَذِنَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَافًى أَنْ يُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ؛ لَأَذِنَ لِهَذَا الأَعْمَى بِهَذِهِ الحَالِ بِالتَّخَلُّفِ عَنِ الصَّلَاةِ فِي المَسَاجِدِ؛ وَلَا تَأْخُذكَ الرَّحْمَةُ بِهَذَا فِي هَذَا المَوْطِنِ؛ فَلَسْتَ أَرْحَمَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّ إِصْرَارَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عَدَمِ الإِذْنِ لَهُ؛ إِنَّما هُوَ رَحْمَةٌ بِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الأَعْمَى لَا يَمْنَعُهُ مِنَ الخُرُوجِ للمُهِمَّاتِ عَمَاهُ؛ فَلَوْ قِيلَ لِأَعْمَى: لَكَ عَطِيَّةٌ مِنْ مَالٍ أَوْ غَيْرِهِ فِي أَقْصَى الأَرْضِ؛ لَسَعَى إِلَيْهَا بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، وَلَمَا تَأَخَّرَ عَنْ حَاجَتِهِ تِلْكَ؛ ولَلَّهِ لَعَطِيَّةُ اللهِ تَعَالَى لَهُ فِي المَسَاجِدِ أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ كُلِّ رَغَائِبِ الدُّنيا. وَهَذَا ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ رضي الله عنه بَعْدَ هَذَا يُصْبِحُ مُؤَذِّنًا لِمَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَأَيُّ رَحْمَةٍ أَصَابَتْهُ، وأَيُّ فَضْلٍ، وَأَيُّ خَيْرٍ، يُمْكِنُ أَنْ يُساقَ لَهُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا؟!

---

(1) هَوَامٌّ: جَمْعُ هامَّةٍ، وفِي الهَامَّةِ قَوْلَانِ: أَحدهمَا: أَنَّهَا كل نَسْمَةٍ تَهِمُّ بسوءٍ، وَالثَّانِي: الْحَيَّاتُ وكُلُّ ذِي سُمٍّ يَقْتُلُ، ولَعَلَّهُ المَقْصُودُ هُنَا فِي الحَدِيثِ، فَأَما مَا له سُمٌّ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَقْتُلُ فَهِيَ السَّوَامُّ، كَالزُّنْبُورِ، وَأما مَا يُؤْذِي وَلَيْسَ بِذِي سُمٍّ كالفَأْرِ واليَرْبُوعِ فَهِيَ القَوَامُّ. وَقَدْ تَقَعُ الهَامَّةُ عَلَى كُلِّ مَا يَدُبُّ مِنَ الْحَيَوَانِ، وَمِنْه قَوْله ﷺ لِكَعْبِ بنِ عُجْرَةَ: «أَيُؤْذِيك هوَام رَأسك؟» يَعْنِي الْقمل، انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: 2/ 415.

(2) حَيْهَلَا: كَلِمَةُ حَثٍّ وَاستِعْجَالٍ، بِمَعْنَى: أَجِبْ، فَهِيَ كَلِمَةُ اسْتِدْعَاءٍ فِيهَا حَثٌّ: أَيْ هَلُمُّوا مُسْرِعِينَ، انظر: فتح الباري، لابن حجر: 7/ 399، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 3/ 844.

(3) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، مَنْ قَالَ إِذَا سَمِعَ الْمُنَادِي فَلْيُجِبْ: 1/ 303، رقم: (3473).

رَابِعًا: الصَّلَاةُ فِي المَسَاجِدِ سُنَنُ الهُدَى، وَتَرْكُهَا دِلَالَةُ نِفَاقٍ

جَاءَ الخَبَرُ بِأَنَّ الصَّلَاةَ فِي بُيُوتِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ سُنَنِ الهُدَىٰ التِي سَنَّهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلمُسْلِمِينَ، وَأَنَّ التَّخَلُّفَ عَنِ الصَّلَاةِ فِي بُيُوتِ اللهِ تَعَالَىٰ دِلَالَةٌ مِنْ دَلَائِلِ النِّفَاقِ، وَقِلَّةِ الإِيمانِ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَىٰ اللهَ غَدًا مُسْلِمًا؛ فَلْيُحَافِظْ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَىٰ بِهِنَّ، فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَىٰ[1]، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنَ الْهُدَىٰ، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ؛ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ؛ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَىٰ مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ؛ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَىٰ بِهِ يُهَادَىٰ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ[2] حَتَّىٰ يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[3].

وَلِأَجْلِ هَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَفَقَّدُ المُسْلِمِينَ فِي المَسَاجِدِ، وَيَتَّهِمُ المُتَخَلِّفِينَ عَنْهَا بالنِّفَاقِ؛ فَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا الصُّبْحَ، فَقَالَ: «أَشَاهِدٌ فُلَانٌ، قَالُوا: لَا، قَالَ: أَشَاهِدٌ فُلَانٌ، قَالُوا: لَا، قَالَ: إِنَّ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَىٰ الْمُنَافِقِينَ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا؛ لَأَتَيْتُمُوهُمَا وَلَوْ

---

(1) سُنَنَ الْهُدَىٰ: طَرَائِقِ الْهُدَىٰ، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي: 5/ 156.

(2) يُهَادَىٰ: يُمْسِكُهُ رَجُلَانِ مِنْ جَانِبَيْهِ بِعَضُدَيْهِ، يَعْتَمِدُ عَلَيْهِمَا، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي: 5/ 156.

(3) أخرجه مسلم، بَابُ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ مِنْ سُنَنِ الْهُدَىٰ: 1/ 453، رقم: (654).

حَبْوًا عَلَىٰ الرُّكَبِ، وَإِنَّ الصَّفَّ الْأَوَّلَ عَلَىٰ مِثْلِ صَفِّ الْمَلَائِكَةِ، وَلَوْ عَلِمْتُمْ مَا فَضِيلَتُهُ؛ لَابْتَدَرْتُمُوهُ»[1]، وَإِنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ مَعَ الرَّجُلِ أَزْكَىٰ[2] مِنْ صَلَاتِهِ وَحْدَهُ، وَصَلَاتُهُ مَعَ الرَّجُلَيْنِ أَزْكَىٰ مِنْ صَلَاتِهِ مَعَ الرَّجُلِ، وَمَا كَثُرَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ»[3].

فَمَنْ تَدَبَّرَ فِعْلَ النَّبِيِّ ﷺ هَذَا، وَرَأَىٰ تَشْدِيدَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ الصَّلَاةِ فِي المَسَاجِدِ، واتِّهَامَهُ المُتَخَلِّفِينَ بالنِّفَاقِ؛ عَلِمَ أَهَمِّيَّةَ أَمْرِهَا، وخَطَرَ التَّخَلُّفِ عَنْهَا.

خَامِسًا: أَهْلُ الأَعْذَارِ مَعْذُورُونَ

إِنَّ هَذَا التَّشْدِيدَ وَتَرْكَ الإِعْذَارِ فِي الصَّلَاةِ فِي البُيُوتِ إِنَّما هُوَ خَاصٌّ بالرِّجَالِ القَادِرِينَ، أَمَّا أَهْلُ الأَعْذَارِ مِنَ الرِّجَالِ كالمَرْضَىٰ وغَيْرِهِمْ، والنِّساءِ، فَهُمْ مَعْذُورُونَ بالصَّلَاةِ فِي بُيُوتِهِم، وعَلَيْهِمْ حِينَهَا أَنْ يُحَافِظُوا عَلَىٰ الصَّلَاةِ فِي وَقْتِهَا، وَعَدَمُ تَأْخِيرِهَا، وَقَدْ سَبَقَ أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَىٰ وَقْتِهَا مِنْ أَحَبِّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وأَرْجَاهَا فِي مِيزَانِ العَبْدِ.

كَمَا يَحْسُنُ أَنْ يُقِيمَ أَهْلُ الأَعْذَارِ والنِّسَاءُ الصَّلَاةَ جَمَاعَةً فِي بُيُوتِهِمْ، فَتَتَجَمَّعُ نِسْوَةُ البَيْتِ، ويُصَلِّينَ جَمَاعَةً، تَؤُمُّهُمْ إِحْدَاهُنَّ، وَإِنْ كَانَ فِي البَيْتِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الأَعْذَارِ يَؤُمُّهُنَّ، وَيُصَلِّينَ بِصَلَاتِهِ.

---

(1) لَابْتَدَرْتُمُوهُ: أَيْ: سَبَقْتُمْ إِلَيْهِ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 3/ 838.

(2) أَزْكَىٰ: أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ ثَوَابًا، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 3/ 838.

(3) أخرجه أبو داود، بَابٌ فِي فَضْلِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ: 1/ 151، رقم: (554)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ.

وَيَجْمُلُ أَنْ تُخَصَّصَ بُقْعَةٌ فِي كُلِّ بَيْتٍ؛ تَكُونُ مَسْجِدًا، يَتَعَارَفُ عَلَيْهِ أَهْلُ البَيْتِ، يَجْتَمِعُونَ فِيهِ للصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ إِقَامَةَ المَسَاجِدِ فِي البُيُوتِ سُنَّةٌ؛ فَعَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصارِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي سَالِمٍ، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي لِقَوْمِي بَنِي سَالِمٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَنْكَرْتُ بَصَرِي[1]، وَإِنَّ السُّيُولَ تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَسْجِدِ قَوْمِي، فَلَوَدِدْتُ أَنَّكَ جِئْتَ، فَصَلَّيْتَ فِي بَيْتِي مَكَانًا حَتَّىٰ أَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالَ: أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَغَدَا عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ مَعَهُ بَعْدَ مَا اشْتَدَّ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَذِنْتُ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّىٰ قَالَ: أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟، فَأَشَارَ إِلَيْهِ مِنَ المَكَانِ الَّذِي أَحَبَّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ، فَقَامَ، فَصَفَفْنَا خَلْفَهُ، ثُمَّ سَلَّمَ، وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ»[2].

الشَّرْطُ الثَّانِي: إِصْلَاحُ بَاطِنِ الصَّلَاةِ (خُشُوعُ القَلْبِ)

إِنَّ قَبُولَ الصَّلاةِ والإِثَابَةَ عَلَيْهَا مَوْقُوفٌ عَلَىٰ إِصْلاحِ بَاطِنِ الصَّلَاةِ، وَهُوَ خُشُوعُ القَلْبِ؛ فإِنْ وَجَدَ اللهُ تَعالَىٰ قَلْبَ عَبْدِهِ خَاشِعًا فِي صَلاتِهِ: مُقْبِلًا عَلْيهِ، مُحِبًّا لَهُ، مُخْلِصًا، مُفْتَقِرًا، مُعَظِّمًا لَهُ؛ قَبِلَ مِنْه صَلَاتَهُ، وأَثَابَهُ عَلَيْهَا أَعظَمَ ثَوابٍ، وَحُمِدَتْ عَوْدَتُهُ إِلَىٰ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَتَقَرَّرَ مَصِيرُهُ أَكْرَمَ مَصِيرٍ. وَإِنْ وجدَهُ

---

(1) أَنْكَرْتُ بَصَرِي: هَذَا اللَّفْظُ يُطْلَقُ عَلَىٰ مَنْ فِي بَصَرِهِ سُوءٌ وَإِنْ كَانَ يُبْصِرُ بَصَرًا مَا، وَعَلَىٰ مَنْ صَارَ أَعْمَىٰ لَا يُبْصِرُ شَيْئًا، وَالْأَوْلَىٰ أَنْ يُقَالَ: أُطْلِقَ عَلَيْهِ الْعَمَىٰ لِقُرْبِهِ مِنْهُ، وَمُشَارَكتهِ لَهُ فِي فَوَاتِ مَا كَانَ يَعْهَدُهُ فِي حَالِ الصِّحَّةِ، انظر: فتح الباري، لابن حجر: 1/ 520.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ مَنْ لَمْ يَرَ رَدَّ السَّلَامِ عَلَىٰ الإِمَامِ وَاكْتَفَىٰ بِتَسْلِيمِ الصَّلَاةِ: 1/ 167، رقم: (840).

سَاهِيًا غَافِلًا؛ فَإِنَّ أَمْرَ صَلاتِهِ عَلَىٰ خطرٍ؛ وَمَصِيرُهُ مَحْفُوفٌ بِالمَخَاطِرِ، وَعَوْدَتُهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ غَيْرُ حَمِيدَةٍ، إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ اللهُ تَعَالَىٰ؛ لِذَلِكَ أَهَمَّ الصَّحابَةَ الأَوَّلِينَ أَمْرُ صَلَاتِهِمْ أَيَّمَا إِهْمَامٍ، فَعَنْ هِشَامِ بنِ يَحْيَىٰ الغَسَّانِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «جَاءَ سَائِلٌ إِلَىٰ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ فَقَالَ: لابْنِهِ: أَعْطِهِ دِينَارًا، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ لَهُ ابْنُهُ: تَقَبَّلَ اللهُ مِنْكَ يَا أَبَتَاهُ، فَقَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ اللهَ يَقْبَلُ مِنِّي سَجْدَةً واحِدَةً، وَصَدَقَةَ دِرْهَمٍ؛ لَمْ يَكُنْ غَائِبٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ المَوْتِ، أَتَدْرِي مِمَّنْ يَتَقَبَّلُ؟! إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ»[1].

أَوَّلًا: قَبُولُ الصَّلَاةِ مَوْقُوفٌ عَلَى خُشُوعِ القَلْبِ

تَكَاثَرَتِ الأَحَادِيثُ والآثَارُ التِي تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ ثَوابَ الصَّلاةِ مُعَلَّقٌ عَلَىٰ حُضُورِ القَلْبِ وخُشُوعِهِ؛ فَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﵁، قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ؛ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ؛ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»[2].

وَفِي حَدِيثِ عُثْمَانَ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[3].

---

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 219.

(2) أخرجه مسلم، باب الذِّكْرِ الْمُسْتَحَبِّ عَقِبَ الْوُضُوءِ: 1/ 209، رقم: (234).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ: الوُضُوءُ ثَلَاثًا ثَلَاثًا: 1/ 43، رقم: (159)، ومسلم، بَابُ صِفَةِ الْوُضُوءِ وَكَمَالِهِ: 1/ 204، رقم: (226).

انْظُرْ قَوْلَهُ ﷺ: «مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ»، وقوله: «لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ» تَعْلَم أَنَّ خُشُوعَ القَلْبِ ضَمَانٌ للقَبُولِ، وأَنَّهُ لَا ضَمَانَ لِمَنْ لَا خُشُوعَ لَهُ.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، فَالْوُضُوءَ حَدِّثْنِي عَنْهُ، قَالَ: «مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ، فَيَتَمَضْمَضُ، وَيَسْتَنْشِقُ، فَيَنْتَثِرُ؛ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ، وَفِيهِ، وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ؛ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ؛ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ؛ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ؛ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ للهِ؛ إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1].

تَأَمَّلْ قَوْلَهُ ﷺ: «وَفَرَّغَ قَلْبَهُ للهِ»؛ يَتَأَكَّدْ لَكَ مَا قَرَّرَهُ العُلَمَاءُ مِنْ أَنَّ خُشُوعَ القَلْبِ فِي الصَّلَاةِ ضَمَانٌ أَكِيدٌ لِقَبُولِها، والإِثَابَةِ عَلَيْهَا، وأَنَّهُ لَا ضَمَانَ لِقَبُولِ صَلَاةِ مَنْ لَا خُشُوعَ لَهُ.

ثَانِيًا: الخُشُوعُ قَرِينُ الأَرْكَانِ

وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُصَوِّبُ خُشُوعَ المُسْلِمِينَ، كَمَا كَانَ يُصَوِّبُ رُكُوعَهُمْ، وأَرْكَانَ صَلاتِهِمْ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ قِبْلَتِي هَا هُنَا، فَوَاللهِ مَا يَخْفَى عَلَيَّ خُشُوعُكُمْ وَلَا رُكُوعُكُمْ، إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي»[2].

---

(1) أخرجه مسلم، بَابُ إِسْلَامِ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ: 1/ 569، رقم: (832).

(2) أخرجه البخاري، بَابُ عِظَةِ الإِمَامِ النَّاسَ فِي إِتْمَامِ الصَّلَاةِ، وَذِكْرِ القِبْلَةِ: 1/ 91، رقم: (418).

فَانْظُرْ قَوْلَهُ ﷺ: (فَوَاللهِ مَا يَخْفَىٰ عَلَيَّ خُشُوعُكُمْ، وَلَا رُكُوعُكُمْ)، واقْتِرَانَ الخُشُوعِ بالرُّكُوعِ؛ تَعْلَمِ اهْتِمَامَهُ ﷺ فِي تَحْقِيقِ الخُشُوعِ للمُسْلِمِينَ، كَاهْتِمَامِهِ بِتَحْقِيقِ الرُّكُوعِ وأَرْكَانِ صَلاتِهِمْ، واللهُ تَعالَىٰ أَعْلَمُ.

ثَالِثًا: التَّحْذِيرُ مِنْ فُقْدَانِ الخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ

وَلَقَدْ جَاءَ الخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَأْتِي زَمَانٌ يُرْفَعُ فِيهِ الخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ؛ فعَنِ الْحَسَنِ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ»[1].

قَالَ المُنَاوِيُّ فِي شَرْحِ الحَدِيثِ: «وَقيلَ الْمَعْنَىٰ خُشُوعُ الصَّلَاةِ، قَالَ الطِّيِّبِيّ: وَخُشُوعُهَا خَشيَةُ الْقَلْبِ، وَإِلْزَامُ الْبَصَرِ مَحِلَّ السُّجُودِ، وَجَمْعُ الهِمَّةِ لَهَا[2]، والإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهَا، وَتَوَقِّي[3] كَفِّ الثَّوْبِ والعَبَثِ بِهِ، وَبِجَسَدِهِ، والالْتِفَاتِ، والتَمَطِّي[4]، والتَّثَاؤُبِ، وَنَحْوِهَا»[5].

---

(1) أخرجه الطبراني في الكبير، الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ: 7/ 295، رقم: (7183)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(2) مَعْنَىٰ: (جَمْعُ الهِمَّةِ لَهَا): أَنْ يَقْصِرَ فِكْرَهُ واهْتِمَامَهُ عَلَيْهَا؛ فَلَا يُفَكِّرُ إِلَّا فِيمَا هُوَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الصَّلَاةِ، واللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

(3) تَوَقِّي: تَجَنُّبُ، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 5/ 217.

(4) التَّمَطِّي، التَّبَخْتُرُ وَمَدُّ الْيَدَيْنِ، انظر: فيض القدير، للمناوي: 1/ 445.

(5) التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي: 1/ 391.

انْظُرْ قَوْلَهُ ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ)؛ تَرَ فِيهِ التَّحْذِيرَ مِنْ رَفْعِ الخُشُوعِ، وأَنَّهَا حَالَةُ نَقْصٍ، لَمْ تَكُنْ فِي صِدْرِ الإِسْلَامِ، كَإِخْبَارِه ﷺ عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ مِنْ جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ[1].

وإِنَّ الخُشُوعَ فِي الصَّلاةِ دِينٌ، وَإِنَّ فُقْدَانَهُ فُقْدَانٌ لِشَيْءٍ مِنَ الدِّينِ؛ فَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، قالَ: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْخُشُوعُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الصَّلَاةُ، ولَتُنْقَضَنَّ عُرَىٰ الإِسْلَامِ[2] عُرْوَةً عُرْوَةً»[3]. فَانْظُرْ قَوْلَ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه: (أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْخُشُوعُ)، تَعْلَمْ أَنَّ فُقْدَانَ الخُشُوعِ مُصِيبَةٌ كَبِيرَةٌ، حَذَّرَ مِنْهَا الأَوَّلُونَ.

رَابِعًا: الصَّلَاةُ بِلَا خُشُوعٍ كالمَيِّتِ بِلَا رُوحٍ

لَاجَرَمَ أَنَّ الخُشُوعَ رُوحُ الصَّلَاةِ التِي يُكْتَبُ بِهِ البَقَاءُ، فَإِذَا خَلَتِ الصَّلاةُ مِنَ الخُشُوعِ؛ خَلَتْ مِنَ الرُّوحِ التِي هِيَ سِرُّ البَقَاءِ فِي الصَّحِيفَةِ والثَّوابِ عَلَيْها؛ قال ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «وَكَذَلِكَ فَوْتُ الخُشُوعِ فِي الصَّلاةِ، وَعَدمُ حُضُورِ القَلْبِ فِيهَا بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ سبحانه وتعالى الَّذي هُوَ رُوُحها وَلُبُّها، يَجْعَلُ الصَّلاةَ كَبَدَنٍ مَيِّتٍ، لَا رُوْحَ فِيهِ؛ أَفَلا

(1) الحَدِيثُ: عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ رَفْعِ الْأَمَانَةِ فَقَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ؛ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ...». أخرجه أحمد في مسنده، حَدِيثُ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: 38/ 291، رقم: (23255)، وَصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

(2) عُرَىٰ الْإِسْلَامِ: حُدُودُهُ وَأَحْكَامُهُ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ، انظر: حاشية السُّيُوطِيِّ علىٰ سنن النسائي: 8/ 65.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك، حديث عمران بن حصين رضي الله عنه: 4/ 516، رقم: (8448)، وَصَحَّحَهُ، ووافقه الذهبي.

يَسْتَحِي العَبْدُ أنْ يُهْدِيَ إِلَىٰ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ عَبْدًا مَيْتًا، أَوْ جَارِيَةً مَيْتَةً؟ فمَا ظَنُّ هَذَا العَبْدِ أنْ تَقَعَ تلكَ الهَدِيَّةُ مِمَّنْ قَصَدَهُ بِهَا مِنْ مَلِكٍ أَوْ مِنْ أَمِيرٍ أَوْ غيرِهِ؟ فَهَكَذا سَوَاءٌ الصَّلاةُ الخَالِيةُ مِنَ الخُشُوعِ والحُضُورِ وجَمْعِ الهِمَّةِ عَلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ فِيهَا بِمَنْزِلَةِ هَذَا العَبْدِ المَيِّتِ أَوِ الأَمَةِ المَيِّتَةِ، الذِي يُرِيدُ إِهْدَاءَهُ إِلَىٰ بَعْضِ الملوكِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ للعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ مِنْها؛ كَما رَوَىٰ عَمَّارِ بْنَ يَاسِرٍ ﵁، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ؛ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عُشْرُهَا، تُسْعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا[1]»[2].

فَمَا أُتِيَ مِنَ الصلاةِ مَعَ الغَفْلَةِ والسَّهْوِ؛ فَهُوَ مَواتٌ، لَا اعْتِبَارَ لَهُ، وَهُوَ إِلَىٰ الاسْتِغْفَارِ والتَّكْفِيرِ أَحْوَجُ؛ فَعِمَادُ الصَّلَاةِ الخُشُوعُ، وَحُضُورُ القَلْبِ مَعَ القِراءَةِ وَالذِّكْرِ بِالتَّفَهُّمِ. قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رحمهُ اللهُ تعالَىٰ: «كُلُّ صَلَاةٍ لَا يَحْضُرُ فِيهَا القَلْبُ؛ فَهِيَ إِلَىٰ العُقُوبَةِ أَسْرَعُ»[3].

خَامِسًا: النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى صَنِيعِهِمْ فِي الصَّلَاةِ

وَإِنَّ العَبْدَ يَكُونُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ هَيْئَتِهِ وَصَنِيعِهِ فِي صَلَاتِهِ، فَإِنْ كَانَ فِيهَا خَاشِعًا مُطْمَئِنًّا؛ حُشِرَ يَوْمَ القِيامَةِ خَاشِعًا مُطْمَئِنًا؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: «يُحْشَرُ

(1) أخرجه أحمد في مسنده، حديث عمار بن ياسر ﵁: 31/ 189، رقم: (18894)، وَصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

(2) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 10.

(3) بداية الهداية، للغزالي: 1/ 47.

النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ قَدْرِ صَنِيعِهِمْ فِي الصَّلَاةِ، وَقَبَضَ أَبُو النَّضْرِ شِمَالَهُ بِيَمِينِهِ، وَانْحَنَىٰ هَكَذَا»[1].

وَعَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ ذَكْوَانَ، قَالَ: «يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا، وَوَضَعَ إِحْدَىٰ يَدَيْهِ عَلَىٰ الْأُخْرَىٰ، وَوَضَعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَمِينَهُ عَلَىٰ يَسَارِهِ»[2].

فَمَوْقِفُ العَبْدِ فِي صَلَاتِهِ يُحَدِّدُ مَصِيرَ مَوْقِفِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ قَالَ ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «للعَبْدِ بَيْنَ يَدِي اللهِ تَعَالَىٰ مَوْقِفَانِ: مَوْقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الصَّلَاةِ، وَمَوْقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمَ لِقَائِهِ، فَمَنْ قَامَ بِحَقِّ المَوْقِفِ الأَوَّلِ؛ هُوِّنَ عَلَيْهِ المَوْقِفُ الآخَرُ، ومَنِ اسْتَهَانَ بِهَذَا المَوْقِفِ، وَلَمْ يُوَفِّهِ حَقَّهُ؛ شُدِّدَ عَلَيْهِ ذَلِكَ المَوْقِفُ»[3].

سَادِسًا: الخُشُوعُ بِشَارَةُ خَيْرٍ

وإنَّ العَبْدَ لَيَعْرِفُ مَا لَهُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ مَوْقِفِهِ فِي صَلَاتِهِ، وخُشُوعِهِ فِيهَا، وَلَذَّةِ مَا يَجِدُهُ فِي قَلْبِهِ عِنْدَهَا؛ فَعَنِ الْحَسَنِ البَصْرِيِّ، قَالَ: «تَفَقَّدُوا الْحَلَاوَةَ فِي ثَلَاثٍ: فِي الصَّلَاةِ، وَفِي الْقُرْآنِ، وَفِي الذِّكْرِ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهَا؛ فَامْضُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاحْمَدُوا اللهَ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوهَا؛ فَاعْلَمْ أَنَّ بَابَكَ مُغْلَقٌ؛ فَعَالِجْ فَتْحَهُ»[4].

---

(1) تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِيِّ: 1/ 338.

(2) تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِيِّ: 1/ 339.

(3) الفوائد، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 200.

(4) حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الأَصْفِيَاءِ، لِأَبِي نُعَيْمٍ: 10/ 146، وشعب الإيمان، للبيهقي: 9/ 386، وكلمات مضيئة في الدعوة إلي الله، لمحمد إمام: 1/ 452.

فَانْظُرْ قَلْبَكَ عِنْدَ صَلاتِكَ...

انْظُرْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِكَ...

انْظُرْ قَلْبَكَ عِنْدَ ذِكْرِكَ رَبَّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ...؛ تَعْلَمْ مَا لَكَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَإِنَّهُ مَا خَفَّتِ الصَّلاةُ عَلَىٰ مَنْ خَفَّتْ عَلَيْهِمْ، إِلَّا بِمَا وَجَدُوهُ مِنْ لَذَّةِ الخُشُوعِ؛ ولِمَا وَجَدُوا مِنْ عُذُوبَةِ مَا فِيهَا مِنْ مَعَانِي التَّعَبُّدِ والتَّحَبُّبِ إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ، قَالَ ضَيْغَمٌ: «قَوُوا عَلَىٰ الاجْتِهَادِ بِمَا يَدْخُلُ قُلُوْبَهُم مِنْ حَلَاوَةِ العِبَادَةِ»[1].

سَابِعًا: كِتَابُ اللهِ تَعَالَى يُؤَكِّدُ الشَّرْطَ

ولَقَدْ جَاءَ تَوْكِيدُ شَرْطِ: (أَنَّ قَبُولَ الأَعْمَالِ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ الخُشُوعِ) فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَقَالَ تعالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[2]؛ فعَلَّق اللهُ ﷻ فَلاحَ العَبْدِ فِي آخِرَتِهِ عَلَىٰ خُشوعِهِ فِي صَلَاتِهِ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَخْشَعْ فِي صَلَاتِهِ؛ فَلَيْسَ لَهُ مِنَ اللهِ تعالَىٰ عَهْدٌ بِالفَوْزِ وَالفَلَاحِ.

قَالَ ابنُ جَرِيرٍ: «قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قَدْ أَدْرَكَ الْخُلُودَ فِي جَنَّاتِ رَبِّهِمْ وَفَازُوا بِطِلَبَتِهِمْ لَدَيْهِ؛ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَقَرُّوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَعَمِلُوا بِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِمَّا سُمِّيَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وإِذَا قَامُوا فِي صَلَاتِهِمْ كَانُوا فِيهَا خَاشِعِينَ؛ وَخُشُوعُهُمْ فِيهَا تَذَلُّلُهُمْ للهِ تَعَالَىٰ فِيهَا بِطَاعَتِهِ، وَقِيَامُهُمْ فِيهَا بِمَا أَمَرَهُمْ بِالْقِيَامِ بِهِ فِيهَا»[3].

---

(1) سير أعلام النبلاء، للذهبي: 8/ 421.

(2) المؤمنون: 1، 2.

(3) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري: 17/ 5-10.

وقالَ السَّعْدِيُّ: «هَذَا تَنْويهٌ[1] مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، بَذِكْرِ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، وذِكْرِ فَلَاحِهِمْ وسَعَادَتِهِمْ، وَبِأَيِّ شَيْءٍ وَصَلُوا إِلَىٰ ذَلِكَ، وفِي ضِمْنِ ذَلِكَ، الحَثُّ عَلَىٰ الاتِّصَافِ بِصِفَاتِهِمْ، والتَّرْغِيبِ فِيهَا؛ فَلْيَزِنِ العَبْدُ نَفْسَهُ وغَيْرَهُ عَلَىٰ هَذِهِ الآياتِ؛ يَعْرِفْ بِذَلِكَ مَا مَعَهُ ومَا مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الإِيمانِ، زِيادَةً وَنَقْصًا، كَثْرَةً وَقِلَّةً، فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أَيْ: قَدْ فَازُوا وَسَعِدُوا ونَجَحُوا، وأَدْرَكُوا كُلَّ مَا يُرَامُ، الذِينَ مِنْ صِفَاتِهِمُ الكَامِلَةِ أَنَّهُمْ ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، والخُشُوعُ رُوحُ الصَّلَاةِ، والمَقْصُودُ مِنْهَا، وَهُوَ الذِي يُكْتَبُ للعَبْدِ، فالصَّلاةُ التِي لَا خُشُوعَ فِيها، وَلَا حُضُورَ قَلْبٍ، وَإِنْ كَانَتْ مُجْزِئَةً فِي الظَّاهِرِ؛ فَإِنَّ الثَّوابَ عَلَىٰ حَسَبِ مَا يَعْقِلُ القَلْبُ مِنْهَا»[2].

وقالَ سَيِّدُ قُطْبٍ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ: «إِنَّهُ الوَعْدُ الصَّادِقُ، بَلِ القَرَارُ الأَكِيدُ بِفَلَاحِ المُؤْمِنِينَ. وَعْدُ اللهِ تَعَالَىٰ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ، وَقَرَارُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ رَدَّهُ. الفَلَاحُ فِي الدُّنْيا، والفَلَاحُ فِي الآخِرَةِ. فَمَنْ هُمُ المُؤْمِنُونَ الذِينَ كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ هَذِهِ الوَثِيقَةَ، وَوَعَدَهُمْ هَذَا الوَعْدَ، وأَعْلَنَ عَنْ فَلَاحِهِمْ هَذَا الإِعْلَانَ؟ مَنْ هُمُ المُؤْمِنُونَ الوَارِثُونَ، الذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ؟

---

(1) التَّنْوِيهُ: الذِّكْرُ، والرَّفْعُ، يُقَال: نَوَّهَ بِفُلَانٍ إِذَا رَفَعَ ذِكْرَهُ وَشَهَرَهُ، انظر: المغرب في ترتيب المعرب، لأبي المكارم الخوارزمي: 1/ 473.

(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي: 1/ 548.

إِنَّهُمْ هَؤُلاءِ الذِينَ يُفَصِّلُ السِّيَاقُ صِفَاتِهِمْ بَعْدَ آيَةِ الافْتِتَاحِ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾... تَسْتَشْعِرُ قُلُوبُهُمْ رَهْبَةَ المَوْقِفِ فِي الصَّلَاةِ بَيْنَ يَدِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَسْكُنُ، وتَخْشَعُ؛ فَيَسْرِي الخُشُوعُ مِنْهَا إِلَىٰ الجَوَارِحِ والمَلَامِحِ والحَرَكَاتِ، وَيَغْشَىٰ أَرْوَاحَهُمْ جَلَالُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي حَضْرَتِهِ؛ فَتَخْتَفِي مِنْ أَذْهَانِهِمْ جَمِيعُ الشَّواغِلِ، وَلَا تَشْتَغِلُ بِسِواهُ، وَهُمْ مُسْتَغْرِقُونَ فِي الشُّعُورِ بِهِ، مَشْغُولُونَ بِنَجْواهُ، وَيَتَوارَىٰ عَنْ حِسِّهِمْ فِي تِلْكَ الحَضْرَةِ القُدُسِيَّةِ[1] كُلُّ مَا حَوْلَهُمْ، وَكُلُّ مَا بِهِمْ؛ فَلا يَشْهَدُونَ إِلَّا اللهَ تَعَالَىٰ، وَلَا يُحِسُّونَ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يَتَذَوَّقُونَ إِلَّا مَعْنَاهُ، وَيَتَطَهَّرُ وُجْدَانُهُمْ[2] مِنْ كُلِّ دَنَسٍ، وَيَنْفُضُونَ عَنْهُمْ كُلَّ شَائِبَةٍ؛ فَمَا يَضُمُّونَ جَوانِحَهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ هَذَا مَعَ جَلَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.. عِنْدَئِذٍ تَتَّصِلُ الذَّرَّةُ التَّائِهَةُ بِمَصْدَرِهَا، وتَجِدُ الرُّوحُ الحَائِرَةُ طَرِيقَهَا، وَيَعْرِفُ القَلْبُ المُوحِشُ مَثْوَاهُ. وعِنْدَئِذٍ تَتَضَاءَلُ القِيَمُ والأَشْيَاءُ والأَشْخَاصُ إِلَّا مَا يَتَّصِلُ مِنْهَا باللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ»[3].

---

(1) الحَضْرَةُ: القُرْبُ، والقُدُسِيَّةُ: المُطَهَّرَةُ، وَالتَّقْدِيس: التَّطْهِير، ومعنىٰ (الحَضْرَةُ القُدُسِيَّةُ) هُنَا: حُضُورُ القَلْبِ المُطَهَّرُ وقُرْبُهُ مِنَ اللهِ تَعالَىٰ، انظر: جَمْهَرَةَ اللُّغَةِ، لابن دُرَيْدٍ: 2/ 646، ولسان العرب، لابن منظور: 4/ 197.

(2) الوُجْدَانُ: الشُّعُورُ والإِحْسَاسُ البَاطِنُ، والوُجْدَانِيَّاتُ: مَا تَكُونُ مُدْرَكَةً بالحَوَاسِّ البَاطِنَةِ، انظر: التعريفات، للجرجاني: 1/ 250، والتوقيف علىٰ مهمات التعاريف، للمناوي: 1/ 334.

(3) في ظلال القرآن، لسيد قطب: 4/ 2454.

ثَامِنًا: تَكْفِيرُ السَّيِّئاتِ بِالصَّلَاةِ مَوْقُوفٌ عَلَى الخُشُوعِ

والصلاةُ بخشوعٍ وحُضُورِ قَلْبٍ هِيَ التِي لَهَا ثَمَرَةٌ، وَهِيَ التِي وَعَدَ اللهُ تعالَىٰ عَلَيْهَا تَكْفيرَ السَّيِّئَاتِ لصاحبِها؛ فعنْ عُثْمَانَ ﵁، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا؛ إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ؛ مَا لَمْ يُؤْتَ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ»(1)، فَمَنْ أَحْسَنَ خُشُوعَ الصَّلَاةِ؛ فَلَهُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَهْدٌ أَنْ يُكَفِّرَ سَيِّئَاتِهِ، وَمَنْ لَمْ يُحْسِنْ خُشُوعَهَا؛ فَلَيْسَ لَهُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَهْدٌ بِتَكْفِيرِ السِّيِّئَاتِ، وأَمْرُهَا حِينَئِذٍ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَعَلَىٰ قَدْرِ كَمَالِ الخُشُوعِ وَنُقْصَانِهِ؛ يَحْصُلُ كَمَالُ تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ ونُقْصَانِهِ، فَمَنْ كَانَ خُشُوعُهُ كَامِلًا؛ كانَ تَكْفِيرُ سَيِّئَاتِهِ كَامِلًا؛ ومَنْ كانَ خُشُوعُهُ نَاقِصًا؛ كانَ تَكْفِيرُ سَيِّئَاتِهِ نَاقِصًا؛ قَالَ ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «ويَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ تَفَاضُلَ الأعمالِ عندَ اللهِ تعالَىٰ بِتَفَاضُلِ مَا فِي القُلُوبِ مِنَ الإيمانِ والإخلاصِ والمَحَبَّةِ وتَوابِعِهَا؛ وَهَذَا العَمَلُ الكَامِلُ هوَ الذِي يُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ تَكْفيرًا كَامِلًا، والنَّاقِصُ بِحَسَبِهِ»(2).

فَثَمَرَةُ الصَّلَاةِ المَرْجُوَّةُ مِنْ تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، ورَفْعِ الدَّرَجاتِ؛ إِنَّما تُجْتَنَىٰ لِمَنْ كَمُلَتْ صَلَاتُهُ، وَخَشَعَ فِيهَا قَلْبُهُ؛ قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ المَقْدِسِيُّ: «واعْلَمْ: أَنَّ لِلصَّلَاةِ أَرْكَانًا وَوَاجِبَاتٍ وَسُنَنًا، وَرُوحُهَا النِّيَّةُ، والإِخْلَاصُ، والخُشُوعُ، وحُضُورُ القَلْبِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ أَذْكَارٍ وَمُنَاجَاةٍ وأَفْعَالٍ، وَمَعَ عَدَمِ حُضُورِ القَلْبِ؛ لَا يَحْصُلُ المَقْصُودُ

---

(1) أخرجه مسلم، باب فَضْلِ الْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ عَقِبَهُ: 1/ 206، رقم: (228).

(2) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 10.

بالأَذْكَارِ والمُنَاجَاةِ؛ لِأَنَّ النُّطْقَ إِذَا لَمْ يُعرِبْ[1] عَمَّا فِي الضَّمِيرِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الهَذَيَانِ[2]، وكَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ المَقْصُودُ مِنَ الأَفْعَالِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كانَ المَقْصُودُ مِنَ القِيَامِ الخِدْمَةَ[3]، ومِنَ الرُّكُوعِ والسُّجُودِ الذُّلَّ والتَعْظِيمَ، وَلَمْ يَكُنِ القَلْبُ حَاضِرًا؛ لَمْ يَحْصُلِ المَقْصُودُ، فَإِنَّ الفِعْلَ مَتَىٰ خَرَجَ عَنْ مَقْصُودِهِ بَقِيَ صُورَةً، لَا اعْتِبَارَ بِهَا»[4].

تَاسِعًا: التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ

ولَمَّا كَانَ مَصْيرُ العَبْدِ فِي آخِرَتِهِ يَتَقَرَّرُ بِخُشُوعِهِ فِي صَلَاتِهِ، ولمَّا كانَ للخشوعِ هذا الشأنُ فِي قَبُولِ الأعمالِ، وتكفيرِ السَّيِّئاتِ، ورَفْعِ الدرجاتِ عندَ اللهِ تعالَىٰ؛ أَهَمَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمْرُ الخُشُوعِ؛ فَكَانَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ الاسْتِعَاذَةَ بِاللهِ تَعالَىٰ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ؛ فعَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: كَانَ إِذَا قِيلَ لِزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ حَدِّثْنَا مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «لَا أُحَدِّثُكُمْ إِلَّا مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَدَّثَنَا بِهِ، وَيَأْمُرُنَا أَنْ نَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ

---

(1) الهَذَيَانُ: النُّطْقُ بِمَا لا يُفْهَمُ، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الكَلَامِ غَيْرِ المَعْقُولِ وكَلَامِ المَعْتُوهِ، انظر: معجم العين، للخليل: 4/ 81، وتفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، للحَمِيدِيِّ: 1/ 148.

(2) يُعِربُ: يُبَيِّنُ وَيُفْصِحُ، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 4/ 299.

(3) الخِدْمَةُ: العَمَلُ للهِ تَعَالَىٰ، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 3/ 153.

(4) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي: 1/ 20.

لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَدَعْوَةٍ لَا تُسْتَجَابُ»[1]. وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الأَرْبَعِ»[2].

والاسْتِعَاذَةُ تَعْنِي اللُّجُوءَ وَالاسْتِغَاثَةَ؛ فَالنَّبِيُّ ﷺ كانَ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ أَنْ يَلْجَؤُوا إِلَىٰ تَعَالَىٰ، وَيَسْتَغِيثُوا بِهِ، مِنْ حَالَةِ عَدَمِ الخُشُوعِ؛ فَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّهَا حَالَةٌ غَيْرُ مَرْضِيَّةٍ للهِ تَعَالَىٰ، وَلِرَسُولِهِ ﷺ.



(1) أخرجه النسائي في سننه، الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْتَجَابُ: 8/ 285، رقم: (5538)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(2) أخرجه الترمذي في سننه، بَاب مَا جَاءَ فِي جَامِعِ الدَّعَوَاتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: 5/ 396، رقم: (3482)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

الفَصْلُ الثَّالِثُ
مَعْنَى الخُشُوعِ وَحَقِيقَتُهُ وحُكْمُهُ وَمَرَاتِبُهُ

أَوَّلًا: الخُشُوعُ فِي اللُّغَةِ

خَشَعَ: الخَاءُ والشِّينُ والعَيْنُ أَصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلَىٰ التَّطَامُنِ[1]. يُقَالُ خَشَعَ، إِذَا تَطَامَنَ وَطَأْطَأَ رَأْسَهُ، يَخْشَعُ خُشُوعًا. والخَاشِعُ المُسْتَكِينُ والرَّاكِعُ[2]. والخشُوعُ مَعْنًى من الخُضُوعِ إلَّا أَنَّ الخُضُوعَ في البدنِ وهو الإقْرَارُ بالاْسْتِخْذَاء[3].

«فالْخُشُوعُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ: الاِنْخِفَاضُ، وَالذُّلُّ، وَالسُّكُونُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾[4]، أَيْ: سَكَنَتْ، وَذَلَّتْ، وَخَضَعَتْ، وَمِنْهُ وَصْفُ الْأَرْضِ بِالْخُشُوعِ،

---

(1) التَّطَامُنُ: الخُضُوعُ، والهُبُوطُ، والانْحِنَاءُ، وَدُنُوُّ الرَّأْسِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، انظر: الدلائل في غريب الحديث، للسرقسطي: 1/ 328.

(2) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 2/ 182.

(3) الاْسْتِخْذَاءُ: الخُضُوعُ والذُّلُّ والانْقِيادُ، انظر: أساس البلاغة، للزمخشري: 1/ 236، والمعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة: 1/ 223.

(4) طه: 108.

وَهُوَ يُبْسُهَا، وَانْخِفَاضُهَا، وَعَدَمُ ارْتِفَاعِهَا بِالرَّيِّ وَالنَّبَاتِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[1]»[2].

وَالخَاشِعُ هُوَ الْمُتَوَاضِعُ، وَالْخُشُوعُ: هَيْئَةٌ فِي النَّفْسِ يَظْهَرُ مِنْهَا فِي الْجَوَارِحِ سُكُونٌ وَتَوَاضُعٌ. قَالَ الزَّجَّاجُ: «الْخَاشِعُ الَّذِي يُرَىٰ أَثَرُ الذُّلِّ وَالْخُشُوعِ عَلَيْهِ، كَخُشُوعِ الدَّارِ بَعْدَ الْإِقْوَاءِ[3] هَذَا هُوَ الْأَصْلُ، وَمَكَانٌ خَاشِعٌ: لَا يُهْتَدَىٰ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ: أَيْ: سَكَنَتْ، وَخَشَعَ بِبَصَرِهِ إِذَا غَضَّهُ، وَالْخُشْعَةُ: قِطْعَةٌ مِنَ الْأَرْضِ رَخْوَةٌ، وَبَلْدَةٌ خَاشِعَةٌ: مُغْبَرَّةٌ لَا مَنْزِلَ بِهَا»[4].

ثَانِيًا: الخُشُوعُ فِي الاصْطِلَاحِ

كَثُرَتْ تَعْرِيفَاتُ العُلَمَاءِ للخُشُوعِ، وتَعَدَّدَتْ؛ بِكَثْرَةِ فُهُومِهِمْ ومَعَارِفِهِمْ، وكُلٌّ نَطَقَ بِوَصْفِ مَا يَجِدُ فِي قَلْبِهِ مِنْ ذَوْقٍ، وَعِنْدَ اسْتِجْمَاعِ أَقْوالِهِمْ؛ يَجْتَمِعُ كَمَالُ التَّعْرِيفِ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «الخُشُوعُ عَلَانِيَةً، وَهُوَ الوُقُوفُ بَيْنَ يَدَي اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الإِقَامَةِ عَلَىٰ شُرُوطِ آدَابِ الآمِرِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ تَخْلِيصُ الحَرَكَاتِ، والسُّكُونُ عَمَّا سِوَاهُ، وأَصْلُ ذَلِكَ الخَشْيَةُ فِي السِّرِّ، فَإِذَا أُعْطِيَ الخَشْيَةَ؛ ظَهَرَ الخُشُوعُ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، وَهِيَ مِنْ شُرُوطِ

---

(1) فصلت: 39.

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 516.

(3) الإِقْوَاءُ: الخُلُوُّ مِنَ السُّكَّانِ، انظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان: 8/ 5679.

(4) انظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: 1/ 713، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 1/ 375.

الإِيمانِ، «وَقَدْ حُكِيَ عَنِ الحَسَنِ بن عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ إِذَا فَرَغَ مِنْ وُضُوئِهِ؛ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ؛ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: يَحِقُّ عَلَىٰ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَىٰ ذِي العَرْشِ أَنْ يَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ»[1].

وقَالَ الغَزَالِيُّ: «اعْلَمْ أَنَّ الخُشُوعَ ثَمَرَةُ الإِيمانِ، ونَتِيجَةُ اليَقِينِ الحَاصِلِ بِجَلالِ اللهِ عز وجل، ومَنْ رُزِقَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ خَاشِعًا فِي الصَّلَاةِ، وَفِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ مُوجِبَ الخُشُوعِ مَعْرِفَتُهُ اطِّلَاعَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ العَبْدِ، ومَعْرِفَةُ جَلَالِهِ، ومَعْرِفَةُ تَقْصِيرِ العَبْدِ، فَمِنْ هَذِهِ المَعَارِفِ يَتَوَلَّدُ الخُشُوعُ»[2].

وقَالَ الفَخْرُ الرَّازِيُّ: «الْخَاشِعُ فِي صَلَاتِهِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَحْصُلَ لَهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ مِنَ الْأَفْعَالِ نِهَايَةُ الْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ لِلْمَعْبُودِ، وَمِنَ التُّرُوكِ أَنْ لَا يَلْتَفِتَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وأَنْ لَا يَكُونَ مُلْتَفِتَ الْخَاطِرِ إِلَىٰ شَيْءٍ سِوَىٰ التَّعْظِيمِ، وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْجَوَارِحِ أَنْ يَكُونَ سَاكِنًا مُطْرِقًا نَاظِرًا إِلَىٰ مَوْضِعِ سُجُودِهِ، وَلَكِنَّ الْخُشُوعَ الَّذِي يُرَىٰ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ لَيْسَ إِلَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْجَوَارِحِ، فَإِنَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ لَا يُرَىٰ»[3].

وَقَالَ القُرْطُبِيُّ: «الْخُشُوعُ: هَيْئَةٌ فِي النَّفْسِ يَظْهَرُ مِنْهَا فِي الْجَوَارِحِ سُكُونٌ وَتَوَاضُعٌ»[4].

---

(1) انظر: تفسير التستري، لسهل بن عبد الله التستري: 1/ 109.

(2) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي: 1/ 171.

(3) انظر: مفاتيح الغيب، المسمىٰ: (التفسير الكبير)، لفخر الدين الرازي: 23/ 259.

(4) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 1/ 375.

قالَ ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «وَالْخُشُوعُ: قِيَامُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ بِالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَالْجَمْعِيَّةِ[1] عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: الْخُشُوعُ خُمُودُ نِيرَانِ الشَّهْوَةِ، وَسُكُونُ دُخَانِ الصُّدُورِ، وَإِشْرَاقُ نُورِ التَّعْظِيمِ فِي الْقَلْبِ.

وَقَالَ الْجُنَيْدُ: الْخُشُوعُ تَذَلُّلُ الْقُلُوبِ لِعَلَّامِ الْغُيُوبِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْخُشُوعَ مَعْنًى يَلْتَئِمُ مِنَ التَّعْظِيمِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالذُّلِّ، وَالِانْكِسَارِ. والاِتِّضَاعُ[2] لِنَظَرِ الْحَقِّ، فَهُوَ اتِّضَاعُ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، وَانْكِسَارُهَا لِنَظَرِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ إِلَيْهَا، وَاطِّلَاعِهِ عَلَىٰ تَفَاصِيلِ مَا فِي الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، وَهُوَ مَقَامُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ بِالاِطِّلَاعِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالرُّبُوبِيَّةِ.

فَخَوْفُهُ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ يُوجِبُ لَهُ خُشُوعَ الْقَلْبِ لَامَحَالَةَ، وَكُلَّمَا كَانَ أَشَدَّ اسْتِحْضَارًا لَهُ؛ كَانَ أَشَدَّ خُشُوعًا، وَإِنَّمَا يُفَارِقُ الْقَلْبَ إِذَا غَفَلَ عَنِ اطِّلَاعِ اللهِ عَلَيْهِ، وَنَظَرِهِ إِلَيْهِ»[3].

«فالخَاشِعُ للهِ تعالَىٰ عَبْدٌ قَدْ خَمَدَتْ[4] نيرانُ شَهْوَتِهِ، وَسَكَنَ دُخَانُها عَنْ صَدرِهِ؛ فانْجَلَىٰ الصَّدْرُ، وأَشْرَقَ فِيهِ نُورُ العَظَمَةِ؛ فَمَاتَتْ شَهَواتُ النَّفْسِ؛ للخَوْفِ وَالْوَقارِ الَّذي

---

(1) الجَمْعِيَّةُ: اجْتِمَاعُ الهَمِّ فِي التَّوَجُّهِ إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ، والاشْتِغَالِ بِهِ عَمَّا سِوَاهُ، وَعَكْسُهَا التَّفَرِقَةُ، انظر: التعريفات، للجرجاني: 1/ 77.

(2) الاِتِّضَاعُ: التَّوَاضُعُ، والتَّذَلُّلُ، والانْكِسَارُ، وعَدَمُ التَّرَفُّعِ، انظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان: 11/ 7203.

(3) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 517- 519.

(4) خَمَدَتْ: سَكَنَتْ وَهَمَدَتْ، انظر: الفروق اللغوية، للعسكري: 1/ 300.

حُشِيَ بِهِ، وخَمَدَتِ الْجَوَارِحُ، وَتَوَقَّرَ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَذَكَرَهُ بِالسَّكِينَةِ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ تَعَالَىٰ؛ فَصَارَ مُخْبِتًا لَهُ، والمُخْبِتُ المُطْمَئِنُّ، فَإِنَّ الخَبَتَ مِنَ الأَرْضِ مَا اطْمَأَنَّ؛ فاسْتَنْقَعَ فِيهِ المَاءُ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ المُخْبِتُ، قَدْ خشَعَ وَاطْمَأَنَّ، كالبُقْعَةِ المُطْمَئِنَّةِ مِنَ الأَرْضِ، الَّتِي يجْرِي إِلَيْهَا المَاءُ فَيَسْتَقِرُّ فِيهَا»[(1)].

وقالَ ابنُ رَجَبٍ: «الخُشُوعُ: هُوَ خُشُوعُ القَلْبِ، وَهُوَ انْكِسَارُهُ للهِ تَعالَىٰ، وخُضُوعُهُ وسُكُونُهُ عَنِ الْتِفَاتِهِ إِلَىٰ غَيرِ مَنْ هُوَ بينَ يَدَيْهِ، ولِينُهُ وَرِقَّتُهُ فَإِذَا خَشَعَ القَلْبُ؛ خَشَعَتِ الجَوارِحُ كُلُّها تَبَعًا لِخُشُوعِهِ؛ لأَنَّها تابِعَةٌ لَهُ، فَإِذَا خَشَعَ القَلْبُ؛ خَشَعَ السَّمْعُ والبَصَرُ والرَّأْسُ والوَجْهُ وسَائِرُ الأَعْضَاءِ، وَمَا يَنْشَأُ مِنْها حتَّىٰ الكَلامُ»[(2)]. «وأَصْلُ الخُشُوعِ الحَاصِلُ فِي القَلْبِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، ومَعْرِفَةِ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وكَمَالِهِ، فَمَنْ كَانَ بِاللهِ تَعالَىٰ أَعْرَفَ؛ كَانَ لَهُ أَخْشَعَ»[(3)].

وقالَ الأَلُوسِيُّ: «والخُشُوعُ فِي الظَّاهِرِ: انْتِكَاسُ الرَّأْسِ، والنَّظَرُ إِلَىٰ مَوْضِعِ السُّجُودِ، وإِلَىٰ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَرْكُ الالْتِفَاتِ، والطُّمَأْنينَةُ فِي الأَرْكَانِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، والخُشُوعُ فِي البَاطِنِ: سُكُونُ النَّفْسِ عَنِ الخَوَاطِرِ والهَوَاجِسِ[(4)] الدُّنْيَوِيَّةِ بالكُلِّيَّةِ، أَوْ تَرْكُ الاسْتِرْسَالِ

---

(1) الروح، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 232.

(2) انظر: تفسير ابن رجب الحنبلي، المسمىٰ: (روائع التفسير): 2/ 6.

(3) انظر: تفسير ابن رجب الحنبلي، المسمىٰ: (روائع التفسير): 2/ 11.

(4) الهَوَاجِسُ: الخَطَراتُ النَّفْسَانِيَّة، انظر: تاج العروس، للزبيدي: 11/ 203.

مَعَهَا، وحُضُورُ القَلْبِ لِمَعَانِي القِرَاءَةِ والأَذْكَارِ، ومُرَاقَبَةُ السِّرِّ بِتَرْكِ الالْتِفَاتِ إِلَىٰ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، واسْتِغْرَاقُ الرُّوحِ فِي بَحْرِ المَحَبَّةِ»[1].

وقالَ السَّعْدِيُّ: الخُشُوعُ: «حُضُورُ القَلْبِ بينَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَىٰ، مُسْتَحْضِرًا لِقُرْبِهِ؛ فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ قَلْبُهُ، وتَطْمَئِنُّ نَفْسُهُ، وتَسْكُنُ حَرَكَاتُهُ، وَيَقِلُّ الْتِفَاتُهُ، مَتَأَدِّبًا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ ﷻ، مُسْتَحْضِرًا جَمِيعَ مَا يَقُولُهُ ويَفْعَلُهُ فِي صَلَاتِهِ، مِنْ أَوَّلِ صَلَاتِهِ إِلَىٰ آخِرِهَا، فَتَنْتَفِي بِذَلِكَ الوَسَاوِسُ والأَفْكَارُ الرَّدِيَّةُ، وَهَذَا رُوحُ الصَّلَاةِ، والمَقْصُودُ مِنْهَا»[2].

القِيَامُ خُضُوعٌ وخُشُوعٌ

قَالَ ابنُ رَجَبٍ: «مِمَّا يَظْهَرُ فيهِ الخُشُوعُ والذُّلُّ والانْكِسارُ مِنْ أَفْعالِ الصَّلَاةِ؛ وَضْعُ اليَدَيْنِ إِحْدَاهُمَا عَلَىٰ الأُخْرَىٰ فِي حَالِ القِيَامِ، وقَدْ رُوِيَ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ المُرَادِ بِذَلِكَ، فقالَ: «هُوَ ذُلٌّ بَيْنَ يَدَيْ عَزِيزٍ». قالَ عَلِيُّ بنُ مُحَمَّدٍ المِصْرِيُّ: «مَا سَمِعْتُ فِي العِلْمِ بِأَحْسَنَ مِنْ هَذَا»[3].

الرُّكُوعُ خُضُوعٌ وخُشُوعٌ

وقالَ ابنُ رَجَبٍ: «وتَمَامُ الخُضُوعِ فِي الرُّكُوعِ: أَنْ يَخْضَعَ القَلْبُ للهِ تَعَالَىٰ، وَيَذِلَّ لَهُ، فَيَتِمَّ بِذَلِكَ خُضُوعُ العَبْدِ بِبَاطِنِهِ وظَاهِرِه للهِ ﷻ»؛ وَلِهَذَا كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «اللهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي،

---

(1) انظر: روح المعاني، للألوسي: 9/ 271.

(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي: 1/ 548.

(3) انظر: تفسير ابن رجب الحنبلي، المسمىٰ: (روائع التفسير): 2/ 20، والخشوع في الصلاة، لابن رجب: 1/ 65.

وَعَظْمِي، وَعَصَبِي»[1]؛ إِشَارَةً إِلَىٰ أَنَّ خُشُوعَهُ فِي رُكُوعِهِ قَدْ حَصَلَ بِجَمِيعِ جَوارِحِهِ[2] وَمِنْ أَعْظَمِهَا القَلْبُ الذِي هُوَ مَلِكُ الأَعْضاءِ والجَوارِحِ، فَإِذَا خَشَعَ؛ خَشَعَتِ الجَوَارِحُ والأَعْضَاءُ كلُّهَا تَبَعًا لِخُشُوعِهِ»[3].

السُّجُودُ خُضُوعٌ وخُشُوعٌ

وقالَ ابنُ رَجَبٍ: «وَمِنْ ذَلِكَ: السُّجُودُ، وَهُوَ أَعْظَمُ مَا يَظْهَرُ فِيهِ ذُلُّ العَبْدِ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَيْثُ جَعَلَ العَبْدُ أَشْرفَ مَا لَهُ مِنَ الأَعْضَاءِ، وَأَعزَّها عَلَيْهِ، وأَعْلَاهَا حَقِيقَةً؛ أَوْضَعَ مَا يُمْكِنُهُ، فَيَضَعُهُ فِي التُّرَابِ مُتَعَفِّرًا، وَيَتْبَعُ ذَلِكَ انْكِسَارُ القَلْبِ وتَوَاضُعُهُ وَخُشُوعُهُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ ولِهَذا كانَ جَزَاءُ المُؤْمِنِ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ أَنْ يُقَرِّبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ، وَفِي الحَدِيثِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ»[4].

وَمِنْ تَمَامِ خُشُوعِ العَبْدِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَوَاضُعِهِ لَهُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ أَنَّهُ إِذَا ذَلَّ لِرَبِّهِ بالرُّكُوعِ والسُّجُودِ؛ وَصَفَ رَبَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ حِينَئِذٍ بِصِفَاتِ العِزِّ والكِبْرِيَاءِ والعَظَمَةِ والعُلوِّ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: الذُّلُّ والتَّوَاضُعُ وَصْفِي، والعُلُوُّ والعَظَمَةُ والكِبْرِياءُ وَصْفُكَ؛ فَلِهَذَا شُرِعَ للعَبْدِ فِي رُكُوعِهِ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»[5]، وفَي سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ

---

(1) أخرجه مسلم، بَابُ الدُّعَاءِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَقِيَامِهِ: 1/ 534، رقم: (771).

(2) الْجَوَارِحُ: جَمْعُ جَارِحَةٍ، وجَوَارِحُ الإِنْسَانِ: أَعْضَاؤُهُ الَّتِي يكْتَسب بهَا، كَيَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ، انظر: معجم الفروق اللغوية، للعسكري: 1/ 170.

(3) انظر: تفسير ابن رجب الحنبلي، المسمىٰ: (روائع التفسير): 2/ 22، والخشوع في الصلاة، لابن رجب: 1/ 75.

(4) أخرجه مسلم، بَابُ مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ: 1/ 350، رقم: (482).

(5) أخرجه مسلم، باب اسْتِحْبَابِ تَطْوِيلِ الْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ: 1/ 536، رقم: (772).

الأَعْلَىٰ»[1]. وكانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْيَانًا يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ، وَالْمَلَكُوتِ، وَالْكِبْرِيَاءِ، وَالْعَظَمَةِ»[2][3].

ثَالِثًا: حَقِيقَةُ الخُشُوعِ

مِنْ مَجْمُوعِ مَا سَبَقَ تَظْهَرُ حَقِيقَةُ الخُشُوعِ، وَهِيَ حَالَةٌ مِنَ الرِّقَّةِ والصَّفَاءِ النَّفْسِيِّ، والنَّقَاءِ القَلْبِيِّ، يُصَاحِبُهَا: وَجَلٌ فِي القَلْبِ، أَوْ قَشْعَرِيرَةٌ فِي الجِلْدِ، أَوْ بُكَاءٌ فِي العَيْنِ؛ نَاتِجَةٌ عَنِ التَّفَكُّرِ والتَّدَبُّرِ فِي عَظَمَةِ جَلَالِ اللهِ تَعَالَىٰ، واطِّلَاعِهِ عَلَىٰ تَفَاصِيلِ ظَاهِرِ العَبْدِ وَبَاطِنِهِ، وَتَقْصِيرِهِ فِي حَقِّ رَبِّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ عِنْدَ تِلَاوَةِ آيَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَذِكْرِهِ، وَرُؤْيَةِ آلَائِهِ وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَأَلْزَمُ مَا تَكُونُ فِي الصَّلَاةِ، وَتِلَاوَةِ القُرْآنِ، وذِكْرِ اللهِ تَعَالَىٰ.

والخُشُوعُ غَيْرُ التَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ والتَّذَكُّرِ، فَإِنَّ التَّدَبُّرَ: الوُقُوفُ عِنْدَ مَعْنَىٰ الكَلَامِ ومَقْصُودِهِ، والتَّفَكُّرَ: النَّظَرُ فِي عَظَمَةِ الخَلْقِ، وَعَظَمَةِ الخَالِقِ، والتَّذَكُّرَ: العِظَةُ بِذِكْرِ أَمْرٍ سَبَقَ تَدَبُّرُهُ، أَوِ التَّفَكُّرُ فِيهِ، كَالعِظَةِ بذِكْرِ المَوْتِ، أَوِ المَرَضِ، أَوِ الشِّدَّةِ، أَوِ الفَرَجِ...، أَمَّا الخُشُوعُ: فَهُوَ حَالَةٌ وِجْدَانِيَّةٌ نَفْسَانِيَّةٌ رَوْحَانِيَّةٌ قَلْبِيَّةٌ؛ نَاتِجَةٌ عَنِ التَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ والتَّذَكُّرِ.

---

(1) أخرجه مسلم، باب اسْتِحْبَابِ تَطْوِيلِ الْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ: 1/ 536، رقم: (772).

(2) أخرجه أبو داود، بَابُ مَا يَقُولُ الرَّجُلُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: 1/ 230، رقم: (873)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(3) انظر: تفسير ابن رجب الحنبلي، المسمىٰ: (روائع التفسير): 2/ 22، والخشوع في الصلاة، لابن رجب: 1/ 76.

رَابِعًا: خُشُوعُ النِّفَاقِ

لَمَّا كَانَ الخُشُوعُ حَالَةً شَرِيفَةً مَطْلُوبَةً لِكُلِّ عَبْدٍ، مَحْمُودَةً، مَحْمُودٌ صَاحِبُهَا؛ كانَ مَحِلَّ تَصَنُّعِ ضِعَافِ الإِيْمَانِ مِمَّنْ يَطْلُبُونَ بِأَعْمالِهِمْ شَرَفًا أَوْ حَظًّا مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيا، وَهُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوابِ الرِّيَاءِ والنِّفَاقِ الخَفِيَّةِ المَمْقُوتَةِ، وَلَقَدْ «أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْخُشُوعَ مَحَلُّهُ الْقَلْبُ، وَثَمَرَتُهُ عَلَىٰ الْجَوَارِحِ، وَهِيَ تُظْهِرُهُ»[1]، قَالَ القُرْطُبِيُّ: «فَمَنْ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ خُشُوعًا فَوْقَ مَا فِي قَلْبِهِ؛ فَإِنَّمَا أَظْهَرَ نِفَاقًا عَلَىٰ نِفَاقٍ، قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: لَا يَكُونُ خَاشِعًا حَتَّىٰ تَخْشَعَ كُلُّ شَعْرَةٍ عَلَىٰ جَسَدِهِ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[2]. وهَذَا هُوَ الْخُشُوعُ الْمَحْمُودُ؛ لِأَنَّ الْخَوْفَ إِذَا سَكَنَ الْقَلْبَ؛ أَوْجَبَ خُشُوعَ الظَّاهِرِ، فَلَا يَمْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَهُ، فَتَرَاهُ مُطْرِقًا مُتَأَدِّبًا مُتَذَلِّلًا، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَجْتَهِدُونَ فِي سَتْرِ مَا يَظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْمَذْمُومُ فَتَكَلُّفُ الخُشُوعِ، وَالتَّبَاكِي، وَمُطَأْطَأَةِ الرَّأْسِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْجُهَّالُ لِيُرَوْا بِعَيْنِ الْبِرِّ وَالْإِجْلَالِ؛ وَذَلِكَ خَدْعٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَتَسْوِيلٌ مِنْ نَفْسِ الإِنْسَانِ. رَوَىٰ الْحَسَنُ أَنَّ رَجُلًا تَنَفَّسَ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه كَأَنَّهُ يَتَحَازَنُ؛ فَلَكَزَهُ[3] عُمَرُ رضي الله عنه، أَوْ قَالَ: لَكَمَهُ[4]. وَكَانَ عُمَرُ رضي الله عنه إِذَا تَكَلَّمَ؛ أَسْمَعَ، وَإِذَا مَشَىٰ؛ أَسْرَعَ، وَإِذَا ضَرَبَ؛ أَوْجَعَ، وَكَانَ

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 517.

(2) الزمر: 23.

(3) اللَّكْزُ: الضَّرْبُ فِي الصَّدْرِ والوَجْهِ بِجَمْعِ اليَدِ، انظر: معجم العين، للخليل: 5/ 321.

(4) اللَّكْمُ: اللَّكْزُ فِي الصَّدْرِ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 10/ 148.

نَاسِكًا صِدْقًا، وَخَاشِعًا حَقًّا»[1]. «وَرَأَىٰ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﵁ رَجُلًا طَأْطَأَ رَقَبَتَهُ فِي الصَّلَاةِ؛ فَقَالَ: يَا صَاحِبَ الرَّقَبَةِ، ارْفَعْ رَقَبَتَكَ؛ لَيْسَ الْخُشُوعُ فِي الرِّقَابِ؛ إِنَّمَا الْخُشُوعُ فِي الْقُلُوبِ، وَرَأَىٰ بَعْضُهُمْ رَجُلًا خَاشِعَ الْمَنْكِبَيْنِ وَالْبَدَنِ، فَقَالَ: يَا فُلَانُ، الْخُشُوعُ هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَىٰ صَدْرِهِ، لَا هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَىٰ مَنْكِبَيْهِ، وَكَانَ حُذَيْفَةُ ﵁، يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَخُشُوعَ النِّفَاقِ، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا خُشُوعُ النِّفَاقِ؟ قَالَ: أَنْ تَرَىٰ الْجَسَدَ خَاشِعًا، وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ، وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: كَانَ يُكْرَهُ أَنْ يُرِيَ الرَّجُلُ مِنَ الْخُشُوعِ أَكْثَرَ مِمَّا فِي قَلْبِهِ، وَقَالَ سَهْلٌ: مَنْ خَشَعَ قَلْبُهُ؛ لَمْ يَقْرَبْ مِنْهُ الشَّيْطَانُ»[2].

«وَفَرْقٌ بَينَ خُشُوعِ الْإِيمَانِ، وَخُشُوعِ النِّفَاقِ، فَخُشُوعُ الْإِيمَانِ هُوَ خُشُوعُ الْقَلْبِ للهِ تَعَالَىٰ بالتَّعْظِيمِ والإِجْلَالِ وَالْوَقَارِ والمَهَابَةِ وَالْحَيَاءِ؛ فَيَنْكَسِرُ الْقَلْبُ للهِ تَعَالَىٰ كِسْرَةً مُلْتَئِمَةً مِنَ الوَجَلِ، والخَجَلِ، وَالْحُبِّ، وَالْحَيَاءِ، وشُهُودِ نِعَمِ اللهِ ﷻ، وجِنَايَاتِهِ هُوَ؛ فَيَخْشَعُ الْقَلْبُ لَامَحَالَةَ، فَيَتْبَعُهُ خُشُوعُ الْجَوَارِحِ؛ وَأَمَّا خُشُوعُ النِّفَاقِ؛ فَيَبْدُو عَلَىٰ الْجَوَارِحِ تَصَنُّعًا وتَكَلُّفًا، وَالْقلبُ غَيرُ خاشِعٍ»[3].

مَسْأَلَةٌ فِي تَكَلُّفِ الخُشُوعِ

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُتَنَبَّهَ لَهُ التَّفرِيقُ بَيْنَ التَّكَلُّفِ الذِي يُظْهِرُهُ العَبْدُ؛ لِيُحْمَدَ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ، والتَّكَلُّفِ الذِي يَظْهَرُ عَلَىٰ العَبْدِ؛ بِقَصْدِ اجْتِلَابِ حَقِيقَةِ الخُشُوعِ، فَإِنَّ الأَوَّلَ مَذْمُومٌ مَمْقُوتٌ؛ وَهُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوابِ الرِّياءِ، وَعَلَىٰ فَاعِلِهَا تَرْكُهَا والتَّوْبَةُ مِنْهَا. وَأَمَّا الحَالَةُ الثَّانِيَةُ،

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 1/ 375.

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 517–519.

(3) الروح، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 232.

فَمَحْمُودَةٌ لَاسِيَّمَا فِي بِدَايَةِ المُجَاهَدَةِ؛ فَإِنَّ العَبْدَ الصَّادِقَ يَتَكَلَّفُ طَلَبَ الخَصْلَةِ الحَسَنَةِ، وَيَجْتَهِدُ فِي تَحْصِيلِهَا، وَيَتَحَرَّاهَا أَشَدَّ التَّحَرِّي؛ حَتَّىٰ تَصِيرَ لَهُ طَبْعًا وَسَجِيَّةً(1)، وَفِي الحَدِيثِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ؛ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ؛ يُوقَهُ»(2)؛ وَإِنَّهُ كَمَا أَنَّ العِلْمَ بالتَّعَلُّمِ، والحِلْمَ بالتَّحَلُّمِ؛ فَإِنَّ الخُشُوعَ بالتَّخَشُّعِ، وَإِنَّ الفَرْقَ بَيْنَ الحَالَتَيْنِ: المَذْمُومَةِ والمَحْمُودَةِ قِيدُ شَعْرَةٍ، وَضَابِطُهَا النِّيَّةُ فِي قَلْبِ العَبْدِ، فَقَدْ تَكُونُ الصُّورَةُ واحِدَةً لِرَجُلَيْنِ: أَحَدِهِمَا مُتَكَلِّفٌ تَكَلُّفَ رِيَاءٍ، والآخَرُ مُتَكَلِّفٌ تَكَلُّفَ خُشُوعٍ، أَلَا فَلْيُرَاقِبِ العَبْدُ قَلْبَهُ، وَلْيَنْظُرْ نِيَّتَهُ وقَصْدَهُ، ولِيَحْذَرِ المُتَكَلِّفُ الخُشُوعَ مِنْ خَواطِرِ الرِّيَاءِ التِي قَدْ تَطْرَأُ عَلَيْهِ، وَتَهْجِمُ عَلَىٰ قَلْبِهِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الخَلْقِ.

ثُمَّ إِنَّ التَّكَلُّفَ يُحْمَدُ فِي مَبَادِئِ المُجَاهَدَاتِ؛ فَإِذَا رَسَخَتْ قَدَمُ العَبْدِ فِي الخَيْرِ؛ فَلا يُحْمَدُ التَّكَلُّفُ حِينَهَا، إِلَّا إِذَا فَقَدَهُ؛ فَهُوَ يَتَكَلَّفُ لِاسْتِرْجَاعِهِ، واللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

خَامِسًا: وَصْفُ الخَاشِعِينَ

أَمَّا وَصْفُ الخَاشِعِ فِي صَلَاتِهِ؛ فَإِذَا مَا كانَتِ الصَّلَاةُ، وحانَ حَيْنُها، فَإِنَّ للعَبْدِ الخَاشِعِ مَعَها شَأْنٌ عَجِيبٌ؛ فإِنَّهُ يُقْبِلُ علَىٰ اللهِ تعالَىٰ بِكُلِّيَّتِهِ؛ فَيَسْتَقْبِلُ اللهَ ﷻ بِقَلْبِهِ ونَفْسِهِ ورُوحِهِ، كما يَسْتَقْبِلُ القِبْلَةَ -بيتَ اللهِ الحَرَامَ- بِوَجْهِهِ؛ فَتَعْرُجُ رُوحُهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، كَمَا قالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «فَالدَّاعِي وَالسَّاجِدُ يُوَجِّهُ رُوحَهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ؛ وَالرُّوحُ لَهَا عُرُوجٌ يُنَاسِبُهَا،

(1) السَّجِيَّةُ: الطَّبْعُ، انظر: معجم العين، للخليل: 2/ 23.

(2) أخرجه الطبراني في الأوسط، بَابُ مَنِ اسْمُهُ إِبْرَاهِيمُ: 3/ 118، رقم: (2663)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، سَعْدُ بْنُ زُنْبُورٍ: 10/ 184، رقم: (3027)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ.

فَتَقْرُبُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ -بِلَا رَيْبٍ- بِحَسَبِ تَخَلُّصِهَا مِنَ الشَّوَائِبِ؛ فَيَكُونُ اللهُ ﷻ مِنْهَا قَرِيبًا قُرْبًا يَلْزَمُ مِنْ تَقَرُّبِهَا؛ وَيَكُونُ مِنْهُ قُرْبٌ آخَرُ»[1].

«فإذا انْتَصَبَ العَبْدُ المُحِبُّ للهِ تعالَىٰ قَائمًا بينَ يديهِ، بِإِقْبالِهِ علَىٰ قيُّومِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ وعَظَمَتِهِ؛ فَلا يَلْتَفِتُ يَمْنَةً ولا يَسْرَةً؛ فإِنَّ سِرَّ الصَّلَاةِ وَرُوحَهَا وَلُبَّهَا، هُوَ إِقْبَالُ العَبْدِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِكُلِّيَّتِهِ فِيهَا، فَكَمَا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْرِفَ وَجْهَهُ عَنِ القِبْلَةِ إِلَىٰ غَيْرِهَا فِيهَا، فَكَذَلِكَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَصْرِفَ قَلْبَهُ عَنْ رَبِّهِ ﷻ إِلَىٰ غَيْرِهِ فِيها، بَلْ يَجْعَلُ الكَعْبَةَ -التِي هِيَ بَيْتُ اللهِ تَعالَىٰ- قِبْلَةَ وَجْهِهِ وبَدَنِهِ، ورَبُّ البَيْتِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ قِبْلَةَ قَلْبِهِ ورُوحِهِ، وَعَلَىٰ حَسَبِ إِقْبَالِ العَبْدِ علَىٰ اللهِ تعالَىٰ فِي صَلَاتِهِ؛ يَكُونُ خُشُوعُهُ، وَيَكُونُ إقبالُ اللهِ ﷻ عَلَيْهِ، وإذا أَعْرَضَ العَبْدُ بِقَلْبِهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ أَعْرَضَ اللهُ ﷻ عَنْهُ، كَمَا تَدِينُ تُدَانَ، ولِلإِقْبالِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الصَّلاةِ ثَلاثُ مَنازِلَ:

* **الأَوَّلُ**: إقبالُ العبدِ عَلَىٰ قَلْبِهِ، فيحفَظُهُ ويُصْلحُهُ مِنْ أَمْراضِ الشَّهَواتِ والوَسَاوِسِ، والخَطَرَاتِ المُبْطِلَةِ لِثوابِ صَلاتِهِ أو المُنْقِصَةِ لَهَا.

* **وَالثَّانِي**: إقبالُهُ علَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِمُراقَبَتِهِ فِيها حتَّىٰ يَعْبُدَهُ كأَنَّهُ يَراهُ.

* **وَالثَّالِثُ**: إِقْبالُهُ علَىٰ مَعانِي كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ، وتَفاصِيلِهِ، وعُبُودِيَّةِ الصلاةِ؛ لِيُعْطِيَهَا حَقَّها مِنَ الخُشوعِ والطُّمَأْنينَةِ وغيرِ ذَلِكَ.

فَباسْتِكْمَالِ العَبْدِ هَذِهِ المَرَاتِبَ الثَّلاثَ؛ يَكُونُ قَدْ خَشَعَ حَقًّا، وَقَدْ أقامَ الصَّلاةَ حَقًّا، وَيَكُونُ إقبالُ اللهِ ﷻ عَلَىٰ عَبْدِهِ المُصَلِّي بِحَسَبِ ذَلِكَ»[2].

---

(1) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية: 5/ 130.

(2) انظر: أسرار الصلاة، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 1، والجامع لأحكام الصلاة، لعادل بن سعد: 1/ 18.

«فَهُوَ يُصَلِّي مَا كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ أَنْ يُصَلِّيَ، صَلَاةَ مُحِبٍّ نَاصِحٍ(1) لِمَحْبُوبِهِ، مُتَذَلِّلٍ مُنْكَسِرٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، لَا صَلَاةَ مُدِلٍّ(2) بِهَا عَلَيْهِ؛ يَرَىٰ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ مَحْبُوبِهِ عَلَيْهِ أَنْ أَقَامَهُ دُونَ غَيْرِهِ، واسْتَزَارَهُ(3)، وَطَرَدَ غَيْرَهُ، وَأَهَّلَهُ، وَحَرَمَ غَيْرَهُ؛ فَهُوَ يَزْدَادُ بِذَلِكَ مَحَبَّةً إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ، وَيَرَىٰ أَنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ، وَحَيَاةَ قَلْبِهِ، وَجَنَّةَ رُوحِهِ، وَنَعِيمَهُ، وَلَذَّتَهُ، وَسُرُورَهُ، فِي تِلْكَ الصَّلَاةِ، فَهُوَ يَتَمَنَّىٰ طُولَ صَلاتِهِ، وَيَهْتَمُّ بِانْقِضَائِهَا، كَمَا يَتَمَنَّىٰ المُحِبُّ الفَائِزُ بِوُصُولِ مَحْبُوبِهِ ذَلِكَ؛ فَهُوَ يَتَمَلَّقُ(4) فِيهَا مَوْلاهُ تَمَلُّقَ المُحِبِّ لِمَحْبُوبِهِ، العَزِيزِ الرَّحِيمِ، وَيُنَاجِيهِ بِكَلَامِهِ، مُعْطِيًا لِكُلِّ آيَةٍ حَظَّهَا مِنَ العُبُودِيَّةِ، فَتَجْذِبُ قَلْبَهُ وَرُوحَهُ إِلَيْهِ آياتُ المَحَبَّةِ والوِدَادِ، والآيَاتُ التِي فِيها أَسْمَاءُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَصِفَاتُهُ، والآيَاتُ التِي تَعَرَّفَ بِهَا إِلَىٰ عِبَادِهِ بِآلَائِهِ وإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وتُطَيِّبُ لَهُ السَّيْرَ آياتُ الرَّجَاءِ والرَّحْمَةِ، وسَعَةُ البِرِّ والمَغْفِرَةِ؛ فَتَكُونُ لَهُ بِمَنْزِلَةِ الحَادِي(5) الذِي يُطَيِّبُ لَهُ السَّيْرَ، ويُهَوِّنُهُ عَلَيْهِ، وتُقْلِقُهُ آياتُ

---

(1) النَّاصِحُ: المُخْلِصُ، المُحْسِنُ فِي عِبَادَتِهِ، المُتْقِنُ لَهَا، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 5/ 435.

(2) المُدِلُّ: المُمْتَنُّ بِعِبَادَتِهِ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 14/ 48.

(3) اسْتَزَارَهُ: دَعَاهُ لِزِيارَتِهِ، وأَذِنَ لَهُ فيها، وذَلِكَ أَنَّهُ هَدَاهُ للصَّلَاةِ، وَوَفَّقَهُ للوُقُوفِ بينَ يَدَيْهِ، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 4/ 336.

(4) يَتَمَلَّقُ: يَتَوَدَّدُ، والمَلَقُ: الوُدُّ واللُّطْفُ الشَّدِيدُ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 9/ 149.

(5) الْحَادِي: من حَدَا الإِبِلَ، يَحْدُوها، إِذا سَاقَهَا، وغَنَّىٰ لَهَا؛ ليحْصُلَ لَهَا نَشاطٌ وارتياحٌ فِي السَّيْرِ، انظر: تاج العروس، للزبيدي: 1/ 59.

الخَوْفِ والعَدْلِ والانْتِقَامِ، وإِحْلَالِ غَضَبِهِ بالمُعْرِضِينَ عَنْهُ العَادِلِينَ[1] بِهِ غَيْرَهُ، المَائِلِينَ إِلَىٰ سِوَاهُ، فَيَجْمَعُ ذَلِكَ قَلْبَهُ عَلَيْهِ، وَيَمْنَعُهُ أَنْ يَشْرُدَ عَنْهُ»[2].

الخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ وَحْيِ القَلَمِ

قَالَ الرَّافِعِيُّ: «أَخَذَنِي أَبِي مِنْ عَهْدِ الطُّفُولَةِ بالصَّلَاةِ، وَأَثْبَتَ فِي نَفْسِي أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَصِحُّ بالأَعْضَاءِ، إِنْ لَمْ يكُنِ الفِكْرُ نَفْسُهُ طَاهِرًا يُصَلِّي للهِ تَعَالَىٰ مَعَ الجِسْمِ، فَإِنْ كانَتِ الصَّلَاةُ بالجِسْمِ وَحْدَهُ لَمْ يَزْدَدِ المَرْءُ مِنْ رُوحِ الصَّلَاةِ إِلَّا بُعْدًا؛ وَقَرَ[3] هَذَا فِي نَفْسِي، وَاعْتَدْتُهُ، فَأُصَحِّحُ الفِكْرَ، وَأَسْتَحْضِرُ النِّيَّةَ فِي قَلْبِي، وَأَنْحَصِرُ بِكُلِّي فِي هَذَا الجُزْءِ الطَّاهِرِ قَبْلَ أَنْ أَقُولَ: (اللهُ أَكْبَرُ)؛ وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ فِكْرِي قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يَخْلَعَ الدُّنْيا مَتَىٰ شَاءَ، ويَلْبَسَهَا، وَأَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا، ثُمَّ يَعُودَ إِلَيْها؛ وَنَشَأَتْ فِيهِ القُوَّةُ المُصَمِّمَةُ التِي تَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يَنْصَرِفَ بِي عَمَّا يُفْسِدُ رُوحَ الصَّلَاةِ فِي نَفْسِي، وَهِيَ سِرُّ الدِّينِ وعِمَادُهُ. وَيَا لَهَا حِكْمَةٌ أَنْ فَرَضَ اللهُ ﷻ عَلَيْنَا هَذِه الصَّلَواتِ بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ؛ لِتَبْقَىٰ الرُّوحُ أَبَدًا إِمَّا مُتَّصِلَةً، أَوْ مُهَيَّأَةً لِتَتَّصِلَ. ولَنْ يَعجِزَ أَضْعَفُ النَّاسِ مَعَ رُوحِ الدِّينِ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ بِضْعَ سَاعَاتٍ؛ مَتَىٰ هُوَ أَقَرَّ اليَقْينَ فِي نَفْسِهِ أَنَّه مُتَوَجِّهٌ بَعْدَهَا إِلَىٰ رَبِّهِ ﷻ، فَخَافَ أَنْ يَقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُخْطِئًا، أَوْ آثِمًا؛ ثُمَّ هُوَ إِذَا مَلَكَ نَفْسَهُ إِلَىٰ هَذِهِ الفَرِيضَةِ، ذَكَرَ أَنَّ بَعْدَهَا الفَرِيضَةَ

---

(1) العَادِلِينَ: المُسَاوِينَ بِهِ غَيْرَهُ، انظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان: 7/ 4419.

(2) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 210.

(3) وَقَرَ: اسْتَقَرَّ، انظر: معجم ديوان الأدب، للفارابي: 3/ 140.

الأُخْرَىٰ، وَأَنَّهَا بِضْعُ سَاعَاتٍ كَذَلِكَ، فَلا يَزَالُ مِنْ عَزِيمَةِ النَّفْسِ وَطَهَارَتِهَا فِي عُمُرٍ عَلَىٰ صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ، لا يَتبَدَّلُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ، كَأَنَّهُ بِجُمْلَتِهِ -مَهْمَا طَالَ- عَمَلُ بِضْعِ سَاعَاتٍ»[1].

وَ«بالانْصِرَافِ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، وَجَمْعِ النِّيَّةِ والهَمِّ عَلَيْهَا؛ يَسْتَشْعِرُ المُسْلِمُ أَنَّهُ قَدْ حَطَّمَ الحُدُودَ الأَرْضِيَّةَ المُحِيطَةَ بِنَفْسِهِ مِنَ الزَّمَانِ والمَكَانِ، وخَرَجَ مِنْهَا إِلَىٰ رَوْحَانِيَّةٍ لَا يُحَدُّ فِيها إِلَّا باللهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ.

وبالقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ؛ يُحَقِّقُ المُسْلمُ لِذَاتِهِ مَعْنَىٰ إِفْرَاغِ الفِكْرِ السَّامِي عَلَىٰ الجِسْمِ كُلِّهِ؛ لِيَمْتَزِجَ بِجَلَالِ الكَوْنِ، وَوَقَارِهِ، كَأَنَّهُ كَائِنٌ مُنْتَصِبٌ مَعَ الكَائِنَاتِ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ شَطْرَ القِبْلَةِ فِي سَمْتِها الذِي لَا يَتَغَيَّرُ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَوْضَاعِ الأَرْضِ، يَعْرِفُ المُسْلِمُ حَقِيقَةَ التَّمَرْكُزِ فِي المَرْكَزِ الثَّابِتِ فِي رَوْحَانِيَّةِ الحَيَاةِ؛ فَيَحْمِلُ قَلْبُهُ مَعْنَىٰ الاطْمِئْنَانِ والاسْتِقْرَارِ عَلَىٰ جَاذِبِيَّةِ الدُّنْيَا وَقَلَقِهَا.

وبالرُّكُوعِ والسُّجُودِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ يُشْعِرُ المُسْلِمُ نَفْسَهُ مَعْنَىٰ السُّمُوِّ والرِّفْعَةِ عَلَىٰ كُلِّ مَا عَدَا الخَالِقِ مِنْ وُجُودِ الكَوْنِ.

وبالجِلْسَةِ فِي الصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ التَّحِيَّاتِ الطَّيِّبَاتِ، يَكُونُ المُسْلِمُ جَالِسًا فَوْقَ الدُّنْيَا، يَحْمَدُ اللهَ تَعَالَىٰ، وَيُسَلِّمُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ ومَلَائِكَتِهِ الكِرَامِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَيَشْهُد، وَيَدْعُو.

وبالتَّسْلِيمِ الذِي يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ؛ يُقْبِلُ المُسْلِمُ عَلَىٰ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا إِقْبَالًا جَدِيدًا مِنْ جِهَتَي السَّلَامِ والرَّحْمَةِ.

هِيَ لَحَظَاتٌ مِنَ الحَيَاةِ كُلَّ يَوْمٍ فِي غَيْرِ أَشْيَاءِ هَذِهِ الدُّنْيا؛ لِجَمْعِ الشَّهَواتِ وَتَقْيِيدِهَا بَيْنَ وَقْتٍ وآخَرَ بِسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا مِنْ حَرَكَاتِ الصَّلَاةِ؛ فَيَرَىٰ المُسْلِمُ مِنْ وَرَائِهِ حَقِيقَةَ

(1) وحي القلم، لمصطفىٰ الرافعي: 1/ 291.

الخُلُودِ، فَتَشْعُرُ الرُّوحُ أَنَّهَا تَنْمُو وَتَتَّسِعُ»[1]، «هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ، وَهِيَ كَذَلِكَ خَمْسُ مَرَّاتٍ يُفْرَغُ فِيهَا القَلْبُ مِمَّا امْتَلَأَ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا، فَمَا أَدَقَّ وَأَبْدَعَ وَأَصْدَقَ قَوْلَهُ ﷺ: جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[2].

سَادِسًا: حُكْمُ الخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ

اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي حُكْمِ الخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ، أَهُوَ فَرْضٌ أَمْ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ؟ عَلَىٰ فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٌ قَائِلٌ بِأَنَّ الخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فَرْضًا مِنْ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ، وأَنَّ الصَّلَاةَ تَتِمُّ بِهِ، وَتَنْقُصُ بِنُقْصانِهِ؛ وَفَرِيقٌ قَائِلٌ بِأَنَّ الخُشُوعَ فِيهَا فَرْضٌ، وَأَنَّ الصَّلَاةَ بِدُونِ خُشُوعٍ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ.

* **الفَرِيقُ الأَوَّلُ:** فَقَدْ ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ[3] إِلَىٰ أَنَّ الخُشُوعَ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ مِنْ سُنَنِ الصَّلَاةِ؛ بِدَلِيلِ صِحَّةِ صَلَاةِ مَنْ يُفَكِّرُ بِأَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ إِذْ لَمْ يَقُولُوا بِبُطْلَانِهَا إِذَا كَانَ ضَابِطًا أَفْعَالَهَا؛ وَعَلَيْهِ فَيُسَنُّ لِلْمُصَلِّي أَنْ يَخْشَعَ فِي كُلِّ صَلَاتِهِ بِقَلْبِهِ وَبِجَوَارِحِهِ وَذَلِكَ بِمُرَاعَاةِ مَا يَأْتِي:

أَوَّلًا: أَنْ لَا يُحْضِرَ فِي قَلْبِهِ غَيْرَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ مَعَانِي الصَّلَاةِ.

---

(1) وحي القلم، لمصطفىٰ الرافعي: 2/ 15.

(2) وحي القلم، لمصطفىٰ الرافعي: 2/ 15.

(3) حَكَىٰ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ الْمُهَذَّبِ الاِتِّفَاقَ عَلَىٰ أَنَّ الخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ سُنَّةٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ، وَفِيهِ نَظَرٌ؛ فَقَدْ كَثُرَ القَائِلُونَ بِوُجُوبِ الخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ، وَقَدْ فَصَّلَ العِرَاقِيُّ الرَّدَّ عَلَىٰ قَوْلِ النَّوَوِيِّ، انظر: طرح التثريب في شرح التقريب، للعراقي: 2/ 372.

ثَانِيًا: وَأَنْ يَخْشَعَ بِجَوَارِحِهِ بِأَنْ لَا يَعْبَثَ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ كَلِحْيَتِهِ، أَوْ مِنْ غَيْرِ جَسَدِهِ، كَتَسْوِيَةِ رِدَائِهِ أَوْ عِمَامَتِهِ، بِحَيْثُ يَتَّصِفُ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ بِالْخُشُوعِ، وَيَسْتَحْضِرُ أَنَّهُ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكِ الْمُلُوكِ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ يُنَاجِيهِ، وَأَنَّ صَلَاتَهُ مَعْرُوضَةٌ عَلَيْهِ.

ثَالِثًا: أَنْ يَتَدَبَّرَ الْقِرَاءَةَ؛ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ يُكْمِلُ مَقْصُودَ الْخُشُوعِ.

رَابِعًا: أَنْ يُفْرِغَ قَلْبَهُ عَنِ الشَّوَاغِلِ الأُخْرَىٰ؛ لِأَنَّ هَذَا أَعْوَنُ عَلَىٰ الْخُشُوعِ، وَلَا يَسْتَرْسِلَ مَعَ حَدِيثِ النَّفْسِ، قَال ابْنُ عَابِدِينَ: وَاعْلَمْ أَنَّ حُضُورَ الْقَلْبِ فَرَاغُهُ مِنْ غَيْرِ مَا هُوَ مُلَابِسٌ لَهُ.

وَيَرَىٰ هَؤُلَاءِ أَنَّهُ إِذَا تَرَكَ الْمُصَلِّي الْخُشُوعَ فِي صَلَاتِهِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَهُ تَكُونُ صَحِيحَةً عِنْدَ الْجُمْهُورِ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْمُرِ الْعَابِثَ بِلِحْيَتِهِ بِإِعَادَةِ الصَّلَاةِ مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ يَدُلُّ عَلَىٰ انْتِفَاءِ خُشُوعِهِ فِي صَلَاتِهِ؛ وَلأَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَبْطُلُ بِعَمَلِ الْقَلْبِ وَلَوْ طَالَ، إِلَّا أَنَّهُ ارْتَكَبَ مَكْرُوهًا، وَلَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ.

* **الفَرِيقُ الثَّانِي**: قَالَ جَمْعٌ مِنَ العُلَمَاءِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ: إِنَّ الخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ وَاجِبٌ، لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ إِلَّا بِهِ؛ فَعَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَجْمَعَ هِمَّتَهُ وعَقْلَهُ وَقَلْبَهُ فِي الصَّلَاةِ حَسَبَ اسْتِطَاعَتِهِ، وَأَنْ يُحَقِّقَ السَّكِينَةَ والطُّمَأْنِينَةَ فِي أَفْعالِها، وَقَدِ اخْتَارَ ذَلِكَ: الغَزَالِيُّ، وَأَبُو زَيْدٍ المَرْوَزِيُّ مِنْ أَئِمَّةِ الشَّافِعِيَّةِ، ورَجَّحَهُ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ مِنْ أَئِمَّةِ المَالِكِيَّةِ، ومِنَ الحَنَابِلَةِ الإِمَامُ ابْنُ

الجَوْزِيِّ، وَعَبْدُ اللهِ بنُ حَامِدٍ، وَأَبُو المَعَالِي بن مُنَجَّىٰ، وَرَجَّحَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ، وابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ فِي بَحْثٍ مُطَوَّلٍ، وَمِنَ الأَحْنَافِ الإِمَامُ الأَلُوسِيُّ.

إِلَّا أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِيهِ: فَقَال بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ فَرْضٌ مِنْ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ وَلَكِنْ لَا تَبْطُلُ الصَّلَاةُ بِتَرْكِهِ؛ لأَنَّهُ مَعْفُوٌّ عَنْهُ. وَقَال آخَرُونَ: إِنَّهُ فَرْضٌ تَبْطُلُ الصَّلَاةُ بِتَرْكِهِ كَسَائِرِ الْفُرُوضِ. وَقَال بَعْضٌ آخَرُ مِنْهُمْ: إِنَّ الْخُشُوعَ شَرْطٌ لِصِحَّةِ الصَّلَاةِ لَكِنَّهُ فِي جُزْءٍ مِنْهَا، فَيُشْتَرَطُ فِي هَذَا الْقَوْلِ حُصُولُ الْخُشُوعِ فِي جُزْءٍ مِنَ الصَّلَاةِ؛ وَإِنِ انْتَفَىٰ فِي الْبَاقِي، وَبَعْضُ أَصْحَابِ هَذَا الْقَوْلِ حَدَّدَ الْجُزْءَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ الْخُشُوعُ مِنَ الصَّلَاةِ، فَقَال: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عِنْدَ تَكْبِيرَةِ الإِحْرَامِ[1].

أَقْوالُ مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِ الخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ

سَبَقَ أَنَّ قَوْلَ الجُمْهورِ بِأَنَّ الخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ، إِلَّا أَنَّ تَارِكَهُ مُرْتَكِبٌ مَكْرُوهًا، وَلَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ. وإِنَّنا إِذْ نذكر هنا ذِكْرَ أَقْوَالِ الأَئِمَّةِ القَائِلِينَ بِوُجُوبِ الخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ، لَا نَتَبَنَّىٰ رَأْيَهُمْ، وَلَا نَنْتَصِرُ لِمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، ولَكِنْ نَذْكُرُهُ، وَنُلِحُّ عَلَيْهِ؛ بَيَانًا لِأَهَمِّيَّتِهِ، وَحَتَّىٰ

---

(1) انظر تفصيل المسألة في: المجموع شرح المهذب، للنووي: 3/ 260-263، وتفسير الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 12/ 104، ومجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية: 2/ 553-554، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 112، والخشوع في الصلاة، لابن رجب، تحقيق أحمد الطهطاوي: 1/ 9، والمبدع، لابن مفلح: 1/ 483-449، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر: 2/ 264، والإنصاف، للمرداوي: 2/ 118، وكشف القناع، للبهوتي: 1/ 393، وسبل السلام، للصنعاني: 1/ 147، والموسوعة الفقهية الكويتية، لوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت: 19/ 117-119، وموسوعة الفقه الإسلامي، للتويجري: 2/ 438.

يَسْتَقِرَّ فِي النَّفْسِ خَطَرُ تَرْكِ الخُشُوعِ والغَفْلَةِ فِي الصَّلَاةِ؛ فَيَتَنَبَّهَ المُسْلِمُونَ لِعَظِيمِ أَهَمِّيَّةِ الخُشُوعِ؛ فَيَجْتَهِدُوا فِي تَحْقِيقِهِ فِي صَلَاتِهِمُ اجْتِهَادًا عَظِيمًا.

قالَ القُرْطُبِيُّ مِنَ المَالِكِيَّةِ: «اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْخُشُوعِ، هَلْ هُوَ مِنْ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ أَوْ مِنْ فَضَائِلِهَا وَمُكَمِّلَاتِهَا عَلَىٰ قَوْلَيْنِ. وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، وَمَحِلُّهُ الْقَلْبُ، وَهُوَ أَوَّلُ عَمَلٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ»[1].

قالَ الغَزَالِيُّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ: «(بَيَانُ اشْتِرَاطِ الْخُشُوعِ، وَحُضُورِ الْقَلْبِ)، اعْلَمْ أَنَّ أَدِلَّةَ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[2]. وَظَاهِرُ الْأَمْرِ الْوُجُوبُ، وَالْغَفْلَةُ تُضَادُّ الذِّكْرَ، فَمَنْ غَفَلَ فِي جَمِيعِ صَلَاتِهِ؛ كَيْفَ يَكُونُ مُقِيمًا لِلصَّلَاةِ لِذِكْرِهِ؟... وَالتَّحْقِيقُ فِيهِ أَنَّ الْمُصَلِّيَ مُنَاجٍ رَبَّهُ ﷻ؛ كَمَا وَرَدَ بِهِ الْخَبَرُ، وَالْكَلَامُ مَعَ الغَفْلَةِ لَيْسَ بِمُنَاجَاةٍ أَلْبَتَةَ[3]...، فَأَيُّ سُؤَالٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[4]؛ إِذَا كانَ القَلْبُ غافِلًا، وَإِذَا لَمْ يَقْصِدْ كَوْنَهُ تَضَرُّعًا وَدُعَاءً، فَلا شَكَّ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقِرَاءَةِ وَالْأَذْكَارِ الْحَمْدُ وَالثَّنَاءُ وَالتَّضَرُّعُ وَالدُّعَاءُ، وَالْمُخَاطَبُ هُوَ اللهُ ﷻ، فَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ بِحِجَابِ الْغَفْلَةِ مَحْجُوبٌ عَنْهُ، وَهُوَ غَافِلٌ عَنِ الْمُخَاطَبِ،

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 12/ 104.

(2) طه: 14.

(3) أَلْبَتَّةَ: قطعًا، يُقَال: لَا أَفعلهُ أَلْبَتَّةَ: قطعًا لَا رَجْعَة فِيهِ، ويجوز وصل همزتها (البتة)، ويجوز قطعها (ألبتة)، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة: 1/ 37.

(4) الفاتحة: 6.

ولِسَانُهُ يَتَحَرَّكُ بِحُكْمِ الْعَادَةِ؛ فَمَا أَبْعَدَ هَذَا عَنِ الْمَقْصُودِ بِالصَّلَاةِ الَّتِي شُرِعَتْ؛ لِتَصْقِيلِ[1] الْقَلْبِ، وَتَجْدِيدِ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرُسُوخِ عَقْدِ الْإِيمَانِ بِهِ»[2].

وقالَ ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ مِنَ الحَنَابِلَةِ: «فَإِنْ قِيلَ: مَا تَقُولُونَ فِي صَلَاةٍ مِنْ عَدَمِ خُشُوعٍ هَلْ يُعْتَدُّ بِهَا أَمْ لَا؟ قِيلَ: أَمَّا الِاعْتِدَادُ بِهَا فِي الثَّوَابِ، فَلَا يُعْتَدُّ لَهُ فِيهَا إِلَّا بِمَا عَقِلَ فِيهِ مِنْهَا، وَخَشَعَ فِيهِ لِرَبِّهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ إِلَّا مَا عَقِلْتَ مِنْهَا». وَقَدْ عَلَّقَ اللهُ فَلَاحَ الْمُصَلِّينَ بِالْخُشُوعِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ يَخْشَعْ؛ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْفَلَاحِ، وَلَوِ اعْتَدَّ لَهُ بِهَا ثَوَابًا لَكَانَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ»[3].

قالَ الأَلُوسِيُّ مِنَ الأَحْنَافِ: «لَا خِلَافَ فِي أَنَّهُ لَا ثَوابَ فِي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ مِنْ أَقْوالِ أَوْ أَفْعَالِ الصَّلاةِ أُدِّيَ مَعَ الغَفْلَةِ، وَمَا أَقْبَحَ مُصَلٍّ يَقُولُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4]، وَهُوَ غَافِلٌ عَنِ الرَّبِّ جَلَّ شَأْنُهُ، مُتَوَجِّهٌ بِشَرَاشِرِهِ[5] إِلَىٰ الدُّنْيَا، ثُمَّ

---

(1) تَصْقِيلُ، أَيْ: تَجْلِيَةٌ وَتَخْلِيَةٌ وَتَزْكِيَةٌ وَتَصْفِيَةٌ، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 4/ 1560.

(2) إحياء علوم الدين، للغزالي: 1/ 160.

(3) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 521-522.

(4) الفاتحة: 2.

(5) الشَّراشِرُ: النَفسُ والمحبَّة جميعًا، وألقىٰ شَراشِرَهُ، أي: نَفْسَهُ؛ حِرْصًا ومَحَبَّةً، انظر: معجم العين، للخليل: 6/ 218، ومعجم الجراثيم، للدينوري: 1/ 151.

يَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]، وَلَيْسَ فِي قَلْبِهِ وفِكْرِهِ غَيْرُ الدُّنْيَا، وَمِنْ هُنَا قَالَ الحَسَنُ: كُلُّ صَلَاةٍ لَا يَحْضُرُ فِيهَا القَلْبُ؛ فَهِيَ إِلَىٰ العُقُوبَةِ أَسْرَعُ. وقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ الصَّلَاةَ مِعْرَاجُ[2] المُؤْمِنِ، أَفَتَرَىٰ مِثْلَ صَلَاةٍ هَذَا تَصْلُحُ لِذَلِكَ؟ حَاشَ للهِ تَعَالَىٰ[3]؛ مَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَقَدِ افْتَرَىٰ[4]»[5].

الحَذَرُ مِنَ التَّهَاوُنِ

وَعَلَىٰ فَرضِ المَيْلِ إِلَىٰ الرَّأْيِ القَائِلِ بِأَنَّ الخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ؛ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي الحَذَرُ مِنَ التَّهَاوُنِ بِأَمْرِ الخُشُوعِ لِأَجْلِ هَذَا القَوْلِ؛ فَإِنَّ السُّنَّةَ أَمْرُهَا خَطِيرٌ، فَتَرْكُ الخُشُوعِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ أَمْرُهُ خَطِيرٌ كَذَلِكَ، وذَلِكَ أَنَّهُ عِنْدَهُمْ يُكْرَهُ تَرْكُ الخُشُوعِ كَرَاهَةً شَدِيدَةً، والصَّلَاةُ فِي حَقِّهِ مُجْزِئَةٌ فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا، قَلِيلَةُ النَّفْعِ أَوْ مَعْدُومَتُهُ، وَلَا يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهَا الثَّوَابَ، فإِنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ. وَهَلْ يُرَادُ مِنَ الصَّلَاةِ إِلَّا تَحْصِيلُ النَّفْعِ الدُّنْيَوِيِّ: مِنَ اطْمِئْنَانٍ، وانْشِرَاحِ صَدْرٍ، وَنَهْيٍ عَنِ

---

(1) الفاتحة: 5.

(2) المِعْرَاجُ: الدَّرَجُ والسُّلَّمُ الذِي يُصْعَدُ عَلَيْهِ، والعُرُوجُ: الصُّعُودُ، انظر: معجم العين، للخليل: 1/ 223.

(3) حَاشَ للهِ، أي: مَعاذَ اللهِ، وأَصلُه التَّنْحِيةُ والإِبْعادُ، كَأَنَّهُ قَالَ: نَحَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ هَذَا، انظر: المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، للأصبهاني: 1/ 534.

(4) افْتَرَىٰ: أَتَىٰ بالكَذِبِ العَظِيمِ المُخْتَلَقِ المُزَوَّرِ الذِي لَا أَصْلَ لَهُ، انظر: مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار، للسبتي: 2/ 154.

(5) روح المعاني، للألوسي: 9/ 271.

الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ؛ والأُخْرَوِيِّ: مِنْ ثَوَابِ اللهِ تَعَالَىٰ وَكَرَامَتِهِ لِأَهْلِ الخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ.

ثُمَّ يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ تَرْكَ السُّنَّةِ شَرٌّ عَظِيمٌ، لا يُؤْمَنُ علَىٰ مَنِ اعتادَ تَرْكَهَا العُقُوبةُ، ويُخْشَىٰ علَىٰ مَنِ اعْتادَ تَرْكَ السُّنَّةِ أنْ يُضْرَبَ بِقَسْوَةٍ فِي قَلْبِهِ، وبُعْدِهِ عنْ رَبِّهِ ﷻ، قَالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ: «وَمَنْ عَلِمَ السُّنَّةَ، فَرَغِبَ عَنْهَا؛ لَمْ يَكُنْ مَعْذُورًا، بَلْ هُوَ تَحْتَ الْوَعِيدِ النَّبَوِيِّ بِقَوْلِهِ: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1]»[2].

حُكْمُ الصَّلاةِ التِي يَغْلُبُ عَلَيْهَا أَحَدُ الأَمْرَيْنِ: الخُشُوعُ، أَوْ عَدَمُهُ

أَمَّا الاِعْتِدَادُ بِالصَّلاةِ فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا، وَسُقُوطِ الْقَضَاءِ، فَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهَا الْخُشُوعُ وَتَعَقَّلَهَا صَاحِبُهَا اعْتُدَّ بِهَا إِجْمَاعًا، وَكَانَتِ السُّنَنُ، وَالْأَذْكَارُ عَقِيبَهَا جَوَابِرَ وَمُكَمِّلَاتٍ لِنَقْصِهَا.

وَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ عَدَمُ الْخُشُوعِ فِيهَا، وَعَدَمُ تَعَقُّلِهَا، فَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي وُجُوبِ إِعَادَتِهَا، فَأَوْجَبَهَا أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ حَامِدٍ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ، وَأَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ فِي إِحْيَائِهِ. وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهَا صَلَاةٌ لَا يُثَابُ عَلَيْهَا، وَلَمْ يُضْمَنْ لَهُ فِيهَا الْفَلَاحُ، فَلَمْ تَبْرَأْ ذِمَّتُهُ مِنْهَا، وَيَسْقُطُ الْقَضَاءُ عَنْهُ كَصَلَاةِ الْمُرَائِي. قَالُوا: وَلِأَنَّ

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي النِّكَاحِ: 7/ 2، رقم: (5063)، ومسلم: بَابُ اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ لِمَنْ تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ، وَوَجَدَ مُؤَنَهُ، وَاشْتِغَالِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الْمُؤَنِ بِالصَّوْمِ: 2/ 1020، رقم: (1401).

(2) الفتاوىٰ الكبرىٰ، لابن تيمية: 1/ 230.

الْخُشُوعَ وَالْعَقْلَ رُوحُ الصَّلَاةِ وَمَقْصُودُهَا وَلُبُّهَا، فَكَيْفَ يُعْتَدُّ بِصَلَاةٍ فَقَدَتْ رُوحَهَا وَلُبَّهَا، وَبَقِيَتْ صُورَتُهَا وَظَاهِرُهَا؟[1]

وقَالَ أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْآخَرِ: «إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ عَلَىٰ الْأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ، وَأَمَّا حَقَائِقُ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةُ فَتِلْكَ عَلَيْهَا شَرَائِعُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، فَلِلَّهِ تَعَالَىٰ حُكْمَانِ: حُكْمٌ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ الشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَحُكْمٌ فِي الْآخِرَةِ عَلَىٰ الظَّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْبَلُ عَلَانِيَةَ الْمُنَافِقِينَ، وَيَكِلُ أَسْرَارَهُمْ إِلَىٰ اللهِ فَيُنَاكِحُونَ، وَيَرِثُونَ وَيُورَثُونَ، وَيُعْتَدُّ بِصَلَاتِهِمْ فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا، فَلَا يَكُونُ حُكْمُهُمْ حُكْمَ تَارِكِ الصَّلَاةِ، إِذْ قَدْ أَتَوْا بِصُورَتِهَا الظَّاهِرَةِ، وَأَحْكَامُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ لَيْسَتْ إِلَىٰ الْبَشَرِ، بَلْ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَاللهُ يَتَوَلَّاهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. فَلَا يَحْصُلُ مَقْصُودُ هَذِهِ الصَّلَاةِ مِنْ ثَوَابِ اللهِ تَعَالَىٰ عَاجِلًا وَلَا آجِلًا»[2].

وَقَدْ عَلَّقَ الغَزَالِيُّ عَلَىٰ مَنْ لَمْ يَرَ أَنَّ الخُشُوعَ شَرْطٌ للصَّلاةِ بِقَوْلِهِ: «فاعْلَمْ أَنَّ الفُقَهَاءَ لَا يَتَصَرَّفُونَ فِي البَاطِنِ، وَلَا يَشُقُّونَ عَنِ القُلُوبِ، وَلَا فِي طَرِيقِ الآخِرَةِ، بَلْ يَبْنُونَ أَحْكَامَ الدِّينِ عَلَىٰ ظَاهِرِ أَعْمَالِ الجَوَارِحِ، وَظَاهِرُ الأَعْمَالِ كَافٍ لِسُقُوطِ القَتْلِ، وتَعْزِيرِ السُّلْطَانِ، فَأَمَّا أَنَّهُ يَنْفَعُ فِي الآخِرَةِ؛ فَلَيْسَ هَذَا مِنْ حُدُودِ الفِقْهِ»[3].

---

(1) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 522.

(2) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 522-526.

(3) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي: 1/ 160.

الخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ لَا يَعْنِي الإِطَالَةَ فِيهَا

إِنَّهُ مِنَ الجَدِيرِ أَنْ يُنَبَّهَ عَلَىٰ أَنَّ الخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ لَا يَعْنِي الإِطَالَةَ فِيهَا؛ فَإِنَّهُ رُبَّ مُطيلٍ فِي صَلاتِهِ، وَهُوَ هَائِمٌ فِي الفِكْرِ فِي أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا، وَرُبَّ مُخَفِّفٍ حَاضِرُ الفِكْرِ خَاشِعُ القَلْبِ؛ وإِنَّمَا المُعَوَّلُ عَلَىٰ الخُشُوعِ هُوَ حَالُ القَلْبِ، لَا طُولُ الصَّلاةِ وقِصَرُها، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَنَمَةَ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ رَجُلًا رَأَىٰ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ ﵁ يُصَلِّي صَلَاةً أَخَفَّهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ لَهُ: أَبَا الْيَقْظَانِ، لَقَدْ صَلَّيْتَ صَلَاةً أَخْفَفْتَهَا، فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتَنِي نَقَصْتُ مِنْ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا شَيْئًا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: بَادَرْتُ[1] السَّهْوَ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ وَمَا كُتِبَ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عُشْرُهَا، تُسْعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا»[2].

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي أُمَامَةَ، أَنَّهُ دَخَلَ هُوَ وَأَبُوهُ عَلَىٰ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ بِالْمَدِينَةِ فِي زَمَانِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ﵁ وَهُوَ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ، فَإِذَا هُوَ يُصَلِّي صَلَاةً خَفِيفَةً دَقِيقَةً، كَأَنَّهَا صَلَاةُ مُسَافِرٍ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، فَلَمَّا سَلَّمَ، قَالَ أَبِي: يَرْحَمُكَ اللهُ، أَرَأَيْتَ هَذِهِ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ أَوْ شَيْءٌ تَنَفَّلْتَهُ، قَالَ: إِنَّهَا الْمَكْتُوبَةُ، وَإِنَّهَا لَصَلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَخْطَأْتُ إِلَّا شَيْئًا سَهَوْتُ عَنْهُ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «لَا تُشَدِّدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا

---

(1) المبادرة: الإِسْرَاعُ، والمَعْنَىٰ هُنَا أَنَّهُ أَسْرَعَ فِي صَلَاتِهِ؛ مُحافِظًا عَلَىٰ حُدُودِهَا وخُشُوعِهَا؛ خَشْيَةَ أَنْ يَغْفُلَ فِكْرُهُ إنْ هُوَ أَطَالَ؛ فَيَسْهُو.

(2) أخرجه أحمد في مسنده، حديث عمار بن ياسر ﵁: 31/ 189، رقم: (18894)، وَصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

شَدَّدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ(1) وَالدِّيَارِ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾(2)»(3).

وعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، قَالَ: رَأَىٰ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه رَجُلًا عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ يَنْقُرُ، فَقَالَ: «مُذْ كَمْ صَلَّيْتَ هَذِهِ الصَّلَاةَ؟ قَالَ: مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً؟ قَالَ: لَوْ مُتَّ، مُتَّ عَلَىٰ غَيْرِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا مُحَمَّدٌ ﷺ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيُخَفِّفُ وَيُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ»(4).

«ومَعْنَىٰ قَوْلِ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه: (لَيُخَفِّفُ وَيُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ) أَيْ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُخَفِّفُ فِي صَلَاتِهِ بِأَنْ يُخَفِّفَ فِي القِرَاءَةِ مَثَلًا، وَيُتِمُّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا، وَسَائِرَ وَاجِبَاتِهَا، ويُحْسِنُ أَدَاءَهَا، يَعْنِي أَنَّ التَّخْفِيفَ لا يَتَنَافَىٰ مَعَ الإِتْمَامِ والإِحْسَانِ فِي الصَّلَاةِ»(5).

وَلَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الرَّكَعَاتِ الخَفِيفَةَ، التِي يَحْقِرُهَا النَّاسُ، وَيَظُنُّونَهَا قَلِيلَةً؛ زِيادَةٌ للعَبْدِ فِي عَمَلِهِ، وَهِيَ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيا ومَا فِيهَا؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه

---

(1) الصَّوَامِعُ: جَمْعُ صَوْمَعَةٍ، وَهِيَ مَعْبَدُ الرُّهبانِ فِي الأَمَاكِنِ النَّائِيَةِ، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر: 2/ 1338.

(2) الحديد: 27.

(3) أخرجه أبو داود، باب في الحَسَد: 7/ 264، رقم: (4904)، وَحَسَّنَهُ شعيب الأرنؤوط.

(4) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ذِكْرُ الْإِخْبَارِ عَنْ نَفْيِ جَوَازِ صَلَاةِ الْمَرْءِ إِذَا لَمْ يُقِمْ أَعْضَاءَهُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: 4/ 219، رقم: (1894)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(5) انظر: ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ، للوَلَّوي: 15/ 267.

قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ قَبْرٍ دُفِنَ حَدِيثًا، فَقَالَ: «رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانِ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتَنْفِلُونَ، يَزِيدُهُمَا هَذَا فِي عَمَلِهِ؛ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ»(1).

وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يُطَوِّلُ الصَّلَاةَ أَحيانًا، وَيُخَفِّفُهَا أَحيانًا، كُلُّ ذَلِكَ مَأْثُورٌ عَنْهُ؛ فَعَنْ أُمِّ هَانِئٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا ذَكَرَتْ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ اغْتَسَلَ فِي بَيْتِهَا، فَصَلَّىٰ ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ، فَمَا رَأَيْتُهُ صَلَّىٰ صَلَاةً أَخَفَّ مِنْهَا غَيْرَ أَنَّهُ يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ»(2).

ضَوَابِطُ الخُشُوعِ

يَتَحَقَّقُ الخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ، وَيَتَحَقَّقُ كَمَالُهَا بِضَابِطَيْنِ اثْنَيْنِ، سَواءٌ قَصُرَتِ الصَّلاةُ أَمْ طَالَتْ، وَهُمَا:

أَوَّلًا: عَدَمُ الإِخْلَالِ بِصِفَةِ الصَّلَاةِ الظَّاهِرَةِ، والمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الاطْمِئْنَانِ فِي الصَّلَاةِ كُلِّهَا.

ثَانِيًا: حُضُورُ القَلْبِ، والفِكْرُ فِيمَا هُوَ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِ الصَّلَاةِ، والتَّدَبُّرُ والفَهْمُ لمَا يَقْرَأُ فِي صَلَاتِهِ أَوْ يَسْمَعُ، وحُصُولُ الخُشُوعِ.

فمَنِ اجْتَمَعَتْ لَهُ هَذِهِ؛ تَمَّ لَهُ الخُشُوعُ، طَالَتِ الصَّلَاةُ أَمْ قَصُرَتْ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ مِنْهَا بِشَيْءٍ؛ فَلَيْسَ بِخَاشِعٍ وَلَوْ أَمْضَىٰ فِي الرَّكْعَتَيْنِ سَاعَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ!

---

(1) أخرجه ابن المبارك في الزهد، باب التحضيض علىٰ طاعة الله ﷻ: 1/ 10، رقم: (31)، والسُّيُوطِيُّ في الجامع الكبير: 1/ 12915، رقم: (12924)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ مَنْ تَطَوَّعَ فِي السَّفَرِ، فِي غَيْرِ دُبُرِ الصَّلَوَاتِ وَقَبْلَ: 2/ 45، رقم: (1103).

سَابِعًا: أحْكَامُ الفِكْرُ فِي الصَّلَاةِ

لَا يَخْلُو أَحَدٌ مِنَ الفِكْرِ فِي الصَّلَاةِ وَلَا فِي غَيْرِهَا فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِهِ، وَلَا يَنْفَكُّ الفِكْرُ فِي الصَّلَاةِ عَنْ أَرْبَعَةِ أَنْواعٍ:

الأَوَّلُ: الفِكْرُ فِيمَا يَكُونُ العَبْدُ فِيهِ مِنْ أَمْرِ صَلَاتِهِ، فَيَتَفَكَّرُ فِيمَا يَتْلُو عِنْدَ التِّلَاوَةِ، وَيَتَفَكَّرُ فِي مَعَانِي الأَذْكَارِ عِنْدَ الأَذْكَارِ، وَيَتَفَكَّرُ فِي مَقْصُودِ الأَعْمَالِ عِنْدَ أَعْمَالِ الصَّلَاةِ، وَهَذَا أَشْرَفُ أَنْواعِ الفِكْرِ، وَهُوَ المَقْصُودُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَهُوَ المُفْضِي إِلَىٰ الخُشُوعِ للهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ الذِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الثَّوَابَ الكَامِلَ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ.

الثَّانِي: الفِكْرُ فِي أُمُورِ الدِّينِ الخَارِجَةِ عَنْ أَمْرِ الصَّلَاةِ، كَأَنَّ يَتَفَكَّرَ فِي هَمٍّ مِنْ هُمُومِ المُسْلِمِينَ فِي الصَّلَاةِ، وَيسْتَرْسَلُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْصِدَ ذَلِكَ؛ فَهَذَا الفِكْرُ مَفْضُولٌ[1]، وَهُوَ دُونَ الأَوَّلِ، وَتَنْقُصُ بِهِ رُتْبَةُ الصَّلَاةِ، قَالَ المُهَلَّبُ: «التَّفَكُّرُ أَمْرٌ غَالِبٌ، لَا يُمْكِنُ الاحْتِرَازُ مِنْهُ فِي الصَّلَاةِ، وَلَا فِي غَيْرِهَا؛ لِمَا جَعَلَ اللهُ تَعالَىٰ للشَّيْطَانِ مِنَ السَّبِيلِ عَلَىٰ الإِنْسَانِ، ولكِنْ يَفْتَرِقُ الحَالُ فِي ذَلِك، فَإِنْ كَانَ فِي أَمْرِ الآخِرَةِ والدِّينِ؛ كَانَ أَخَفَّ مِمَّا يَكُونُ فِي أَمْرِ الدُّنْيا»[2].

وَعَلَىٰ المُصَلِّي أَلَّا يَسْتَرْسِلَ فِيهِ عَمْدًا، وَأَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ حِينَمَا يَهْجُمَ عَلَيْهِ، وَيَنْتَقِلَ إِلَىٰ الفِكْرِ فِيمَا هُوَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الصَّلَاةِ.

---

(1) مَفْضُولٌ: غَيْرُهُ أَفْضَلُ مِنْهُ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 12/ 31.

(2) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر: 3/ 90.

وَمِنْ ذَلِكَ، مَا ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، قالَ: «بَابُ يُفْكِرُ الرَّجُلُ الشَّيْءَ فِي الصَّلَاةِ، وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: إِنِّي لَأُجَهِّزُ جَيْشِي وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ»[1].

قَالَ ابْنُ المُلَقِّنِ: «أَثَرُ عُمَرَ رضي الله عنه إِنَّمَا كَانَ فِيمَا يَقِلُّ فِيهِ التَّفَكُّرُ، يَذْكُرُ فِي نَفْسِهِ»[2]، وَقَالَ ابْنُ التِّينِ: «إِنَّمَا هَذَا فِيمَا يَقِلُّ فِيهِ التَّفَكُّرُ، كَأَنْ يَقُولَ أُجَهِّزُ فُلَانًا، أُقَدِّمُ فُلَانًا، أُخْرِجُ مِنَ الْعَدَدِ كَذَا وَكَذَا، فَيَأْتِي عَلَىٰ مَا يُرِيدُ فِي أَقَلِّ شَيْءٍ مِنَ الفِكْرَةِ، فَأَمَّا إِذَا تَابَعَ الْفِكْرَ، وَأَكْثَرَ حَتَّىٰ لَا يدْرِي كَمْ صَلَّىٰ؛ فَهَذَا اللَّاهِي فِي صلَاته»[3]، وقال البُغَا: «(أُجَهِّزُ جَيْشِي)، أَيْ: أَتَفَكَّرُ فِي تَجْهِيزِ جَيْشِي، وَأَنَا أُصَلِّي، واللَّائِقُ بِهِ رضي الله عنه أَنَّ ذَلِكَ كانَ يَهْجُمُ عَلَيْهِ؛ فَيُحَاوِلُ دَفْعَهُ»[4].

ولابْنِ تَيمِيَّةَ تَوْجِيهٌ حَسَنٌ؛ فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ: «وَأَمَّا مَا يُرْوَىٰ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه؛ فَذَاكَ لِأَنَّ عُمَرَ كَانَ مَأْمُورًا بِالْجِهَادِ، وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ أَمِيرُ الْجِهَادِ، فَصَارَ بِذَلِكَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ بِمَنْزِلَةِ الْمُصَلِّي الَّذِي يُصَلِّي صَلَاةَ الْخَوْفِ حَالَ مُعَايَنَةِ الْعَدُوِّ، إِمَّا حَالَ الْقِتَالِ، وَإِمَّا غَيْرَ حَالِ الْقِتَالِ، فَهُوَ مَأْمُورٌ بِالصَّلَاةِ، وَمَأْمُورٌ بِالْجِهَادِ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يُؤَدِّيَ الْوَاجِبَيْنِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ طُمَأْنِينَةَ الْقَلْبِ حَالَ الْجِهَادِ لَا تَكُونُ كَطُمَأْنِينَتِهِ

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ يُفْكِرُ الرَّجُلُ الشَّيْءَ فِي الصَّلَاةِ: 2/ 67.

(2) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن: 9/ 322.

(3) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر: 3/ 90، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني: 7/ 298.

(4) انظر: شرح مصطفىٰ البُغَا علىٰ حاشية صحيح البخاري: 2/ 67.

حَالَ الْأَمْنِ، فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ نَقَصَ مِنَ الصَّلَاةِ شَيْءٌ لِأَجْلِ الْجِهَادِ؛ لَمْ يَقْدَحْ هَذَا فِي كَمَالِ إِيمَانِ الْعَبْدِ وَطَاعَتِهِ، وَلِهَذَا تُخَفَّفُ صَلَاةُ الْخَوْفِ عَنْ صَلَاةِ الْأَمْنِ»(1).

الثَّالِثُ: الفِكْرُ فِي أُمُورِ الدُّنْيا المُبَاحَةِ فِي الصَّلَاةِ، كَأَنْ يَسْتَرْسِلَ فِي الفِكْرِ فِي الطَّعَامِ والشَّرَابِ واللِّبَاسِ والعَمَلِ والمَرْأَةِ والوَلَدِ ...، وَهَذَا الفِكْرُ يُذْهِبُ ثَوَابَ المُصَلِّي؛ قَالَ المُنَاوِيُ: «فَيُكْتَبُ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ مَا عَقَلَ فَقَطْ، وَذَلِكَ فَضْلٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ صَلَاتَهُ كَانَتْ فِي مُوجِبِ الأَدَبِ أَسْرَعَ إِلَىٰ العُقُوبَةِ(2) مِنْهَا إِلَىٰ أَنْ يُكْتَبَ لَهُ مَا عَقَلَ، وَيُؤَجَر عَلَيْهَا؛ إِذْ لَا يَدْرِي بَيْنَ يَدَيْ مَنْ هُوَ حَتَّىٰ يَلْتَفِتَ إِلَىٰ غَيْرِهِ بِقَلْبِهِ، وَهُوَ وَاقِفٌ رَاكِعٌ سَاجِدٌ بِجَسَدِهِ، قالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رحمهُ اللهُ تعالَىٰ: «كُلُّ صَلَاةٍ لَا يَحْضُرُ فِيهَا القَلْبُ؛ فَهِيَ إِلَىٰ العُقُوبَةِ أَسْرَعُ»(3). وَعَنْ عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ، قَالَ: «لَا يُكْتَبُ للرَّجُلِ مِنْ صَلَاتِهِ مَا سَهَا عَنْهُ»(4).

الرَّابِعُ: الفِكْرُ فِي أُمُورٍ مُحَرَّمَةٍ، كَالفِكْرِ فِي امْرَأَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا فِي طَرِيقِهِ، أَوِ الاسْتِرْسَالِ فِي سُوءِ ظَنٍّ بِإِنْسَانٍ، أَوِ الفِكْرِ فِي التَّخْطِيطِ لِمُعَامَلَةٍ رِبَوِيَّةٍ، أَوْ رِشْوَةٍ، أَوْ شَهَادَةِ زُورٍ، أَوْ فِي أَذِيَّةِ مُسْلِمٍ...

(1) انظرِ: الفتاوىٰ الكبرىٰ، لابن تيمية: 2/ 224.

(2) يَعْنِي هَذِهِ الصَّلَاةُ الذِي غَفَلَ فِيها يَسْتَحِقُّ عَلَيْها العَقُوبَةَ؛ فَكَيْفَ يَطْلُبُ عَلَيْها الثَّوَابَ؟!

(3) انظر: فيض القدير، للمناوي: 2/ 334.

(4) الزهد والرقائق، لابن المبارك، والزهد، لنعيم بن حماد: 1/ 459.

وَهَذا الفِكْرُ مُحَرَّمٌ، إِذَا اسْتَرْسَلَ العَبْدُ فِيهِ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ، وَقَصَدَهُ؛ فَصَاحِبُهُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ مَوْزُورٌ لَا مَأْجُورٌ، مَمْقُوتٌ أَشَدَّ المَقْتِ؛ إِذْ تَجَرَّأَ عَلَىٰ الفِكْرِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي مَوْطِنِ الطَّاعَةِ؛ فَيَكُونُ كَمَنْ عَصَا المَلِكَ عَلَىٰ بِسَاطِهِ وَتَحْتَ نَظَرِهِ!!

ثَامِنًا: الشَّيْطَانُ والصَّلَاةُ

لَمَّا عَلِمَ عَدُوُّ اللهِ تَعَالَىٰ إِبْلِيسُ أَنَّ الصَّلَاةَ أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَرْجَاهَا فِي مِيزَانِهِ؛ تَسَلَّطَ عَلَيْهَا لِيُفْسِدَهَا عَلَىٰ العَبْدِ المُصَلِّي؛ إِمْضَاءً لِقَسَمِهِ[1]، فَهُوَ يَصْرِفُ العَبْدَ عَنِ الصَّلَاةِ، وَيُقْعِدُهُ عَنْهَا؛ وَلَكَمْ نَجَحَ عَدُوُّ اللهِ فِي صَرْفِ كَثِيرٍ مِنْ أَبْنَاءِ المُسْلِمِينَ عَنِ الصَّلَاةِ؛ فَتَرَكُوهَا بالكُلِّيَّةِ، فَإِنْ لَمْ يُفْلِحْ فِي ذَلِكَ؛ تَسَلَّطَ عَلَىٰ الصَّلَاةِ نَفْسِهَا لِيُفْسِدَهَا؛ فَيَأْتِي العَبْدَ فِي صَلَاتِهِ؛ وَلَا يَزَالُ بِهِ، يُذَكِّرُهُ أُمُورَ الدُّنْيَا الَّتِي يُحِبُّ وَيَشْتَهِي، فَيُذَكِّرُهُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الصَّلَاةَ؛ حَتَّىٰ يُخْرِجَهُ مِنَ الصَّلَاةِ إِلَىٰ الدُّنْيَا؛ فَتَجِدَ المُصَلِّيَ بَدَنُهُ فِي مِحْرَابِهِ، وفِكْرُهُ فِي الدُّنْيَا يَتَنَقَّلُ، مِنَ البَيْتِ إِلَىٰ السُّوقِ إِلَىٰ العَمَلِ إِلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ... وَلَا يَكَادُ يَسْتَيْقِظُ، وَيَصْحُو مِنْ غَفْلَتِهِ إِلَّا عَلَىٰ وَقْعِ صَوْتِ الإِمَامِ، وَهُوَ يُسَلِّمُ مِنَ الصَّلَاةِ؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ، وَلَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّىٰ لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَىٰ النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّىٰ إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ[2] أَدْبَرَ، حَتَّىٰ إِذَا قَضَىٰ

---

(1) إِشَارَةً إِلَىٰ قَسَمِ إِبْلِيسَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82].

(2) ثَوَّبَ بِالصَّلَاةِ: الْمُرَادُ بِالتَّثْوِيبِ الْإِقَامَةُ، وَأَصْلُهُ مِنْ ثَابَ إِذَا رَجَعَ، وَمُقِيمُ الصَّلَاةِ رَاجِعٌ إِلَىٰ الدُّعَاءِ إِلَيْهَا، فَإِنَّ الْأَذَانَ دُعَاءٌ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، وَالْإِقَامَةُ دُعَاءٌ إِلَيْهَا، انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي: 4/ 92.

التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ، حَتَّىٰ يَخْطِرَ بَيْنَ المَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّىٰ يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّىٰ»(1).

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ اهْتِمَامِ الشَّيْطَانِ بِأَمْرِ الصَّلَاةِ؛ أَنَّهُ تَخَصَّصَ لِإِفْسَادِهَا شَيْطَانٌ خَاصٌّ، فَعَنْ أَبِي الْعَلَاءِ، أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ ﷺ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزَبٌ(2)، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ؛ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَىٰ يَسَارِكَ ثَلَاثًا» قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ؛ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي(3).

وَيَبْدُو –وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ– أَنَّ هَذَا الشَّيْطَانَ مُتَخَصِّصٌ خَبِيرٌ بِالتَّلْبِيسِ فِي خَفَايَا أُمُورِ الصَّلَاةِ؛ فَيَأْتِي المُصَلِّيَ مِنْ قِبَلِ مَا يُحِبُّ وَمَا يَشْتَهِي، أَوْ مِنْ قِبَلِ مَا أَهَمَّهُ مِنْ أَمْرٍ قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي الصَّلَاةِ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ بِقَرِينِ الإِنْسَانِ المُلَازِمِ لَهُ.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَأْسِرُهُ الشَّيْطَانُ؛ فَيَسْتَسْلِمُ لَهُ؛ فَيَأْخُذُ بِفِكْرِهِ عَلَىٰ الدَّوَامِ حَيْثُ يَشَاءُ، حَتَّىٰ لَا يَدَعَ لَهُ حَظًّا مِنْ صَلَاتِهِ؛ فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ عَلَىٰ المِنْبَرِ: «إِنَّ الرَّجُلَ

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ فَضْلِ التَّأْذِينِ: 1/ 125، رقم: (608)، ومسلم، باب إدبار الشيطان إذا سمع النداء وعودته للوسوسة:1/ 291، رقم: (389).

(2) خِنْزَبٌ: بِفَتْحِ الخَاءِ وَكَسْرِهَا وَضَمِّهَا، انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي: 14/ 190.

(3) أخرجه مسلم، بَابُ التَّعَوُّذِ مِنْ شَيْطَانِ الْوَسْوَسَةِ فِي الصَّلَاةِ: 4/ 1728، رقم: (2203).

لَيَشِيبُ عَارِضَاهُ[1] فِي الإِسْلَامِ، وَمَا أَكْمَلَ للهِ تَعَالَىٰ صَلاةً، قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لَا يُتِمُّ خُشُوعَهَا وَتَوَاضُعَهَا»[2].

وإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْتَهِدُ وُسْعَهُ فِي صِرْفِ الفِكْرِ عَنِ الصَّلَاةِ بالكُلِّيَّةِ، فَلَا يَزَالُ بِغَارَاتِ وَسَاوِسِهِ عَلَىٰ فِكْرِ المُصَلِّي، حَتَّىٰ يَسْتَسْلِمَ لَهُ؛ فَيُغْرِقَهُ فِي بُحُورِ أَفْكَارِ الدُّنْيا التِي لَا سَاحِلَ لَهَا، فَإِنْ وَجَدَهُ مُنْتَبِهًا مُتيَقِّظًا؛ أَغَارَ عَلَىٰ أَفْكَارِهِ بِوَسَاوِسِهِ المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ؛ فَيَخْتَلِسُ مِنَ الصَّلَاةِ مَا يَسْتَطِيعُ؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا، قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: «هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ العَبْدِ»[3].

ولِلشَّيْطانِ مَعَ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ أَحْوَالٌ، إِنْ فَاتَهُ حَالٌ؛ طَلَبَ التِي هِيَ أَدْنَىٰ، فَلَا يَمَلُّ الشَّيْطَانُ العَبْدَ مَا دَامَتْ رُوحُهُ فِي بَدَنِهِ؛ «فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ؛ غَارَ الشَّيْطانُ مِنْهُ، فَإِنَّهُ قَدْ قَامَ فِي أَعْظَمِ مَقَامٍ، وَأَقْرَبِهِ، وَأَغْيَظِهِ للشَّيْطَانِ، وَأَشَدِّهِ عَلَيْهِ، فَهُوَ يَحْرِصُ، وَيَجْتَهِدُ

---

(1) عَارِضَاهُ: العَارِضُ مِنَ اللِّحْيَةِ مَا يَنْبُتُ عَلَىٰ عِرْضِ اللَّحَىٰ فَوْقَ الذَّقْنِ. وَقِيلَ عَارِضَا الإِنْسانِ: صَفْحَتَا خَدَّيْهِ، والمَعْنَىٰ تَشِيبُ لِحْيَتُهُ، الفائق في غريب الحديث، للزمخشري: 2/ 422.

(2) قوت القلوب، لأبي طالب المكي: 2/ 170، وإحياء علوم الدين، للغزالي: 1/ 172، وبهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، للحرضي: 2/ 304، وربيع الأبرار ونصوص الأخيار، للزمخشري: 2/ 266، والصلاةُ والتَّهَجُّدُ، لعبد الحق الأشبيلي: 1/ 182.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ: 1/ 150، رقم: (751).

أَنْ لَا يُقِيمَهُ فِيهِ، بَلْ لَا يَزَالُ بِهِ، يَعِدُهُ، وَيُمَنِّيهِ، وَيُنْسِيهِ، وَيُجْلِبُ عَلَيْهِ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ[1]؛ حتَّىٰ يَهُونَ عَلَيْهِ شَأْنُ الصَّلَاةِ؛ فَيَتَهَاوَنُ بِهَا؛ فَيَتْرُكُهَا.

فَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ مِنْهُ، وَعَصَاهُ العَبْدُ، وَقَامَ فِي ذَلِكَ المَقَامِ، أَقْبَلَ عَدُوُّ اللهِ تَعالَىٰ، حتَّىٰ يَخْطُرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، وَيَحُولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ قَلْبِهِ، فَيُذَكِّرُهُ فِي الصَّلَاةِ مَا لَمْ يَذْكُرْ قَبْلَ دُخُولِهِ فِيهَا، حتَّىٰ رُبَّما كَانَ قَدْ نَسِيَ الشَّيْءَ والحَاجَةَ، وأَيِسَ مِنْهَا، فَيُذَكِّرُهُ إِيَّاهَا فِي الصَّلَاةِ؛ لَيَشْغَلَ قَلْبَهُ بِهَا، وَيَأْخُذَهُ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَقُومَ فِيهَا بِلَا قَلْبٍ، فَلَا يَنَالُ مِنْ إِقْبَالِ اللهِ تَعَالَىٰ وَكَرَامَتِهِ وَقُرْبِهِ مَا يَنَالُهُ المُقْبِلُ عَلَىٰ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الحَاضِرُ بِقَلْبِهِ فِي صَلَاتِهِ، فَيَنْصَرِفُ مِنْ صَلَاتِهِ مِثْلَ مَا دَخَلَ فِيهَا بِخَطَايَاهُ وذُنُوبِهِ وَأَثْقَالِهِ، لَمْ تَخِفَّ عَنْهُ بالصَّلَاةِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ إِنَّما تُكَفِّرُ سِيِّئَاتِ مَنْ أَدَّىٰ حَقَّها، وَأَكْمَلَ خُشُوعَهَا، وَوَقَفَ بينَ يَدَيِ اللهِ تَعالَىٰ بِقَلْبِهِ وقَالِبِهِ، وإِنَّما يَقْوَىٰ العَبْدُ عَلَىٰ حُضُورِهِ فِي الصَّلَاةِ واشْتِغَالِهِ فِيها بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ إِذا قَهَرَ شَهْوَتَهُ وَهَواهُ، وَإِلَّا فَقَلْبٌ قَدْ قَهَرَتْهُ الشَّهْوَةُ، وَأَسَرَهُ الهَوَىٰ، وَوَجَدَ الشَّيْطَانُ فِيهِ مَقْعَدًا؛ تَمَكَّنَ فِيهِ، كَيْفَ يَخْلُصُ مِنَ الوَسَاوِسِ والأَفْكَارِ؟»[2].

---

(1) هَذَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ للشَّيْطانِ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: 64]، ومَعْنَىٰ الآيَةِ: اجْمَعْ عَلَيْهِمْ مِنْ رُكْبَانِ جُنْدِكَ ومُشَاتِهِمْ مَنْ يَصِيحُ فِيهِمْ بالدُّعوةِ إِلَىٰ طَاعَتِكَ، والصَّرْفِ عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، «خَيْلُهُ: كُلُّ رَاكِبٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعالَىٰ؛ وَرَجِلُهُ: كُلُّ رَاجِلٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَىٰ»، وَعَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: «إِنَّ لَهُ خَيْلًا ورَجِلًا مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ، وَهُمُ الذِينَ يُطِيعُونَهُ»، انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري: 17/ 492.

(2) انظرِ: الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 21.

وَأَمَّا مَنْ تَنَبَّهَ لِلشَّيْطَانِ، وَصَرَفَ وَسَاوِسَهُ، وَرَدَّ وَارِدَاتَهُ أَوَّلًا فَأَوَّلًا؛ وَخَشَعَ فِي صَلَاتِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَضْعُفُ عَنْ مُنَازَلَتِهِ وَمُغَالَبَتِهِ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يَيْأَسَ مِنْهُ؛ قَالَ سَهْلٌ: «مَنْ خَشَعَ قَلْبُهُ؛ لَمْ يَقْرَبْ مِنْهُ الشَّيْطَانُ»[1]. وَهَذَا الصِّنْفُ مِنَ العِبَادِ الأَقْوِياءِ تَعَبَّدُوا اللهَ تَعَالَىٰ بِمُنَازَلَةِ الشَّيْطَانِ وَمُغَالَبَتِهِ؛ كَمَا تَعَبَّدُوا بِصَلاتِهِمْ، وَهَؤُلاءِ هُمْ صَفْوَةُ الخَلْقِ مِنَ النَّاسِ، وَهُمُ الصِّدِّيقونَ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قَالَ ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ «فَمَنْ تَعَبَّدَ اللهَ بِمُرَاغَمَةِ[2] عَدُوِّهِ[3]، فَقَدْ أَخَذَ مِنَ الصِّدِّيقِيَّةِ بِسَهْمٍ وَافِرٍ»[4]. وَهُمْ فِي النَّاسِ قِلَّةٌ.

تَاسِعًا: مَرَاتِبُ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ وأحوالُهُمْ

لا شَكَّ أَنَّ العُبَّادَ مُتفاوتونَ فِي صَلاتِهِمْ أَشَدَّ التَّفاوُتِ، وهُمْ علَىٰ مَراتِبَ بحسبِ مَنازِلِهِم ودَرَجاتِهِمْ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وتَعالَىٰ، وقَدْ ذَكَرَ ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ خَمْسَ مَرَاتِبَ للصَّلاةِ، يَنْقَسِمُ النَّاسُ تَحْتَهَا، ويَتَفَاوَتُونَ فِي كُلِّ قِسْمٍ بِمَا لا يُحْصَىٰ؛ فقالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ: «والنَّاسُ فِي الصَّلاةِ علَىٰ مَرَاتِبَ خَمْسَةٍ:

* **الأَوَّلُ**: مَرْتَبَةُ الظالِمِ لنفسِهِ المُفَرِّطِ، وهُوَ الذِي انْتَقَصَ مِنْ وُضوئِهَا ومَواقيتِها وحُدودِها وأَرْكانِها.

* **الثانِي**: مَنْ يحافظُ علَىٰ مَواقِيتِها وحُدودِها وأَرْكانِها الظَّاهِرَةِ ووضوئِها، لكنْ قدْ ضَيَّعَ مُجاهدَةَ نفسِهِ فِي الوَسْوَسَةِ؛ فَذَهَبَ مَعَ الوَساوِسِ والأَفْكارِ.

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 517.

(2) مُرَاغَمَةُ: مُنَابَذَةٌ ومُغَالَبَةٌ ومُنَازَلَةٌ ومُدَافَعَةٌ، انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: 2/ 781.

(3) يَعْنِي: الشَّيْطَانَ.

(4) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 341.

* **الثالِثُ**: مَنْ حَافظَ علىٰ حُدودِها وأَرْكانِها، وجَاهَدَ نَفْسَهُ فِي دَفْعِ الوساوِسِ والأفكارِ، فَهُوَ مشغولٌ بِمُجاهَدَةِ عَدُوِّهِ؛ لِئَلَّا يَسْرِقَ صَلاتَهُ؛ فَهُوَ فِي صَلاةٍ وجِهادٍ.

* **الرابِعُ**: مَنْ إذا قامَ إِلىٰ الصَّلاةِ؛ أَكْمَلَ حُقوقَها وأَرْكانَها وحدودَها، واستغْرَقَ قلبُهُ مَراعَاةَ حُدودِهَا وحقوقِها؛ لِئَلَّا يُضَيِّعَ شيئًا منها، بل هَمُّهُ كُلُّهُ مَصْرُوفٌ إِلَىٰ إقامَتِها كَما يَنْبَغِي، وإِكْمالِها وإِتْمامِهَا، قَدِ استغرقَ قلبُهَ شَأْنَ الصَّلاةِ وعبودِيَّةَ رَبِّهِ تباركَ وتعالَىٰ فيها.

* **الخامِسُ**: مَنْ إِذَا قامَ إِلَىٰ الصلاةِ قامَ إليها كَذَلِكَ[1]، ولكنْ مَعَ هَذَا قَدْ أَخذَ قَلْبَهُ، وَوَضَعَهُ بينَ يَدَيْ ربِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، نَاظِرًا بِقَلْبِهِ إِلَيْهِ، مُراقِبًا لَهُ، مُمْتَلِئًا مِنْ مَحَبَّتِهِ وعَظَمَتِهِ، كأَنَّهُ يراهُ ويَشاهِدُهُ، قَدِ اضْمَحَلَّتْ[2] تِلْكَ الوَسَاوِسُ والخَطَرَاتُ، وارْتَفَعَتْ حُجُبُهَا بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فهذَا بينَهُ وبينَ غَيْرِهِ فِي الصَّلَاةِ أَفْضَلُ وأَعْظَمُ مِمَّا بينَ السَّماءِ والأَرْضِ، وهذَا فِي صَلَاتِهِ مَشْغُولٌ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَريرُ العَيْنِ بِهِ.

فالقِسْمُ الأَوَّلُ مُعاقَبٌ، والثَّانِي مُحاسَبٌ، والثَّالثُ مُكَفَّرٌ عَنْهُ، والرَّابعُ مُثابٌ، والخَامِسُ مُقَرَّبٌ مِنْ رَبِّه؛ لِأَنَّ لَهُ نَصِيبًا مِمَّنْ جُعِلَتْ قُرَّةُ عينِهِ فِي الصَّلاةِ، فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِصَلاتِهِ فِي الدُّنْيا؛ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِقُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الآخِرَةِ، وقَرَّتْ عينُهُ أيضًا به فِي الدُّنْيا، وَمَنْ قَرَّتْ عينُهُ باللهِ تعالىٰ؛ قرَّتْ بهِ كلُّ عَيْنٍ، ومَنْ لَمْ تَقَرَّ عينُهُ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ تَقَطَّعَتْ نفسُهُ علىٰ الدُّنْيا حَسَراتٍ»[3].

---

(1) يَعْنِي: مِثْلَ الذِي قَبْلَهُ صَاحِبِ المَرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ.

(2) اضْمَحَلَّتْ: ذهبتْ وتلاشتْ، انظر: جَمْهَرَةَ اللُّغَةِ، لابن دريد: 2/ 1142.

(3) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 24.

فَهَذَا القِسْمُ الخَامِسُ هُوَ المُحِبُّ الكامِلُ المَحَبَّةِ، وصلاتُهُ هِيَ صلاةُ المُحِبِّينَ الصَّادقينَ الخَاشِعِينَ، فلَيَسَتْ بِشَيْءٍ تِلْكَ التِي لا يَخْشَعُ فيها قلبُ العبدِ، ويسكُنُ إلىٰ رَبِّهِ تعالىٰ، فَخُشُوعُ القَلْبِ هوَ الذِي عليهِ المُعَوَّلُ، لَا عَلَىٰ حَرَكَاتِ الرُّؤُوسِ، وانْحِنَاءِ الأَعْضَاءِ، وتَمايُلِ الأبْدانِ.

والعَبْدُ كُلُّ العَبْدِ هُوَ الذِي يُجَاهِدُ نَفْسَهُ فِي تَحْصِيلِ مَرَاتِبِها، وَيُفْنِي حَيَاتَهُ عَلَىٰ إِصْلَاحِهَا، وَلَئِنْ كَانَ كَذَلِكَ؛ فَلَا يَضُرُّهُ مَتَىٰ يَأْتِيهِ مَلَكُ المَوْتِ مَا دَامَ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ للهِ تَعَالَىٰ؛ فَلَئِنْ سَأَلَهُ رَبُّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ عَنْ صَلَاتِهِ، يُرْجَىٰ أَنْ يُوَفَّقَ للإِجَابَةِ، وَيَقُولَ: يَا رَبُّ، أَفْنَيْتُ حَيَاتِي أَجُاهِدُ نَفْسِي فِي تَحْصِيلِ الخُشُوعِ الذِي تُحِبُّ، ولَمْ أَرْتَضِهَا لَكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَعِشْتُ وَمِتُّ فِي جِهَادِهَا فِيكَ يَا رَبُّ، فَلَئِنْ فَاتَنِي تَحْصِيلُ كَمَالِ الخُشُوعِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَفُتْنِي أَنْ أُجَاهِدَ نَفْسِي فِيكَ، وَقَدْ بَلَغَنَا عَنِ السَّادَةِ العُلَمَاءِ، المُبَلِّغينَ عَنْكَ وعَنْ نَبِيِّكَ ﷺ أَنَّهُ: «مَنْ جَاهَدَ شَيْطَانَهُ ونَفْسَهُ؛ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»[1]. وَهَذِهِ نَفْسِي المُقَصِّرَةُ بَيْنَ يَدَيْكَ؛ وأَنَا مَعَكَ يَا سَيِّدِي عَلَيْهَا، وَأَنْتَ رَبُّهَا وَمَوْلَاها، والعَفْوُ مِنْكَ مَأْمُولٌ، والكَرَمُ مِنْكَ بالقَبُولِ مَرْجُوٌّ، والفَقِيرُ مَعْذُورٌ بِفَقْرِهِ، والكَرِيمُ يَتَفَضَّلُ بِجُودِهِ، وَأَنْتَ حَسْبِي وَنِعْمَ الوَكِيلُ.

والخَطَرُ كُلُّ الخطَرِ أَنْ يُهْمِلَ العَبْدُ صَلاتَهُ، وَأَنْ يَغْفُلَ عَنْهَا، وَلَا يُجَاهِدَ نَفْسَهُ فِيهَا، فَيَقْضِيَ حَيَاتَهُ، وَصَلاتُهُ كُلُّهَا غَفْلَةٌ وَنُقْصانٌ؛ فَبِأَيِّ لِسَانٍ يُجِيبُ هَذَا مَوْلَاهُ؟ وَأَيُّ حُجَّةٍ تَقُومُ لَهُ عِنْدَ السُّؤَالِ؟!

---

(1) نَقَلَهُ ابنُ بَطَّالٍ، انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بَطَّالٍ: 2/ 365.

عَاشِرًا: الالْتِفَاتُ فِي الصَّلَاةِ

لَقَدْ نُهِيَ العَبْدُ عَنِ الالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ، وَإِنَّهُ لَيَنْقُصُ مِنْ صَلَاتِهِ بِقَدْرِ الْتِفَاتِهِ، فَإِذَا مَا كَثُرَ الْتِفَاتُهُ؛ بَطَلَتْ صَلَاتُهُ، والالْتِفَاتُ فِي الصَّلَاةِ الْتِفَاتَانِ: الْتِفَاتُ بَصَرِ العَيْنِ عَنِ القِبْلَةِ، والْتِفَاتُ بَصَرِ القَلْبِ -وَهُوَ الفِكْرُ- عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، والصَّلَاةُ الكَامِلَةُ، هِيَ التِي يَسْتَقْبِلُ فِيهَا العَبْدُ القِبْلَةَ بِبَصَرِهِ وَبَدَنِهِ كُلِّهِ، وَيَسْتَقْبِلُ فِيها رَبَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ بِقَلْبِهِ كُلِّهِ، فَلَا يَلْتَفِتُ العَبْدُ فِيهَا ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا، إِلَىٰ غَيْرِ مَنْ هُوَ مُنَاجٍ لَهُ، قَالَ ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «وَقَوْلُهُ فِي الحَدِيثِ: «وَآمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا»[1]. الالْتِفَاتُ المَنْهِيُّ عَنْهُ فِي الصَّلَاةِ قِسْمَانِ: أَحَدُهُمَا: الْتِفَاتُ القَلْبِ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، والثَّانِي: الْتِفَاتُ البَصَرِ، وَكِلَاهُمَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ. وَلَا يَزَالُ اللهُ تَعَالَىٰ مُقْبِلًا عَلَىٰ عَبْدِهِ؛ مَا دَامَ العَبْدُ مُقْبِلًا عَلَىٰ صَلَاتِهِ، فَإِذَا الْتَفَتَ بِقَلْبِهِ أَوْ بَصَرِهِ؛ أَعْرَضَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ»[2]. أَلَا وَإِنَّ الْتِفَاتَ القَلْبِ أَشَقُّ وأَدَقُّ، إِذِ تَفْرِيغُ القَلْبِ للرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ المَطْلُوبُ، والمُجَاهَدَةُ فِي عَدَمِ الْتِفَاتِهِ أَجْدَرُ وأَهَمُّ.

قالَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصرٍ المَرْوَزِيُّ: «فَالْمُصَلِّي كَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْهَا، إِذَا كَانَ بِجَمِيعِ قَلْبِهِ وَجَمِيعِ بَدَنِهِ فِي الصَّلَاةِ، فَكَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا أَنَّ ثِقَلَ بَدَنِهِ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُنَاجِي الْمَلِكَ الْأَكْبَرَ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْلِطَ مُنَاجَاةَ الْإِلَهِ الْعَظِيمِ بِغَيْرِهَا، وَكَيْفَ يَفْعَلُ ذَلِكَ؛ وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ اللهَ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ لِمَنْ صَدَّقَ بِأَنَّ اللهَ

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه: 28/ 404، رقم: (17170)، وَصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

(2) انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 20.

تَعَالَىٰ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ أَنْ يَلْتَفِتَ، أَوْ يَغِيبَ، أَوْ يَتَفَكَّرَ، أَوْ يَتَحَرَّكَ بِغَيْرِ مَا يُحِبُّ الْمُقْبِلُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ؛ لِأَنَّ اشْتِغَالَهُ فِي صَلَاتِهِ بِغَيْرِهَا مِنَ الِالْتِفَاتِ، أَوِ الْعَبَثِ، أَوِ التَّفَكُّرِ فِي شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا هُوَ إِعْرَاضٌ عَمَّنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، وعَنْ أَنَسٍ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّهُ مُنَاجٍ رَبَّهُ، وَرَبُّهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ»[1][2].

وعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ؛ فَقُمْ قَانِتًا كَمَا أَمَرَكَ اللهُ، وَإِيَّاكَ وَالسَّهْوَ وَالِالْتِفَاتَ، أَنْ يَنْظُرَ اللهُ إِلَيْكَ وَتَنْظُرَ إِلَىٰ غَيْرِهِ، تَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ الْجَنَّةَ، وَتَعَوَّذُ بِهِ مِنَ النَّارِ، وَقَلْبُكَ سَاهٍ، وَلَا تَدْرِي مَا تَقُولُ بِلِسَانِكَ»[3].

وعن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ ﵁: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ اللهُ ﷿ مُقْبِلًا عَلَىٰ الْعَبْدِ؛ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ، مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا الْتَفَتَ؛ انْصَرَفَ عَنْهُ»[4].

وعَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ ﵁ يَقُولُ: «إِذَا صَلَّىٰ أَحَدُكُمْ فَلَا يَلْتَفِتْ؛ إِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ، إِنَّ رَبَّهُ أَمَامَهُ، وَإِنَّهُ يُنَاجِيهِ» قَالَ: «وَبَلَغَنَا أَنَّ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِلَىٰ مَنْ تَلْتَفِتُ؟ أَنَا خَيْرٌ لَكَ مِمَّنْ تَلْتَفِتُ إِلَيْهِ»[5].

---

(1) أخرجه البخاري، بَابُ حَكِّ البُزَاقِ بِاليَدِ مِنَ المَسْجِدِ: 1/ 159، رقم: (397).

(2) تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِيِّ: 1/ 172.

(3) تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِيِّ: 1/ 189.

(4) أخرجه أبو داود، بَابُ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ: 2/ 177، رقم: (164)، وَصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

(5) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه، بَابُ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ: 2/ 256، رقم: (3270)، وقال ابن رجب: «خرجه البزار موقوفًا، ومرفوعًا، والموقوف أصح».

فالمُصَلِّي يُطالِعُ مَا أَخبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُم بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ، فَلَا تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ»(1) فكيفَ يَلْتَفِتُ العَبْدُ عَنِ اللهِ تعالَىٰ بِقَلْبِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ربَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ مُقْبِلٌ عليهِ؟! «فَإِذَا تَلا العَبْدُ كَلامَ رَبِّهِ تَبارَكَ وتعالَىٰ؛ كانَ إِقْبالُهُ علَىٰ مَعْرِفَتِهِ فِي كَلامِهِ كَأَنَّهُ يراهُ ويُشاهِدُهُ فِي كَلامِهِ، كَمَا قالَ بَعْضُ السَّلَفِ(2): «لقَدْ تَجَلَّىٰ اللهُ تعالىٰ لِعِبادِهِ فِي كَلَامِهِ»، فَهُوَ فِي حالِ التِّلاوَةِ والصَّلَاةِ يكونُ مُقبِلًا عَلَىٰ ذاتِهِ وأَسْمائِهِ وصِفَاتِهِ وأَفعالِهِ وأَمْرِهِ ونَهْيِهِ وأَحْكامِهِ»(3).

«فَإِذَا أَخذَ العَبْدُ للهِ تعالَىٰ فِي قِراءَةِ القرآنِ؛ فقدْ قامَ فِي مَقَامِ مُخاطَبَةِ رَبِّهِ ﷻ ومُناجاتِهِ؛ فَيَحْذَرُ كُلَّ الحَذَرِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِمَقْتِهِ وسَخَطِهِ، بِأَنْ يُناجِيَهُ ويُخاطِبَهُ، وقَلْبُهُ مُعْرِضٌ عَنْهُ، مُلْتَفِتٌ، إِلَىٰ غيرِهِ، فَإِنَّهُ يَسْتَدْعِي بذلِكَ مَقْتَهُ، ويكونُ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ قَرَّبَهُ مَلِكٌ مِنْ مُلوكِ الدُّنْيا، وأَقَامَهُ بينَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يُخاطِبُ المَلِكَ، وَقَدْ وَلَّاهُ قَفاهُ، أَوِ الْتَفَتَ عَنْهُ بِوَجْهِهِ يَمنَةً ويَسْرَةً، فَهُوَ لا يَفْهَمُ مَا يقولُ المَلِكُ، فَمَا الظَّنُّ بِمَقْتِ المَلِكِ لِهَذَا، فَإِذَا كانَ هَذا لَا يليقُ بِمُلوكِ الأَرْضِ؛ فَما الظَّنُّ بِمَقْتِ المَلِكِ الحَقِّ المُبينِ رَبِّ العالمينَ وقَيُّومِ السماواتِ والأَرَضينَ؟!»(4).

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، بَابُ مَا جَاءَ فِي مَثَلِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ: 5/ 148، رقم: (2863)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(2) القَائِلُ هُوَ جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ رضي الله عنه، وتَمَامُ قَولِهِ: «واللهِ لَقَدْ تَجَلَّىٰ اللهُ تَعَالىٰ لِخَلْقِهِ فِي كَلَامِهِ؛ ولَكِنْ لا يُبْصِرُونَ»، انظر: حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي، لشهاب الدين الحنفي: 2/ 29.

(3) انظر: أسرار الصلاة، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 3.

(4) انظر: أسرار الصلاة، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 1.

الفَصْلُ الرَّابِعُ
أَسْبَابُ الخُشُوعِ ومَشَاهِدُ الصَّلاةِ القَلْبِيَّةِ، ومَشَاهِدُ مِنَ الخَاشِعِينَ

أوَّلًا: أَسْبَابُ الخُشُوعِ

مِنَ المُتَّفَقِ عَلَيْهِ عِنْدَ العُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلَفًا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمْ يَأْمُرْ بِأَمْرٍ، إِلَّا وَقَدْ أَقْدَرَ العِبَادَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِمَا هُوَ فَوْقَ طَاقَةِ البَشَرِ، فَلَمْ يُكَلِّفِ اللهُ تَعَالَىٰ النُّفُوسَ فَوْقَ طَاقَتِهَا، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1]، فَلَمْ يُرِدِ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يُشْقِيَ عِبَادَهُ، وَلَا أَنْ يُعَنِّتَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تعالَىٰ: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾[2]، إِنَّما شَرَعَ اللهُ تَعَالَىٰ التَّكَالِيفَ الشَّرْعِيَّةَ؛ أَسْبابًا لِبُلوغِ ثَوابِهِ وكَرَامَتِهِ، ولِيَكْتُبَ لَهُمْ بِهَا السَّعَادَةَ.

وَحَتَّىٰ يَكُونَ الدِّينُ بيِّنًا والمَحَجَّةُ[3] بَيْضَاءَ؛ فَصَّلَ لَهُمْ أَحْكَامَهَا، وَنَصَبَ الأَسْبَابَ الدَّالَّةَ عَلَيْهَا، وَبَيَّنَ المَوَانِعَ والعَوَائِقَ التِي تَحُولُ دُونَ بُلُوغِهَا، وامْتَحَنَ النَّاسَ بِهَا، فَمَنْ سَلَكَ الأَسْبَابَ الدَّالَّةَ عَلَيْهَا، وَتَجَنَّبَ المَوانِعَ والعَوائِقَ؛ فَمَا أَسْهَلَ تِلْكَ التَّكَالِيفَ! ومَا أَيْسَرَهَا! وَمَا أَسْرَعَ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ مُرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ! وَسَتَكُونُ عَوْدَتُهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ حَمِيدَةً، وَسَيَكُونُ مَصِيرُهُ خَيْرَ مَصِيرٍ، ومَنْ لَمْ يَسْلُكْ تِلْكَ الأَسْبَابَ، ولَمْ يَتَجَنَّبِ المَوَانِعَ

---

(1) البقرة: 286.

(2) طه: 2.

(3) المَحَجَّةُ: الطريق الواضحة المستقيمة، انظر: الفروق اللغوية، للعسكري: 1/ 70.

والعَوَائِقَ؛ فَسَيَتَعَثَّرُ وَيَعُوقُ، ورُبَّمَا يَعْجزُ عَنْ بُلُوغِ مُرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلَنْ يَظْفَرَ بالفَوْزِ والفَلَاحِ، وَلَنْ تَكُونَ عَوْدَتُهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ حَمِيدَةً، وَسَيَكُونُ مَصِيرُهُ شَرَّ مَصِيرٍ.

وَإِنَّ الصَّلَاةَ التِي هِيَ رَأْسُ العِبَادَاتِ، والتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا عَوْدَتُهُ وتَقْرِيرُ مَصِيرِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِتَحْقِيقِ الخُشُوعِ فِيهَا -والذِي هُوَ سَبَبُ قَبُولِهَا- أَسْبَابٌ؛ وَإِنَّنَا هُنَا اجْتَهَدْنَا فِي ذِكْرِ هَذِهِ الأَسْبَابِ، وَهِيَ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ: عِلْمٍ وَعَمَلٍ:

السَّبَبُ الأَوَّلُ: العِلْمُ

أَمَّا السَّبَبُ الأَوَّلُ: فهُوَ العِلْمُ؛ وهُوَ أنْ يَعْلَمَ العَبْدُ أنَّ الصَّلاةَ التِي للعَبْدِ عَلَيْهَا ضَمَانٌ بالفَلَاحِ والنَّجَاحِ والقَبُولِ والثَّوَابِ والكَرَامَةِ فِي الآخِرَةِ، وانْشِرَاحِ الصَّدْرِ وَقُرَّةِ العَيْنِ فِي الدُّنْيَا هِيَ الصَّلاةُ التِي يَحْضُرُ فِيهَا القَلْبُ، ويَتَحَقَّقُ فِيهَا الخُشُوعُ، وَأَنَّ الصَّلَاةَ التِي لَا يَحْضُرُ فِيهَا القَلْبُ، وَلَا يَتَحَقَّقُ فِيهَا الخُشُوعُ؛ فَهِيَ صَلَاةٌ قَلِيلَةُ النَّفْعِ أَوْ مَعْدُومَتُهُ، وَلَا يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهَا الثَّوَابَ، فإِنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ، وَأَنَّ مَصِيرَ العَبْدِ فِي آخِرَتِهِ، وَعَوْدَتَهُ إِلَىٰ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِنَّمَا يَتَحَدَّدُ بالخُشُوعِ فِي صَلَاتِهِ، فَمَنْ خَشَعَ فِي صَلَاتِهِ؛ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَكَانَتْ عَوْدَتُهُ حَمِيدَةً، وَمَنْ لَمْ يَخْشَعْ فِيهَا؛ لَمْ تُحْمَدْ عَوْدَتُهُ، وَمَآلُهُ عَلَىٰ خَطَرٍ؛ لَا يَدْرِي مَا اللهُ تَعَالَىٰ صَانِعٌ فِيهِ.

فَإِذَا تَحَقَّقَ للعَبْدِ هَذَا العِلْمُ؛ أَخَذَهُ مِنَ الخَشْيَةِ والفَزَعِ، مَا يَدْفَعُهُ للبَحْثِ عَنِ الأَسْبَابِ التِي يَتَحَقَّقُ لَهُ بِهَا الخُشُوعُ بَحْثَ المُنْقَطِعِ فِي الصَّحْرَاءِ، الذِي انْفَلَتَتْ مِنْهُ دَابَّتُهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ؛ فَهُوَ إِنْ وَجدَهَا نَجَا وَوَصَلَ بِسَلامٍ؛ وَإِنْ أَضَلَّهَا،

ولَمْ يَجِدْهَا؛ هَلَكَ، أَوْ أَوْشَكَ، ثُمَّ بَعْدَ مَعْرِفَةِ هَذِهِ الأَسْبَابِ سَارَعَ إِلَىٰ العَمَلِ بِهَا، وَجَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَىٰ تَحْقِيقِهَا بِكُلِّ حِيلَةٍ وَوَسِيلَةٍ.

السَّبَبُ الثَّانِي: العَمَلُ

وَأَمَّا السَّبَبُ الثَّانِي: وَهُوَ العَمَلُ، وَهُوَ فَرْعٌ عَنِ العِلْمِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ أَهَمَّهُ أَمْرُ الخُشُوعِ فِي صَلَاتِهِ، وَأَدْرَكَ حَاجَتَهُ لَهُ، وَعَلِمَ أَنَّهُ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَنَفَسِهِ؛ دَفَعَهُ ذَلِكَ للعَمَلِ بِأَسْبَابِ الخُشُوعِ؛ طَلَبًا لِتَحْقِيقِهِ دَفْعًا. وَإِنَّنَا اجْتَهَدْنَا هُنَا فِي اسْتِجْمَاعِ جُمْلَةٍ مِنَ الأَسْبَابِ، الَّتِي مَتَىٰ عَالَجَهَا العَبْدُ؛ تَحَقَّقَ لَهُ الخُشُوعُ الأَكِيدُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَمَتَىٰ أَهْمَلَهَا، وَتَرَكَ العَمَلَ بِهَا؛ فَاتَهُ مِنَ الخُشُوعِ بِقَدْرِ مَا يَفُوتُهُ مِنْهَا:

الأَوَّلُ: الدُّعَاءُ والاسْتِعَانَةُ باللّهِ تَعَالَى

وَذَلِكَ لِعِلْمِ العَبْدِ أَنَّ الأَشْياءَ كُلَّها مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، وأَنَّ الأَسْبَابَ مِنْهُ، فَمَنْ شَاءَ أَنْ يُوَفِّقَهُ؛ وَفَّقَهُ، ومَنْ شَاءَ أَنْ يَخْذُلَهُ؛ خَذَلَهُ، فَالمُوَفَّقُ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، والمَخْذُولُ مَنْ خُذِلَ!!! وَأَنَّ الهِدَايَةَ والتَّوْفِيقَ للخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ لَا يَكُونُ إِلَّا باللهِ تَعَالَىٰ، قَالَ ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «فِي العَبْدِ ضَرُورَةٌ كامِلَةٌ إِلَىٰ رَبِّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ، فَإِنْ تَخَلَّىٰ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ هَلَكَ، وَخَسِرَ خَسَارَةً لَا تُجْبَرُ، إِلَّا أَنْ يَعُودَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، وَيَتَدَارَكَهُ بِرَحْمَتِهِ»[1]، «وَهَكَذَا حَالُ الْعَبْدِ مُلْقًىٰ بَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ، مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَإِنْ حَمَاهُ مِنْهُمْ

---

(1) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 8.

وَكَفَّهُمْ عَنْهُ؛ لَمْ يَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَإِنْ تَخَلَّىٰ عَنْهُ، وَوَكَلَهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ لَمْ يَنْقَسِمْ عَلَيْهِمْ، بَلْ هُوَ نَصِيبُ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ»[1][2].

وإِنَّ الأَمْرَ كَمَا قَالَ المُتَنَبِّي:

إِذَا كانَ عَوْنُ اللهِ للمَرْءِ شَامِلًا *** تَهَيَّأَ لَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُرَادُهُ

وإِنْ لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلفَتَىٰ *** فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهادُهُ[3]

وَمِنْ هُنَا يُدْرِكُ مَعْنَىٰ فَرْضِ قِرَاءَةِ الفَاتِحَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، وَطَلَبِ الاسْتِعَانَةِ بِهِ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، بِقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4].

فَانْظُرْ تَقْدِيمَ ضَمِيرِ النَّصْبِ: ﴿إِيَّاكَ﴾ عَلَىٰ فِعْلِهِ؛ فَإِنَّ تَقْدِيمَ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ يُفِيدُ التَّخْصِيصَ؛ فَيَكُونُ المَعْنَىٰ، لَا نَعْبُدُ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا نَسْتَعِينُ عَلَىٰ عِبَادَتِكَ إِلَّا بِكَ؛ فَلَا بُلُوغَ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَّا بِاللهِ ﷻ، فَيَسْتَعِينُ العَبْدُ بِاللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادَتِهِ.

---

(1) مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: (لَمْ يَنْقَسِمْ عَلَيْهِم، بَلْ هُوَ نَصِيبُ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ)، أَيْ: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يَظْفَرُ بِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، سَيُهْلِكُهُ، تَمَامًا كالفَرِيسَةِ إِذَا وَقَعَتْ بينَ يَدَيْ سَبُعٍ ضَارٍّ؛ فَإِنَّهُ لَا يُمْهِلُهَا حَتَّىٰ يَأْتِيَ غَيْرُهُ يُقَاسِمُهُ فِيها؛ بَلْ يَفْتَرِسُهَا أَوَّلَ مَا تَقَعُ لَهُ، وَلَا يَتْرُكُ غَيْرَهُ يُقَاسِمُهُ فِيهَا.

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 426.

(3) الكشكول، لمحمد بن حسين الهمذاني: 2/ 133.

(4) الفاتحة: 5.

وَيُدْرِكُ مَعْنَىٰ وَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لِمَنْ يُحِبُّ؛ فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمًا، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ، إِنِّي لَأُحِبُّكَ»[1]. فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَنَا أُحِبُّكَ. قَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»، قَالَ: وَأَوْصَىٰ بِذَلِكَ مُعَاذٌ: الصُّنَابِحِيَّ، وَأَوْصَىٰ الصُّنَابِحِيُّ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَوْصَىٰ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: عُقْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ[2].

انْظُرِ اقْتِرَانَ هَذِهِ الوَصِيَّةِ بالمَحَبَّةِ، فَلَمْ يَجِدْ ﷺ أَنْفَعَ مِنْهَا لِمَنْ يُحِبُّ؛ ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ كَانَ الرُّوَاةُ والعُلَمَاءُ يُوصِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِمَا أَوْصَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُعَاذًا، تَعْلَمْ عَظَمَةَ هَذَا الدُّعَاءِ، وَجَلِيلَ نَفْعِهِ، قَالَ ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «النَّاسُ فِي أَصْلَي الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ علىٰ أَقْسَامٍ، أَجَلُّهَا وَأَفْضَلُهَا: أَهْلُ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ عَلَيْهَا، فَعِبَادَةُ اللهِ غَايَةُ مُرَادِهِمْ، وَطَلَبُهُمْ مِنْهُ أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَيْهَا، وَيُوَفِّقَهُمْ لِلْقِيَامِ بِهَا؛ وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَفْضَلِ مَا يُسْأَلُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْإِعَانَةُ عَلَىٰ مَرْضَاتِهِ، وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِحِبِّهِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه. فَأَنْفَعُ الدُّعَاءِ طَلَبُ الْعَوْنِ عَلَىٰ مَرْضَاتِهِ، وَأَفْضَلُ الْمَوَاهِبِ إِسْعَافُهُ بِهَذَا الْمَطْلُوبِ. وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: تَأَمَّلْتُ

---

(1) ولفظ أبي داود: قَالَ: «يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، انظر: سنن أبي داود، بَابٌ فِي الِاسْتِغْفَارِ: 2/ 86، رقم: (1522).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: 36/ 430، رقم: (22119)، وأبو داود، بَابٌ فِي الِاسْتِغْفَارِ: 2/ 86، رقم: (1522)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

أَنْفَعَ الدُّعَاءِ فَإِذَا هُوَ سُؤَالُ الْعَوْنِ عَلَىٰ مَرْضَاتِهِ»[1]، «وكَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ وَهُوَ مَحْبُوسٌ: (اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ) مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ»[2].

فَإِذَا عَلِمَ العَبدُ هَذَا فَسَيُطْمِعُهُ هَذَا فِي أَنْ يَدْعُوَ، ويُلِحَّ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، وَفِي كُلِّ مَوْطِنِ إِجَابَةٍ: فِي السُّجُودِ، وَفِي السَّحَرِ، وَعَقِبَ الأَذَانِ، وَبَيْنَ الأَذَانِ والإِقَامَةِ، وَعِنْدَ فِطْرِه...: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، (اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)، يُحْضِرُ قَلْبَهُ مَعْنَىٰ الدُّعَاءِ، وَيُصَرِّحُ فِي دُعَائِهِ؛ أَنْ يُعِينَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الخُشُوعِ فِي صَلَاتِهِ، وَأَنْ يُصْلِحَهَا لَهُ، وَيَجْعَلَ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِيهَا.

وَإِذَا كانَ العَبْدُ قَدْ بَنَىٰ سُلُوكَهَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ هَذَيْنِ الأَصْلَيْنِ: الاسْتِعَانَةِ والدُّعَاءِ، «مَا أَسْرَعَ مَا يُنْعِشُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَجْبُرُهُ، وَيَتَدَارَكُهُ بِرَحْمَتِهِ»[3]؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُ نَبِيُّهُ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ؛ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ؛ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»[4]. وَفِي رِوَايَةٍ لِلطَّبَرَانِيِّ: «صِفْرًا لَيْسَ فِيهِمَا شَيْءٌ»[5].

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 100.

(2) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 48.

(3) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 426.

(4) أخرجه الترمذي في سننه، بَابٌ فِي فَضْلِ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَمَا ذُكِرَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ: 5/ 556، رقم: (3556)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(5) أخرجه الطبراني في الدعاء، بَابُ مَا جَاءَ فِي رَفْعِ الْيَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ: 1/ 84، رقم: (204)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

الثَّانِي: مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ فِي تَحْقِيقِ الخُشُوعِ

إِنَّهُ لَا يَتَحَقَّقُ للعَبْدِ مَا يُرِيدُ مِنْ خُشُوعِ قَلْبِهِ فِي صَلَاتِهِ وإِصْلَاحِ أَعْمَالِهِ وَعِبَادَاتِهِ كُلِّهَا، إِلَّا بِدَوَامِ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ تَمِيلُ إِلَىٰ الرَّاحَةِ، وَتَنْفِرُ مِنَ المَشَقَّةِ، وَإِنَّ فِيها خِفَّةً بَيِّنَةً؛ فَهِيَ تَسْتَجِيبُ لِكُلِّ خاطِرٍ لَذِيذٍ، وَتَسْتَغْرِقُ فِيهِ، حتَّىٰ لَوْ كَانَ فِيهِ مَضَرَّتُها. وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِمُجَاهَدَتِها وَأَخْذِهَا بِالعَزِيمَةِ، وَلَجْمِهَا[1] إِذَا اسْتَعْصَتْ، وَعَدَمُ إِرْسَالِ الحَبْلِ لَهَا.

وأَوَّلُ المُجَاهَدَةِ مَعْرِفَةُ النَّفْسِ وَطَبَائِعِهَا، وَأَنَّ كُلَّ غَفْلَةٍ يَغْفَلُهَا العَبْدُ عَنْ صَلَاتِهِ، إِنَّمَا هُوَ مِنَ النَّفْسِ وصِفَاتِهَا، ثُمَّ يَأْخُذُ بِتَحْدِيدِ صِفَاتِ نَقْصِهَا وَعَيْبِهَا، والمَنَافِذِ التِي يَتَسَلَّلُ مِنْهَا الشَّيْطَانُ إِلَىٰ فِكْرِهِ فِي صَلَاتِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِعِلَاجِهَا، وَتَرْوِيضِهَا، وَحَمْلِهَا عَلَىٰ الخُشُوعِ حَمْلًا، وَقَدْ وَعَدَ اللهُ تَعَالَىٰ مَنْ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ فِيهِ، أَنْ يَهْدِيَهُ السَّبِيلَ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

قَالَ البَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ: «الْمُجَاهَدَةُ هِيَ الصَّبْرُ عَلَىٰ الطَّاعَاتِ. قَالَ الْحَسَنُ: أَفْضَلُ الْجِهَادِ مُخَالَفَةُ الْهَوَىٰ. وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي إِقَامَةِ السُّنَّةِ؛ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ الْجَنَّةِ. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي طَاعَتِنَا؛ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ ثَوَابِنَا»[3].

---

(1) اللِّجَامُ: أَدَاةٌ مِنْ حَدِيدٍ ونَحْوِهِ تُوْضَعُ فِي فَمِ الدَّابَّةِ، وَلَها سُيُورٌ تُمَكِّنُ الرَّاكِبَ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا، انظر: معجم لغة الفقهاء، لقلعجي، وقنيبي: 1/ 389.

(2) العنكبوت: 69.

(3) معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي: 3/ 568.

فَإِذَا جَاهَدَ العَبْدُ نَفْسَهُ فِي تَحْقِيقِ الخُشُوعِ؛ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ سَبِيلِ الخُشُوعِ وَلا بُدَّ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقُ الخُشُوعُ بالأَمَانِيِّ، يَقُولُ: أَتَمَنَّىٰ أَنْ أَكُونَ خَاشِعًا، أَوْ أَنْ يَرْزُقَنِي اللهُ تَعَالَىٰ الخُشُوعَ، دُونَمَا مُجَاهَدَةٍ لِلنَّفْسِ، وحَمْلِهَا عَلَىٰ أَسْبَابِ الخُشُوعِ؛ «فالتَّمَنِّي بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي يَرْكَبُهُ مَفَالِيسُ الْعَالَمِ، كَمَا قِيلَ: إِنَّ الْمُنَيَ رَأْسُ أَمْوَالِ الْمَفَالِيسِ[1]. وَبِضَاعَةُ رُكَّابِهِ مَوَاعِيدُ الشَّيَاطِينِ، وَخَيَالَاتُ الْمُحَالِ وَالْبُهْتَانِ[2]، فَلَا تَزَالُ أَمْوَاجُ الْأَمَانِيِّ الْكَاذِبَةِ، وَالْخَيَالَاتُ الْبَاطِلَةُ، تَتَلَاعَبُ بِرَاكِبِهِ كَمَا تَتَلَاعَبُ الْكِلَابُ بِالْجِيفَةِ، وَهِيَ بِضَاعَةُ كُلِّ نَفْسٍ مَهِينَةٍ خَسِيسَةٍ سُفْلِيَّةٍ»[3].

وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[4]، فَمَا جَاهَدَ العَبْدُ نَفْسَهُ فِي تَغْيِيرِ حَالِهِ مِنْ حَالٍ لَا يُحِبُّها اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ حَالٍ يُحِبُّهَا؛ إِلَّا غَيَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ أَحْوالَهُ مِنْ حَالٍ لَا يُحِبُّهَا إِلَىٰ حَالٍ يُحِبُّهَا، فَمِنَ العَبْدِ المُجَاهِدَةُ والعَمَلُ، وَعَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ التَّوْفيقُ والهِدَايَةُ.

وإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَاظِرٌ إِلَىٰ مُجَاهَدَةِ العَبْدِ نَفْسَهُ فِي اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَمَنْ وَجَدَهُ جَادًّا فِي مُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ فِي تَحْقِيقِ أَمْرٍ يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَيَرْضَاهُ؛ أَمَدَّهُ بالتَّوفِيقِ والسَّدَادِ، وآتَاهُ

---

(1) الْمَفَالِيسُ: الذينَ لا مَالَ لَهُمْ، واحِدُهُ مُفْلِسٌ، وَهُوَ المُعْسِرُ الذي فَقَدَ مَالَهُ بَعْدَ يُسْرٍ، انظر: القاموس الفقهي، لسعدي أبو حبيب: 1/ 290.

(2) الْبُهْتَانُ: الْبَاطِلُ الَّذِي يُتَحَيَّرُ مِنْ بُطْلَانِهِ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 6/ 132.

(3) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 454.

(4) الرعد: 11.

مِنْ كَرَمِهِ فَوْقَ مَا يَرْجُو؛ قَالَ الغَزَالِيُّ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَرِيمٌ رَحِيمٌ، لِمْ يَزَلْ لِعِبَادِهِ المُرِيدِينَ لِمَرْضَاتِهِ عَوْنًا، وَبِهِمْ رَؤُوفًا، وَعَلَيْهِمْ عَطُوفًا، وَلَوْ شَاءَ لَأَغْنَاهُمْ عَنِ التَّعَبِ، ولَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَهُمْ، وَيَعْرِفَ صِدْقَ إِرَادَتِهِمْ؛ حِكْمَةً مِنْهُ وَعَدْلًا، ثُمَّ إِذَا تَحَمَّلَ العَبْدُ التَّعَبَ فِي بِدَايَتِهِ؛ أَقْبَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ بالمَعُونَةِ والتَّيْسِيرِ، وَحَطَّ عَنْهُ الأَعْبَاءَ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ الصَّبْرَ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ الطَّاعَةَ، وَرَزَقَهُ فِيهَا مِنْ لَذَّةِ المُنَاجَاةِ مَا يُلْهِيهِ عَنْ سَائِرِ اللَّذَّاتِ، وَيُقَوِّيهِ عَلَىٰ إِمَاتَةِ الشَّهَواتِ، ويَتَوَلَّىٰ سِياسَتَهُ وَتَقْوِيَتَهُ، وَأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ؛ فَإِنَّ الكَرِيمَ لَا يُضِيعُ سَعْيَ الرَّاجِي، ولَا يُخَيِّبُ أَمَلَ المُحِبِّ، وَهُوَ الذِي يَقُولُ: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا؛ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا»[1]، وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: «لَقَدْ طَالَ شَوْقُ الأَبْرَارِ إِلَىٰ لِقَائِي، وَإِنِّي إِلَىٰ لِقَائِهِمْ أَشَدُّ شَوْقًا»، فَلْيُظْهِرِ العَبْدُ فِي البِدَايَةِ جِدَّهُ وَصِدْقَهُ وَإِخْلَاصَهُ؛ فَلَا يَكُونُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَنْ قَرِيبٍ إِلَّا مَا هُوَ لائِقٌ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ وَرَأْفَتِهِ»[2].

ولَا يَسْتَبْطِئَنَّ العَبْدُ الثَّمَرَةَ؛ فَقَدْ تَطُولُ المُجَاهَدَةُ، وَتَتَأَخَّرُ الثَّمَرَةُ؛ فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ، حتَّىٰ تَأْتِيَ ثَمَرَةُ الخُشُوعِ؛ فَإِنَّ وَعْدَ اللهِ تَعَالَىٰ أَكِيدٌ. والعَبْدُ مَأْجُورٌ بِمُجَاهَدَتِهِ نَفْسَهُ وَشَيْطَانَهُ فِي اللهِ تَعَالَىٰ، أَلَا وَإِنَّ أَفْضَلَ الجِهادِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ تَعالَىٰ: جِهادُ النَّفْسِ والهَوَىٰ في ذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، يُحَدِّثُ عَنْ

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾: 9/ 121، رقم: (7405)، ومسلم، بَابُ الْحَثِّ عَلَىٰ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَىٰ: 4/ 2061، رقم: (2675).

(2) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي: 3/ 335.

رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ للهِ ﷻ»[1]، وعَنِ الْعَلَاءِ بْنِ زِيَادٍ، سَأَلَ رَجُلٌ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ، قَالَ: فأَيُّ الجِهَادِ أفضَلُ؟ قَالَ: «مَنْ جَاهَدَ لِنَفْسِهِ وَهَوَاهُ فِي ذَاتِ اللهِ»، قَالَ: أَنْتَ قُلْتَهُ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو أَوْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: قَالَ: «بَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَهُ»[2]، وَقَدْ قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: «فَمَنْ جَاهَدَ شَيْطَانَهُ ونَفْسَهُ؛ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»[3].

وَهَكَذَا كانَ السَّلَفُ الصَّالِحُونَ، لَا يَمَلُّونَ مُجَاهَدَةَ نُفُوسِهِمْ، وَلَا يَسْتَبْطِئُونَ الثَّمَرَةَ؛ قَالَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ: «كَابَدْتُ الصَّلَاةَ عِشْرِينَ سَنَةً وَتَنَعَّمْتُ بِهَا عِشْرِينَ سَنَةً»[4]. وقَالَ مُوَرِّقٌ الْعِجْلِيُّ: «أَمْرٌ أَنَا فِي طَلَبِهِ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ، وَلَسْتُ بِتَارِكٍ طَلَبَهُ أَبَدًا؛ قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا أَبَا الْمُعْتَمِرِ؟ قَالَ: الصَّمْتُ عَمَّا لَا يَعْنِينِي»[5].

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا: 4/ 165، رقم: (1621)، وابن حبان في صحيحه، ذكر انقطاع الأعمال عن الموتىٰ وبقاء عمل المرابط إلىٰ يوم القيامة مع أمنه من عذاب القبر: 10/ 484، رقم: (4624)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(2) أخرجه المَرْوَزِيُّ في تعظيم قدر الصلاة، بَقِيَّةُ الْجَوَابِ عَنِ الْقَائِلِينَ بِمُغَايَرَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ: 2/ 596، رقم: (634)، والطبراني في المعجم الكبير، عَبدُ الله بنُ عَمْرو بنِ العاصِ رضي الله عنه: 13/ 596، رقم: (14512)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(3) شرح صحيح البخاري، لابْنِ بَطَّالٍ: 2/ 365.

(4) حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الأَصْفِيَاءِ، لِأَبِي نُعَيْمٍ: 2/ 321.

(5) الزهد، لأحمد بن حنبل: 1/ 247.

الثَّالِثُ: جَمْعُ الهَمِّ[1]، وإِحْضَارُ القَلْبِ

ليسَ للخُشُوعِ دَواءٌ أَنْفَعَ مِنْ جَمْعِ الهَمِّ والفِكْرِ عَلَىٰ اللهِ تعالَىٰ؛ وَمَعْنَىٰ جَمْعِ الهَمِّ والفِكْرِ: «أَنْ يُفَرِّغَ العَبْدُ القَلْبَ مِنْ غَيْرِ مَا هُوَ مُلَابِسٌ لَهُ مِنَ أَمْرِ العِبَادَةِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ الهِمَّةُ، فَإِنَّهُ مَتَىٰ أَهَمَّكَ أَمْرٌ؛ حَضَرَ فِي قَلْبِكَ ضَرُورَةً؛ فَلا عِلاجَ لإِحْضَارِهِ إِلَّا بِصَرْفِ الهِمَّةِ إِلَىٰ الصَّلاةِ»[2]؛ فَلَا يُفَكِّرُ العبدُ إلَّا في أَمْرِ صلاتِهِ وعِبادَتِهِ؛ وَكُلَّمَا أغار الشَّيْطانُ بِوَسَاوِسِهِ وخَطَرَاتِهِ عَلَىٰ فِكْرِ العَبْدِ وهَمِّهِ؛ تَنَبَّهَ وَرَدَّهَا، وأَغْلَقَ مَدَاخِلَهُ وَمَنَافِذَهُ، وَعَادَ بِفِكْرِهِ إِلَىٰ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ صَلَاتِهِ، فالخُشُوعُ باخِتْصارٍ مَعْرَكَةُ فِكْرٍ.

حِرَاسَةُ القَلْبِ وَالفِكْرِ

وَإِنَّهُ مَا سَلِمَ قَلْبُ مَنْ سَلِمَ إِلَّا بِحِرَاسَةِ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ وفِكْرِهِ، وَلَقَدْ كانَ الصَّالِحُونَ يَحْرُسُونَ نُفُوسَهُمْ وقُلُوبَهُمْ وأَفْكَارَهُمْ أَشَدَّ مِنْ حِرَاسَةِ الثُّغُورِ، «قِيلَ للكِنَانِيِّ -لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ-: مَا كَانَ عَمَلُكَ؟ فقَالَ: لَوْ لَمْ يَقْرُبْ أَجَلِي مَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ، وَقَفْتُ عَلَىٰ بَابِ قَلْبِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَكُلَّما مَرَّ فِيهِ غَيْرُ اللهِ تَعَالَىٰ حَجَبْتُهُ عَنْهُ»[3]؛ فَإِنْ غَفَلَ العَبْدُ عَنْ

---

(1) الهَمُّ: مَا أَهَمَّ الإِنْسَانَ، وشَغَلَ فِكْرَهُ، والمَقْصُودُ بالهَمِّ هُنَا الفِكْرُ، انظر: لسان العرب، لابن مَنْظُورٍ: 12/ 619.

(2) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي: 1/ 21.

(3) إحياء علوم الدين، للغزالي: 4/ 483.

حِرَاسَةِ نَفْسِهِ وقَلْبِهِ وفِكْرِهِ؛ تَسَلَّلَ الشَّيْطَانُ خِلْسَةً[1]، وتَمَكَّنَ مِنْهَا، فَيَكُونُ إِفْسَادُهُ أَكْثَرَ مِنْ إِفْسَادِ الجُرْذَانِ[2] فِي البُيُوتِ.

وَإِنَّ مَنَافِذَ السَّمْعِ والبَصَرِ أَهَمُّ المَنَافِذِ التِي يَنْبَغِي أَنْ تُحْرَسَ جَيِّدًا؛ فَإِنَّها أَوْسَعُ مَسَارِبِ[3] الشَّيْطانِ التِي يَنْفَذُ مِنْهَا إِلَىٰ نَفْسِ الإِنْسَانِ وقَلْبِهِ وفِكْرِهِ، ويُلْقِي فِيهَا وَسَاوِسَهُ وخَوَاطِرَهُ، فَمَنْ أَطْلَقَ العَنَانَ[4] لِسَمْعِهِ وبَصَرِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، يَنْظُرُ إِلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، ويَسْمَعُ كُلَّ شَيْءٍ؛ تَشَتَّتَ فِكْرُهُ وتَلَوَّثَ، وشَقَّ عَلَيْهِ جَمْعُ هَمِّهِ عَلَىٰ مَا يُحِبُّ مِنْ أُمُورِ العِبَادَةِ. ومَنْ أَغْلَقَ هَذَينِ المَنْفَذَيْنِ، وَتَحَكَّمَ فِيهِمَا، فَلَمْ يَنْظُرْ إِلَىٰ فُضُولِ الدُّنْيا ومُبَاحَاتِهَا؛ فَضْلًا عَنْ مَحْظُورَاتِهَا، ولَمْ يَسْمَعْ فُضُولَ أَخْبَارِهَا المُبَاحَةِ؛ فَضْلًا عَنْ مَحْظُورَاتِهَا؛ فَذَلِكَ القَوِيُّ السَّالِمُ، وَقَلْبُهُ المُهَيَّأُ للخُشُوعِ، ولِكُلٍّ خَيْرٌ؛ ولِذَلِكَ كَثُرَ اقْتِرانُ السَّمْعِ بالبَصَرِ مَعَ القَلْبِ؛ كَمَا قالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾[5]، قالَ السَّمَرْقَنْدِيُّ: «أَيْ: لَا تَقُلْ مَا لَمْ تَعْلَمْ، ولا تَسْمَعِ اللَّغْوَ، ولَا تَنْظُرْ إِلَىٰ الحَرَامِ، وَلَا تَحْكُمْ عَلَىٰ الظَّنِّ ﴿كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ يَعْنِي: عَنِ الكَلَامِ باللِّسَانِ،

(1) خِلْسَةٌ: خُفْيَةٌ، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر: 1/ 678.

(2) الجُرْذَانُ: الفئران، انظر: معجم العين، للخليل: 6/ 94.

(3) مَسَارِبُ: جَمْعُ مَسْرَبٍ، وَهُوَ الطَّرِيقُ والقَنَاةُ تَحتَ الأَرْضِ، انظر: تكملة المعاجم العربية، للدُوزِي: 6/ 56.

(4) العَنَانُ: النَّوَاحِي والمَجَالُ، انظر: معجم العين، للخليل: 1/ 90.

(5) الإسراء: 36.

والتَّسَمُّعِ بالسَّمْعِ، والتَّبَصُّرِ بالبَصَرِ عَلَىٰ وَجْهِ الإِضْمارِ، وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ الكَلِمَ»[1]. وقالَ الواحِدِيُّ: «قالَ الوالِبِيُّ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: «يَسْأَلُ اللهُ تَعَالَىٰ العِبَادَ فِيمَ اسْتَعْمَلُوهَا»، وَفِي هَذا زَجْرٌ عَنِ النَّظَرِ إِلَىٰ مَا لا يَحِلُّ، والاسْتِمَاعُ إِلَىٰ مَا يَحْرُمُ، وإِرَادَةِ مَا لا يَجُوزُ»[2].

كُنِ ابْنَ سَاعَتِكَ

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ وَصِيَّةِ الحُكَمَاءِ: (كُنِ ابْنَ سَاعَتِكَ)، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ المَازِنِيُّ: «عَلَّمَتْنِي الحَيَاةُ أَنْ أَكُونَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ كَمَا تَشَاءُ السَّاعَةُ»[3]، وَهُوَ كَلَامٌ رَصِينٌ[4] حَكِيمٌ، وَمْعَنَاهُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي قَصْرُ الهَمِّ والفِكْرِ فِي كُلِّ وَقْتٍ عَلَىٰ مَا هُوَ فِيهِ لَا يَعْدُوهُ إِلَىٰ سِوَاهُ، فَلَا يَعُودُ بِفِكْرِهِ إِلَىٰ مَا سَبَقَ مِنْ أَمْرِهِ، وَلَا يَسْتَعْجِلُ الفِكْرَ فِيمَا لَمْ يَأْتِ، فَإِذَا كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَثَلًا لَا يُفَكِّرُ فِي سِوَاهَا، وَإِذَا كانَ فِي طَلَبِ العِلْمِ، لَا يُفَكِّرُ فِي سِوَاهُ، وَإِذَا كَانَ فِي عَمَلٍ، لَا يُفَكِّرُ فِي سِوَاهُ؛ حَتَّىٰ يُتِمَّهُ عَلَىٰ أَحْسَنِ حَالٍ.

وإِذَا كَانَ فِي جُزْئِيَّةٍ مِنَ الأُمُورِ لَا يَنْتَقِلُ بِفِكْرِهِ إِلَىٰ غَيْرِهَا حتَّىٰ يُتِمَّهَا، وَيَنْتَقِلَ إِلَىٰ التِي تَلِيهَا، فَيَقْصُرُ هَمَّهُ عَلَىٰ مَعَانِي الفَاتِحَةِ ومَقَاصِدِهَا وَهُوَ فِي رُكْنِ القِيَامِ، وَيَقْصُرُ هَمَّهُ عَلَىٰ مَعَانِي الرُّكُوعِ ومَقَاصِدِهِ وَهُوَ فِي الرُّكوعِ، وعَلَىٰ مَعَانِي القِيَامِ مِنَ الرُّكوعِ ومَقَاصِدِهِ عِنْدَ القِيامِ، وعَلَىٰ مَعَانِي السُّجُودِ ومَقَاصِدِهِ عِنْدَ السُّجُودِ، وعَلَىٰ مَعَانِي التَّشَهُّدِ ومَقَاصِدِهِ عِنْدَ

---

(1) تفسير بحر العلوم، للسمرقندي: 2/ 311.

(2) التفسير الوسيط، للواحدي: 3/ 108.

(3) نقلًا عن كتاب: المطالعة والنصوص، الجزء الأول، كتاب منهجي للصف التاسع الأساسي، إصدار وزارة التربية والتعليم الفلسطينية، الطبعة الثانية، 1425هـ- 2004م: 1/ 65.

(4) رَصِينٌ: قَوِيٌّ ومُحْكَمٌ وثَابِتٌ، انظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان: 4/ 2516.

التَّشَهُّدِ، وعَلَىٰ مَعَانِي التَّسْليمِ ومَقَاصِدِهِ عِنْدَ التَّسْليمِ مِنَ الصَّلَاةِ، وَهَكَذَا فِي كُلِّ عِبَادَةٍ وَكُلِّ أَمْرٍ يُرَادُ أَنْ يُكْتَبَ لَهُ التَّوفِيقُ والنَّجَاحُ.

قَاعِدَةٌ فِي الفِكْرِ

الفِكْرُ نَظَرُ القَلْبِ، كَمَا أَنَّ البَصرَ نَظَرُ العَيْنِ، وأَحْكَامُ الفِكْرِ فِي الأَشْياءِ كَأَحْكَامِ النَّظَرِ فِي المُبْصَرَاتِ، فالفِكْرُ فِي الفَضَائِلِ فَضِيلَةٌ؛ يُثَابُ عَلَيْهَا، والفِكْرُ فِي المُبَاحَاتِ مُبَاحٌ؛ لَا يُثَابُ عَلَيْهِ، وَلَا يُعَاقَبُ، وقَصْدُ الفِكْرِ فِي الحَرَامِ والاسْتِرْسَالُ فيهِ، والعَزْمُ عَلَيْهِ حَرَامٌ؛ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ. واللهُ تَعالَىٰ مُطَّلِعٌ عَلىٰ فِكْرِ العَبْدِ كَمَا أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ نَظَرِهِ، وَلَقَدْ حَذَّرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنَ الفِكْرِ الحَرَامِ، كَمَا حَذَّرَ مِنَ النَّظَرِ الحَرَامِ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[1]، وَقَالَ الأَلُوسِيُّ: «﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ مِنَ العَزْمِ عَلَىٰ مَا لَا يَجُوزُ، أَوْ مِنْ ذَوَاتِ الصُّدُورِ»[2]، وَقَالَ السَّعْدِيُّ: «أَيْ: فَانْوُوا الخيْرَ، وَلَا تَنْوُوا الشَّرَّ؛ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، ورَجَاءً لِثَوَابِهِ»[3]، وَقَدْ أَطَالَ العُلَمَاءُ الحَدِيثَ فِي تَفْصِيلِ هَذَا[4].

---

(1) البقرة: 235.

(2) روح المعاني، للألوسي: 1/ 545.

(3) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي: 1/ 105.

(4) انْظُرْ تَفْصِيلَ القَوْلِ فِي هَذِهِ القَاعِدَةِ: شرح صحيح البخاري، لابن بطال: 1/ 249، والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي: 3/ 108، والفتاوىٰ الكبرىٰ، لابن تيمية: 2/ 224، وفتح الباري، لابن حجر: 1/ 260، وشرح أبي داود، للعيني: 1/ 287، وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقَسْطَلَّانِيِّ: 1/ 245، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 1/ 135، وسبل السلام، للصنعاني: 1/ 60.

أَحْكَامُ الفِكْرِ كَأَحْكَامِ النَّظَرِ

وَعَلَيْهِ فَإِنَّ أَحْكَامَ الفِكْرِ كَأَحْكَامِ النَّظَرِ، فَفِي أَحْكَامِ النَّظَرِ: النَّظْرَةُ الأُولَىٰ لَكَ، والثَّانِيَةُ عَلَيْكَ؛ فَعَنْ عَلِيٍّ ﵁، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُتْبِعِ النَّظَرَ النَّظَرَ، فَإِنَّ الْأُولَىٰ لَكَ، وَلَيْسَتْ لَكَ الْأَخِيرَةُ»(1)، وَفِي سُنَنِ الدَّارِمِيِّ: «وَالْآخِرَةَ عَلَيْكَ»(2). وعَنْ مُوسَىٰ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي طَرِيقٍ، فَاسْتَقْبَلَتْنَا امْرَأَةٌ فَنَظَرْنَا إِلَيْهَا جَمِيعًا، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ سَعِيدًا غَضَّ بَصَرَهُ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا، قَالَ: فَقَالَ لِي سَعِيدٌ: «الْأُولَىٰ لَكَ، وَالثَّانِيَةُ عَلَيْكَ»(3).

فَكَمَا أَنَّ النَّظْرَةَ الأُوْلَىٰ لَكَ، والثَّانِيَةَ عَلَيْكَ؛ فالفِكْرُ الأَوَّلُ لَكَ، والثَّانِي عَلَيْكَ، يَعْنِي لَوْ هَجَمَ عَلَيْكَ الفِكْرُ فِي شَيْءٍ مُحَرَّمٍ؛ فَمَبَادِئُ الفِكْرِ، لَا تُؤَاخَذُ عَلَيْهَا، وَعَلَيْكَ صَرْفُ فِكْرِكَ عَنْهُ، وَعَدَمُ الاسْتِرْسَالِ فِيهِ، فَإِنِ اسْتَرْسَلْتَ فِي الفِكْرِ المُحَرَّمِ وقَصَدْتَهُ وعَزَمْتَ عَلَيْهِ؛ تَكُنْ كَمَنْ أَطَالَ النَّظَرَ إِلَىٰ الحَرَامِ، وَلَمْ يَصْرِفْ نَظَرَهُ عَنْهُ، وَإِنْ عُدْتَ إِلَىٰ الفِكْرِ المُحَرَّمِ مَعَ قَصْدٍ وَعَزْمٍ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِكَ؛ تَكُونُ كَمَنْ عَادَ إِلَىٰ النَّظْرَةِ الثَّانِيَةِ فِي النَّظَرِ المُحَرَّمِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، واللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَم(4).

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، مسند علي بن أبي طالب ﵁: 2/ 464، رقم: (1369)، وَحَسَّنَهُ شعيب الأرنؤوط.

(2) أخرجه الدارمي في سننه، بَابُ: فِي حِفْظِ السَّمْعِ: 3/ 1779، رقم: (2751)، بإسناد جيد.

(3) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، بَابُ: مَا قَالُوا فِي الرَّجُلِ تَمُرُّ بِهِ الْمَرْأَةُ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا، مَنْ كَرِهَ ذَلِكَ: 4/ 6، رقم: (17219).

(4) انْظُرْ تَفْصِيلَ أَحْكَامِ الفِكْرِ فِي الصَّلَاةِ، سابِعًا مِنَ الفَصْلِ الثَّالِثِ.

وقَاعِدَةُ الفِكْرِ هَذِهِ نَافِعَةٌ جِدًّا؛ فَمَنْ عَقَلَها ووَعَاهَا، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهَا؛ نَجا مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الوَسَاوِسِ والخَوَاطِرِ والأَفْكَارِ التِي تُفْسِدُ عَلَيْهِ عِبادَاتِهِ، والتِي تَقُودُهُ إِلَىٰ الخَوْضِ فِي الفِكْرِ فِي الشُّبُهَاتِ، والمُحَرَّمَاتِ، التِي تُفْسِدُ عَلَيْهِ دِينَهُ، وَمَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ مِمَّنْ وَقَعَ فِي شُبُهَاتِ القَدَرِ، والشُّبُهَاتِ التِي قَادَتْهُ إِلَىٰ الإِلْحَادِ إِلَّا لِغَفْلَتِهِ عَنِ العَمَلِ بِهَذِهِ القَاعِدَةِ.

والعَمَلُ بهَذِهِ القَاعِدَةِ يُصْلِحُ العِبَادَاتِ كُلَّهَا: الصَّلَاةَ، وتِلَاوَةَ القُرْآنِ، وذِكْرَ اللهِ تَعَالَىٰ... كَمَا تَصْلُحُ لِطَلَبِ العِلْمِ؛ فَلَا يَكَادُ يُفْلِحُ طَالِبُ عِلْمٍ مُشَتَّتُ الفِكْرِ، غَيْرُ مُجْتَمِعِ الهَمِّ عَلَىٰ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ؛ فَلَا دَوَاءَ أَنْفَعُ لِطَلَبِ العِلْمِ مِنْ جَمْعِ الفِكْرِ والهَمِّ عَلَىٰ مَا هُوَ فِيهِ.

الرَّابِعُ: تَدَبُّرُ مَعَانِي أَقْوالِ الصَّلَاةِ وأَعْمَالِهَا

لَاجَرَمَ أَنَّ تَدَبُّرَ مَعَانِي أَقْوالِ الصَّلَاةِ وأَعْمَالِهَا؛ سَبَبٌ أَكِيدٌ لِتَحْقِيقِ حَقِيقَةِ خُشُوعِ القَلْبِ فِي الصَّلَاةِ، إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ خُشُوعُ القَلْبِ، والقَلْبُ غَافِلٌ عَنْ فَهْمِ مَعَانِي مَا يَقْرَأُ أَوْ يَسْمَعُ؛ فَيَتَعَذَّرُ بَلْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَخْشَعَ خُشُوعًا يَحْصُلُ مَعَهُ حَيَاةُ القَلْبِ، وَيَنْبَغِي هُنَا أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ خُشُوعِ الطَّرَبِ[1]، وخُشُوعِ القَلْبِ، فَخُشُوعُ الطَّرَبِ هُوَ خُشُوعُ الأُذُنِ لِجَمَالِ الصَّوْتِ، فَلَوْ قُرِئَ القُرْآنُ بِصَوْتٍ جَمِيلٍ، يَطْرَبُ لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الصَّوْتُ جَمِيلًا؛ لَا يَحْصُلُ الخُشُوعُ، وَهَذَا الخُشُوعُ لَا تَحْصُلُ مَعَهُ الفَائِدَةُ التِي يَكُونُ بِهَا حَيَاةُ القَلْبِ، فَإِنَّ هَذَا الخُشُوعَ قَدْ يَحْصُلُ للأَعْجَمِيِّ الذِي لَا يُدْرِكُ مَعْنَىٰ مَا يُقْرَأُ، ولَعَلَّ غَيْرَ المُسْلِمِ لَوْ

---

(1) الطَّرَبُ: نَشْوَةٌ وخِفَّةٌ تُثِيرُ النَّفسَ لِفَرَحٍ، أَوْ حُزْنٍ، أَوِ ارْتِياحٍ، وَأَغْلَبُ مَا يُسْتَعْمَلُ الْيَوْمَ فِي الارْتِيَاحِ والغِنَاءِ والأَصْواتِ الجَمِيلَةِ؛ مِمَّا يُحرك فِي النَّفس الطَّرَبَ، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة: 2/ 553.

سَمِعَ صَوْتًا طَرِيبًا بالقُرْآنِ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مِثْلُ هَذَا الخُشُوعِ، بَلْ لَعَلَّ الجَمَادَاتِ والحَيَوانَاتِ أَنْ تَخْشَعَ لِهَذَا.

وأَمَّا حَقِيقَةُ خُشُوعِ القَلْبِ فَإِنَّمَا يَحْصُلُ لِمَعْنَىٰ القُرْآنِ، وَلِمَا يَقَعُ فِي القَلْبِ مِنْ مَعَانِي أَعْمَالِ الصَّلَاةِ، وَيَزْدَادُ هَذَا الخُشُوعُ إِذَا وَافَقَ صَوْتًا شَجِيًّا بالقُرْآنِ.

وَإِنَّنَا هُنَا نَذْكُرُ بَعْضَ المَعَانِي لِحَظِّ القَلْبِ، التِي يُمْكِنُ أنْ تُسْتَحْضَرَ عِنْدَ أَقْوالِ الصَّلَاةِ وَأَعْمَالِهَا؛ عونًا عَلَىٰ تَحْقِيقِ الخُشُوعِ.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي الوُقُوفِ

أنْ يَشْهَدَ القَلْبُ أَدَبَ الوقوفِ بَيْنَ يَدَيِ المَلِكِ الحَقِّ، وأَنْ يَسْتَقْبِلَ رَبَّهُ بِقَلْبِهِ، ويُوَجِّهَهُ إِلَيْه؛ فَلَا يَلْتَفِتَ قَلْبُهُ عنْ رَبِّهِ إلىٰ شَيْءٍ منْ خَوَاطِرِ الدُّنْيا وَوَسَاوِسِها وأفكارِها. ثمَّ إنَّه يَشْهَدُ بِمَوْقِفِهِ هذَا ذُلَّهُ في مَوْقِفِهِ بينَ يَدَيْ رَبِّهِ العَزِيزِ ﷻ، وَأَنَّهُ إِذَا أَحْسَنَ الوُقُوفَ هُنَا فِي صَلَاتِهِ، وأَدَّاهُ حقَّهُ؛ حَسُنَ وُقُوفُهُ هُنَاكَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعالَىٰ.

حظُّ القَلْبِ من وَضْعِ السُّتْرَةِ

أَنْ يَشْهَدَ القلبُ مَعْنَىٰ سَتْرِ قَلْبِهِ وحِفْظِهِ مِنْ غاراتِ الشياطينِ، وسِهامِ وَسَاوِسِهِمْ وخَطَرَاتِهم، فلا تَمُرُّ الشياطينُ مِنْ بينِ يَدَيْهِ إلَّا مِنْ بَعِيدٍ.

حَظُّ القَلْبِ مِنَ التَّسَوُّكِ

أن يَشْهَدَ القلبُ مَعْنَىٰ التَّهَيُّؤِ لحضُورِ المَلَكِ وَوَضْعِ فَمِهِ عَلَىٰ فِمِه؛ فَفِي الحديثِ: «إِذَا قَامَ الرَّجُلُ يَتَوَضَّأُ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ وَاسْتَنَّ[1]، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ؛ أَطَافَ بِهِ الْمَلَكُ، وَدَنَا مِنْهُ، حَتَّىٰ يَضَعَ فَاهُ عَلَىٰ فِيهِ، فَمَا يَقْرَأُ إِلَّا فِي فِيهِ، وَإِذَا لَمْ يَسْتَنَّ أَطَافَ بِهِ، وَلَا

---

(1) اسْتَنَّ: تَسَوَّكَ، انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي: 2/ 238.

يَضَعُ فَاهُ عَلَىٰ فِيهِ»[1] «فَطَهِّرُوا أَفْوَاهَكُمْ لِلقُرْآنِ»[2]. ثمَّ هوُ يَسْتَحْضِرُ مَعْنَىٰ مَرْضَاةِ الربِّ تَعَالَىٰ بالسِّواكِ بينَ يَدَيْ صَلاتِه، ثُمَّ هوَ يَسْتَحْضِرُ مَعْنَىٰ تَطْهِيرِ القَلْبِ مِنْ خَطَراتِ الدُّنيا، كَمَا يَطْهُرُ الفَمُ مِنْ رَوَائِحِها.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي التَّكْبِيرِ

أَنْ يَشْهَدَ قَلْبُهُ أَنَّ ربَّهُ تعالىٰ أَكْبَرُ منْ كلِّ شَيْءٍ؛ أكبرُ منَ الدُّنْيا ومَا فيها ومَنْ فِيهَا، أكبرُ مِنْ كُلِّ ما يَخافُ ويَحْذَرُ، وأكبرُ مِنْ كُلِّ ما يَرْجُو ويَأْمُلُ؛ فإذا كَبَّرَ ربَّه، صَغُرَ في قلبِهِ كُلُّ ما سِوَىٰ اللهِ تعالىٰ، وكانَ اللهُ تعالىٰ في قَلْبِهِ أكبرَ مِنْ كُلِّ ما يَشْغَلُهُ عنْ رَبِّه، فَنَزَّهَ قَلْبَهُ مِنْ أَنْ يُساكِنَ سِواهُ. وبهذا يُدْرَكُ طَرَفٌ منْ سِرِّ جَعْلِ اسمِ اللهِ (الأكبر) مِفْتاحًا للصلاةِ، ومفتاحًا للدخولِ في سائرِ الأركانِ؛ فكلَّما كَبُرَ في نفسِ العبدِ شَيءٌ؛ دَمَغَهُ بالتكبيرِ؛ فَيَضْمَحِلُّ في النَّفْسِ كلُّ كبيرٍ، ولا يَبْقَىٰ إلا اللهُ الأكبرُ.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي رَفْعِ اليَدَيْنِ

أَنْ يَشْهَدَ أَدَبَ تَحِيَّةِ الدُّخُولِ عَلَىٰ اللهِ تعالىٰ مِنْ بابِ الصَّلاةِ، فَهُوَ يُحَيِّيهُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ، ويُحَيِّيهُ بِقَلْبِهِ ونَفْسِه وجَوَارِحِهِ، تَحِيَّةً أَعْظَمَ مِنْ تَحِيَّةِ جُنُودِ الأَرْضِ لِمُلُوكِ الأرضِ، كَمَا يَشْهَدُ مَعَانِي اسْتِسْلَامِ العَبْدِ الجَانِي المُذْنِبِ للسَّيْدِ المَالِكِ.

---

(1) أخرجه محمد بن نصر المَرْوَزِيُّ في مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر، بَابُ السِّوَاكِ عِنْدَ الْوُضُوءِ لِقِيَامِ اللَّيْلِ: 1/ 110، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(2) هذه الزيادة ذكرها البزار في مسنده: 2/ 214، رقم: (603).

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي وَضْعِ اليَدَيْنِ

أَنْ يَشْهَدَ مَعْنَىٰ التَّأَدُّبِ بِهذهِ الهَيْئَةِ؛ ثُمَّ هوَ يشهدُ بِوَضْعِ اليَدَيْنِ هذا؛ مَعْنَىٰ تَحَسُّسِ اليَدَيْنِ لِصَدْرِهِ الذي يُخْفِي وراءَه أَعْظَمَ الكنوزِ، وهُوَ القلبُ، الذِي يَحْوِي فِيهِ أَعْظَمَ الذَّخَائِرِ والنَّفَائِسِ: مِنْ إيمانٍ، وإخلاصٍ، وتَعْظِيمٍ، وإجلالٍ، وإخباتٍ[1]، وافتقارٍ[2]، وَمَحَبَّةٍ، ورجاءٍ. يَتَلَمَّسُ ما فيهِ منْ هذهِ الذَّخَائِرِ، ويَسْتَدْعِي حُضُورَها فِي الصلاةِ، وَكَأَنَّهُ يُمْسِكُ قَلْبَهُ عَنِ الشُّرُودِ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا وَشِعَابِهَا[3].

---

(1) إخباتٌ: اطْمِئْنَانٌ، وخُشُوعٌ، وتَوَاضُعٌ، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 2/ 27.

(2) الافْتِقارُ: حَالَةٌ قَلْبِيَّةٌ مُتَوَلِّدَةٌ مِنْ حَالَتَيْنِ، الأُولَىٰ: النَّظْرُ فِي مِنَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَفَضْلِهِ فِي تَوْفِيقِه للعَمَلِ، والثَّانِيَةِ: النَّظَرُ فِي تَقْصِيرِهِ فِي حَقِّ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَهْمَا عَمِلَ؛ فَيَنْتُجُ عَنْ هَذَيْنِ النَّظَرَيْنِ افْتِقَارُ العَبْدُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ظَاهِرًا وباطِنًا، فَيَسْتَشْعِرُ حاجَتَهُ إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ فِي كُلِّ شَيْءٍ، ومَعَ كُلِّ نَفَسٍ، وأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ فيهِ مِنْ فَضْلٍ هُوَ مِنَ اللهِ تَعالَىٰ علَىٰ الحَقِيقَةِ، وَأَنَّهُ لَوْ أَتَىٰ اللهَ تَعالَىٰ بِأَعْمالِ الثَّقَلَيْنِ: إِنْسِهِمْ وجِنِّهِمْ؛ لَلَقِيَ اللهَ تَعالَىٰ مُقَصِّرًا؛ إِلَّا أنْ يَتَقَبَّلَ اللهُ تَعالَىٰ مِنْهُ بِمَنِّهِ وفَضْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ المَثُوبَةَ؛ لَوْلَا فَضْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِقَبُولِهِ، ويَشْهَدُ الْعَبْدُ -فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ- فَاقَةً تَامَّةً إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ. فلا يَرَىٰ لِنَفْسِهِ حاجَةً إِلَىٰ شَيْءٍ مِنَ الأَشياءِ سِوَىٰ رَبِّهِ تبارَكَ وتَعالَىٰ، وَلَا يَرَىٰ أَنَّهُ عَمِلَ شَيْئًا، فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَىٰ عَمَلِهِ بِعَيْنِ العَيْبِ والنَّقْصِ، دائِمُ الاسْتِغْفارِ مِنْ تَقْصِيرِهِ فِي عِبادَةِ رَبِّهِ ﷿؛ فَهُوَ لَا يَعْتَمِدُ علَىٰ حَسَنَاتِهِ؛ وإِنَّمَا يَعْتَمِدُ علَىٰ كَرَمِ رَبِّهِ تَعالَىٰ فِي قَبُولِ أَعْمالِهِ، وإِثَابَتِهِ عَلَيْها، انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 411، وطريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية: 1/ 47-51.

(3) شِعَابِهَا: جَمْعُ شِعْبٍ، وَهُوَ الطَّرِيقُ فِي الجَبَلِ، انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للفارابي: 1/ 156.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي النَّظَرِ

أَنْ يَشْهَدَ مُرَاقبةَ نَظَرِ اللهِ تعالىٰ إليهِ؛ فَلا يَلَتفتُ إلىٰ سِواهُ، ما دامَ اللهُ تَعَالَىٰ قِبَلَ وجهِهِ ناظرًا إليهِ. «فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ؛ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ»[1]. وهُوَ كذلكَ يُصَوِّبُ بَصرَهُ إِلَىٰ أَقْرَبِ المَواطنِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ، وأَحَبِّهَا إليهِ؛ وهُوَ مَوْطِنُ السُّجُودِ؛ كَأَنَّهُ يَحِنُّ إلىٰ هذا المَوْطِنِ الذِي يُحِبُّهُ اللهُ تعالىٰ. كما أنَّ في خَفْضِ البَصرِ خُشوعًا لهُ، ولِخُشوعِ البَصَرِ أَثَرٌ بالغٌ علىٰ خُشُوعِ القَلْبِ.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي دُعَاءِ الاسْتِفْتَاحِ

أَنْ يَشْهَدَ مَعْنَىٰ التَّهَيُّؤِ للدُّخولِ علَىٰ اللهِ ﷻ بِدُعاءٍ رَقِيقٍ؛ يُخْرِجُهُ مِنَ الدُّنْيا وَوَساوِسِها، ويَدْخِلُهُ علَىٰ اللهِ تعالىٰ، ويُحْضِرُ قَلْبَه مَعْنَىٰ مَا فِي أَدْعِيَةِ الاسْتِفْتَاحِ مِنْ تَسْبِيحٍ، وتَعْظيمٍ للهِ تعالىٰ، وثَنَاءٍ عليهِ؛ ليفتحَ اللهُ تعالىٰ أقفالَ قلبِهِ، واسْتِغْفَارٍ مِنَ الذُّنُوبِ التِي قَدْ تَحُولُ بينَ العَبْدِ والخُشوعِ، فَمَا إِنْ يَنْتَهي مِنَ الدُّعاءِ، ويَشْرَعَ فِي تلاوةِ الفَاتِحَةِ؛ إلا وَقَدْ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيا بِالكُلِّيَّةِ، وَدَخلَ عَلَىٰ اللهِ ﷻ مِنْ أَوْسَعِ الأَبْوابِ.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي الاسْتِعَاذَةِ

أَنْ يَشْهَدَ القلبُ معنَىٰ الاعتصامِ باللهِ تعالىٰ، واللُّجوءِ إليهِ، والاحتماءِ بهِ، والفرارِ إليهِ مِنَ الشيطانِ؛ الذي يَتَهَيَّأُ للهُجُومِ عَلَىٰ فِكْرِ العَبْدِ بالوَسْوَسَةِ، وأَنْ يَحْمِيَه مِنْ وَسَاوِسِهِ وخَطَرَاتِهِ وغَارَاتِهِ.

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، بَابُ مَا جَاءَ فِي مَثَلِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ: 5/ 148، رقم: (2863)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي البَسْمَلَةِ

أَنْ يَشْهَدَ بقَلْبِهِ أَنَّهُ يَبْتَدِئُ صَلَاتَهُ مُتبَرِّكًا بِـ (بِاسْمِ اللهِ تَعَالَىٰ)؛ فَإِنَّ اسْمَ اللهِ تَعَالَىٰ مَا وُضِعَ عَلَىٰ شَيْءٍ؛ إِلَّا بَارَكَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ وَأَنْمَاهُ. كَمَا يَشْهَدُ بِقَلْبِه معنَىٰ إعلانِ أنَّ جميعَ ما فِي السُّورَةِ المَتْلُوَّةِ منَ اللهِ تعالىٰ، وأنَّها رَسائِلُهُ تعالىٰ وَصَلَتْ مِنْهُ إِلَيْنا، فَحَرِيٌّ بِقَلْبٍ يَشْهَدُ هذا أنْ يُصْغِيَ لِتَلَقِّي مَا فِيها مِنْ أَوَامِرَ ونَوَاهٍ وأَخْبارٍ.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي الفَاتِحَةِ

أَنْ يَشْهَدَ بقلبِهِ ما فِي الفاتحةِ منْ معانٍ وأسرارٍ، فَيَتْلُو الفاتِحةَ؛ مُجَوِّدًا تِلاوَتَهُ، مُرَتِّلًا القرآنَ ترتيلًا، مُزَيِّنًا القرآنَ بِصَوْتِهِ، وَاقِفًا علىٰ رَأْسِ كُلِّ آيةٍ، يقرأُ قراءَةً مُفَسَّرَةً حَرْفًا حَرْفًا، مُتَرَسِّلَةً مُتَمَهِّلَةً بَطِيئَةً حَزِينَةً شَهِيَّةً، يُسْمِعُ بها نَفْسَهُ؛ كَأَنَّهُ يُحَدِّثُ أحدًا؛ مُتَدَبِّرًا مَعْنَىٰ ما يقرأُ، مُحَرِّكًا بِها قَلْبَهُ؛ مُنَوِّرًا بِها فُؤادَهُ؛ فإنَّ اللهَ تَعالَىٰ وملائِكَتَهُ يَسْتَمِعُونَ تلاوَتَهُ. يَشْهَدُ مَعَ كُلِّ لَفْظٍ معْناهُ، ومُرادَ اللهِ تعالىٰ مِنْهُ: أَمْرًا، أَوْ نَهْيًا، أوْ إِخْبَارًا.

* فيشْهَدُ عِنْدَ: ﴿الْحَمْدُ﴾ تَوَالِي نِعَمِ اللهِ تعالىٰ عليهِ، ظَاهِرةً وباطِنَةً، وأَجَلُّهَا وأَعْظَمُهَا أَنْ هَدَاهُ أقومَ سَبيلٍ، واسْتزارَهُ إِلَىٰ الوُفُودِ إِلَيْهِ، وأَذِنَ لَهُ بالدُّخولِ عَلَيْهِ فِي جُمْلَةِ الوَافِدينَ إليهِ، والوُقُوفِ بينَ يَدَيْهِ؛ فَيَمْتَلِئُ قَلْبُهُ بِمَعانِي الحَمْدِ التِي لا تُحْصَىٰ، كَمَا أَنَّ نِعَمَهُ لا تُحْصَىٰ.

* ويَشْهَدُ عنْدَ ذِكْرِ: ﴿لِلَّهِ﴾ معنَىٰ صِدْقِ التَّأَلُّهِ، وهُو أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَحْدَهُ المُسْتَحِقُّ لِكَمالِ العِبادَةِ، المُقْتَضِيَةِ لِكَمالِ المَحبَّةِ، مَعَ كَمالِ الطاعةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِلَهٌ مَعْبُودٌ، مَحْبُوبٌ، مُطَاعٌ، إلهٌ في السَّماءِ، وإلهٌ في الأرضِ.

* ويَشْهَدُ عندَ ذِكْرِ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾ مَعْنَىٰ رُبُوبِيَّةِ اللهِ تعالىٰ المُقْتَضِيَةِ قيامَهُ عَلَىٰ مَصالِحِ خَلْقِهِ، وتَفَرُّدَهُ في التَّصَرُّفِ بشُئُونِهِمْ: خَلْقًا، ومَوْتًا، ورِزْقًا؛ وأنَّهُ ﷻ المُرَبِّي لِجَمِيعِ مَخْلُوقَاتِ العَالَمِينَ: في العالَمِ العُلْوِيِّ، وفِي العالَمِ السُّفْلِيِّ، المُتَعَهِّدُ بِرِعَايةِ عَبْدِهِ مِنْ طَوْرٍ إلىٰ طَوْرٍ، منَ النُّطْفَةِ، إلىٰ العَلَقَةِ، إِلَىٰ أَنْ يَصيرَ بَشَرًا سَوِيًّا، ثمَّ المتولِّي أَمْرَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، وفِي قَبْرِهِ، وفِي آخِرَتِهِ...، وأنَّ أمرَهُ في الخلائقِ نافذٌ، فلا رادَّ لقضائِهِ فِي خَلْقِهِ، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، ولا غَالِبَ لأمرِهِ.

* كَمَا يَشْهَدُ قلبُه عندَ ذِكْرِ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ﴾ أنَّ رَبَّه تعالىٰ مَوْصُوفٌ بالرَّحمةِ؛ الرَّحْمَةِ الشَامِلَةِ الواسِعَةِ، وأنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وأنها وَسِعَتْ كلَّ شَيْءٍ، وأَنَّه تعالىٰ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنَ الأُمِّ بِرَضِيعِها. كما يشهدُ ما فِي اجْتماعِ الاسْمَيْنِ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ﴾ مِنْ كَمَالِ مَعانِي الرَّحْمَةِ مَا لا تُدْرِكُ مِنْهُ أَفْهَامُ البَشَرِ إلا كَمَا يُدْخِلُ أحدُنَا أصْبَعَهُ فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟ وأنَّ رَحمَةَ اللهِ تعالىٰ لَهُ بِجَعْلِهِ مِنْ جُمْلَةِ المُسْلِمِينَ المُصَلِّينَ النَّاجِينَ أعظمُ منْ رحمتِهِ لَهُ بِخَلْقِهِ ورِزْقِهِ.

* ويَشْهَدُ عندَ ذِكْرِ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ معنَىٰ كَمالِ مُلْكِ اللهِ تعالىٰ، وأَنَّهُ المَالِكُ الحَقُّ للعالَمِ العُلْوِيِّ والعالَمِ السُّفْلِيِّ، وأَنَّهُ مالكُ الدُّنْيا ومَنْ فِيهَا، وأنَّه مَالِكُ يومِ الدِّينِ، الذِي يَدِينُ فيهِ العبادُ للحسابِ. وأنَّ كُلَّ المُلُوكِ والمَمَالِكِ والأَمْلَاكِ فِي قَبْضَتِهِ، وتَحتَ تَصرُّفِهِ وقَهْرِهِ فِي الدُّنيا والآخرةِ. وأنَّه لا يكونُ في مُلْكِهِ ﷻ إلا ما يُرِيدُ.

* ويَشْهَدُ عندَ ذِكْرِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أنَّه وَحدَهُ المَخْصُوصُ بالعِبَادَةِ، لا يَشْرُكُهُ فِيهَا سِوَاهُ، وأَنَّهُ وَحدَهُ المُعِينُ لِعِبادِهِ عَلَيْهَا؛ وأَنَّهُ ما عَبَدَهُ مَنْ عَبَدَهُ إلا بِعَوْنِهِ له،

وأَنَّ مَنْ تَخَلَّىٰ اللهُ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ فَقَدْ هَلَكَ وخَسِرَ خَسَارَةً لا تُجْبَرُ، وهُوَ سَاعَتَها المَخْذُولُ المَحْرومُ؛ فلا يُسْتَعانُ علَىٰ ما للهِ تعالىٰ إلا باللهِ، فمَنْ أتاهُ العَوْنُ مِنْ رَبِّهِ؛ فقدْ أتاهُ التَّوْفيقُ والسَّدادُ والفَلَاحُ.

* ويَشْهَدُ عندَ ذِكْرِ: ﴿اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾، أَنَّهُ يَتَوَسَّلُ إِلَىٰ اللهِ تعالىٰ بأسمائِهِ: (اللهُ، والرَّبُّ، والرَّحمنُ، والرَّحيمُ، والمَلِكُ) وبِمَا فِيهَا منْ صفاتٍ، أنْ يَهْدِيَهُ أَقْومَ سَبيلٍ، وأَسْرَعَ طَرِيقٍ، فَهُوَ رَبُّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، الذِي يَمْلِكُ هِدَايَتَهُ لِتَأَلُّهِهِ وعِبَادَتِهِ وطَاعَتِهِ، التِي هيَ الصِّراطُ المُستَقيمُ في الدُّنيا، وهو رَبُّهُ الذِي يَمْلِكُ أنْ يُجِيزَهُ الصِرَاطَ المستقيمَ، ويُكْرِمَهُ بِدُخُولِ دَارِ كَرَامَتِهِ يومَ الدِّينِ فِي الآخرةِ؛ رَحْمَةً مِنْهُ بعبدِهِ، منْ غيرِ اسْتِحْقَاقٍ لِعَبْدِهِ مِنْهُ بِشَيءٍ.

* ويَشْهَدُ عندَ ذِكْرِ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ الذينَ أَنْعَمَ اللهُ تعالىٰ عليهِمْ مِنَ: النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحينَ، وأَنْ يُدْخِلَه فِي جُمْلَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ؛ فهوَ يشهدُ منْ سَبَقَ مِنْ إِخْوانِهِ الصِّدِّيقينَ، وفي أَوَّلِهِمْ: أبو بَكْرٍ رضي الله عنه، ويرجو أنْ يكونَ مَعَهُمْ ومِنْهُم وعلىٰ طَرِيقِهِمْ، كما يَشْهَدُ مَنْ سَبَقَهُ مِنْ إِخْوانِهِ الشُّهداءِ، وفي أَوَّلِهِمْ: سَيِّدُهُمْ حَمْزَةُ رضي الله عنه، ويرجو أنْ يُلْحِقَهُ اللهُ بهِمْ، كما يَشْهَدُ إِخْوانَهُ الصَّالِحينَ: مِنَ الصَّحَابَةِ والتَابِعِينَ ومَنْ تَبِعَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، ويَرْجُو أَلّا يُخَالِفَ طَرِيقَهُمْ، أو يَسْلُكَ غيرَ مَسْلَكِهِمْ.

* ويَشْهَدُ عندَ ذِكْرِ: ﴿غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ استعاذَتَهُ باللهِ، وفِرَارَهُ مِنْ هذينِ الوَصْفَينِ: فَيَشْهَدُ عِنْدَ (المَغضُوبِ عَلَيهِمْ) الذينَ عَرَفوا الحقَّ؛ ولكنَّهُمْ تنكَّبُوا طَرِيقَهُ عَنْ عِلْمٍ وهَوًىٰ، وفِي جُمْلَتِهِمْ: اليهودُ، ومَنْ وَالَاهُمْ، أو نَاصَرَهُمْ، أَوْ ظَاهَرَهُمْ. ويَشْهَدُ عندَ ذِكْرِ (الضَّالِّينَ) الذينَ ضَلُّوا طَريقَهُمْ إلىٰ اللهِ تعالىٰ، ولَمْ يَهْتَدُوا إلىٰ الحَقِّ البَيِّنِ الواضحِ

الجَلِيِّ، وهُوَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وفِي جُمْلَتِهِمْ: النَّصارَىٰ، ومَنْ وَالَاهُمْ، أو نَاصَرَهُمْ، أَوْ ظَاهَرَهُمْ.

❋ ويشهَدُ مَعَ كلِّ آيةٍ مِنْ آياتِ الفاتحةِ مُجاوَبَةَ الرَّبِّ تعالىٰ لَهُ، وثناءَهُ علَيْهِ عندَ كِرَامِ مَلَائِكَتِهِ، وتَصْدِيقَهِ إياهُ؛ كَمَا فِي حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي-، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي التَّأْمِينِ

أَنْ يَشْهَدَ بِقَلْبِهِ أَنَّهُ يَسْأَلُ اللهَ تعالىٰ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِكُلِّ مَسَائِلِهِ فِي الفاتِحَةِ، ثُمَّ يَشْهَدَ معنىٰ أَنَّ الملائكةَ تُشارِكُهُ هذا الدُّعاءَ لَهُمْ، فِإذَا وافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَهُمْ؛ كانتِ الكرامةُ له، وغُفْرَانُ ما تَقَدَّمَ مِنْهُ مِنَ الذُّنُوبِ.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي التِّلاوَةِ بَعْدَ الفَاتِحَةِ

أَنْ يكونَ حالُه فيها كَحالِهِ فِي الفاتِحَةِ؛ يَشْهَدُ بقلبِهِ معنَىٰ ما يقرأُ، وأَنَّهَا رسائِلُ اللهِ تعالىٰ إِلَيْهِ، فيهَا أَوَامِرُهُ ونَوَاهِيهِ وأَخْبَارُهُ؛ فَإِذَا ذُكِرَتْ صِفَاتُ اللهِ تَعالىٰ وأسماؤُهُ؛ شَهِدَ

---

(1) أخرجه مسلم، بَابُ وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ: 1/ 296، رقم: (395).

مَعَانِيهَا، وتَعَرَّفَ علىٰ رَبِّهِ بِهَا؛ فيمْتَلِئُ قلبُهُ مِنْ مَحبَّةِ مَنْ لَهُ الجَمَالُ وَالجَلَالُ، وَالإِحْسَانُ وَالكَمَالُ، ومنْ تعظيمِهِ والإِقْبالِ عَلَيهِ. وإذا ما ذُكِرَتِ النارُ؛ تَمَثَّلها تتَلَظَّىٰ بينَ عَيْنَيْهِ؛ فَخَافَ ربَّهُ أنْ يُلْقِيَهُ فِيهَا؛ إنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وعَصَاهُ؛ فَيَتَجَافَىٰ عنْ كُلِّ مَا يُقَرِّبُ منْها: مِنْ قَوْلٍ أو عَمَلٍ. وإذا ذُكِرَتِ الجَنَّةُ؛ تَمَثَّلَها تِلْقَاءَ وَجْهِهِ؛ وقدْ فُتِّحَتْ للمُطيعينَ أبوابُها؛ فيطيرُ قَلْبُهُ فَرَحًا واشْتِياقًا إليهَا، وسَارَعَ إلىٰ كلِّ مَا يُقَرِّبُ مِنْهَا: مِنْ قَوْلٍ أو عَمَلٍ. وإذا ما ذُكِرَتْ قَصَصُ الأنْبياءِ، وأخبارُ الأَوَّلينَ؛ تنَقَّلَ مَعَهُمْ بِرُوحِهِ وَوُجْدَانِهِ، كأَنَّهُ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، يَفْرَحُ لِنَصْرِهِمْ، ويَحْزَنُ لابْتِلائِهِمْ، وإذا ذُكِرَتْ أوامِرُ الرَّبِّ تعالىٰ؛ فَهِيَ علَىٰ الرَّأْسِ والعَيْنِ، وكانَ أَعْمَلَ الناسِ بِهَا؛ وإذا ذُكِرَتْ زَواجِرُهُ ونَواهِيهِ؛ كانَ أَنْأَىٰ الناسِ عنها. وهكَذا شَأْنُهُ فِي تِلَاوَتِهِ كُلِّهَا.

حظُّ القَلْبِ مِنَ الرُّكُوعِ

أنْ يَشْهدَ معنَىٰ تَعْظِيمِ اللهِ تَعَالىٰ؛ مُمْتَثِلًا أَمْرَ النَّبيِّ ﷺ: (فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ)، والعَظِيمُ: الكَبِيرُ الجَامِعُ؛ فَلَهُ جَمِيعُ صِفَاتِ العَظَمَةِ والكبرياءِ والمَجْدِ والبهاءِ في ذاتِهِ، وأَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، وأفعالِهِ، الذي تُحِبُّهُ القُلُوبُ، وتُعَظِّمُهُ الأَرْواحُ. وكُلُّ شَيْءٍ وكُلُّ عَظَمَةٍ مُضْمَحِلَّةٌ[1] في جانبِ عَظَمَةِ العَلِيِّ العَظِيمِ سُبْحانَهُ[2].

والتَّعْظِيمُ وَصْفٌ لِلْقَلْبِ نَاتِجٌ عنْ أَمْرَيْنِ، الأَوَّلِ: شُهُودُ مَعَانِي جَلالِ اللهِ تَعَالَىٰ وَعَظَمَتِهِ، والثَّانِي: شُهُودُ مَعَانِي فَقْرِ النَّفْسِ وَقِلَّتِهَا وَإِفْلَاسِهَا وانْكِسارِها.

---

(1) مُضْمَحِلَّةٌ: مُتَلَاشِيَةٌ لَا قِيمَةَ لَهَا وَلَا وَزْنَ، انظر: جَمْهَرَةَ اللُّغَةِ، لابن دريد: 2/ 1142.

(2) انظر: تَفْسيرِ أسماءِ اللهِ الحُسْنَىٰ، للسعدي: 1/ 216.

فَيَنْكَسِرُ قَلْبُهُ ويَفْتَقِرُ بانْكِسَارِ ظَهْرِهِ وانْحنَائِهِ لِسَيِّدِه، ثُمَّ يَلْهَجُ مُسَبِّحًا رَبَّه باسْمِهِ (العَظِيمِ)؛ فتَنْشَأُ فِي نَفْسِهِ حَقِيقَةُ التَّعْظِيمِ، ويَمْتَلِئُ بها قَلْبُهِ، وتَظْهَرُ عَلَىٰ بَدَنِهِ وجوارِحِهِ آثَارُهَا.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي القِيَامِ مِنَ الرُّكُوعِ

أَنْ يشهدَ معنَىٰ انْتِصابِهِ واقفًا بينَ يَدَيْ ربِّهِ بعدَ تَعْظِيمِهِ إِيَّاهُ، وأَنَّ اللهَ تعالىٰ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَحْمَدَهُ ويُثْنِيَ عَلَيْه، وأنَّ اللهَ تعالىٰ يَسْمَعُ لِعَبْدِهِ مَحَامِدَهُ فِي هذَا المَوْطِنِ الشريفِ، ويُعْجِبُهُ مِنْ عَبْدِهِ ذلكَ، ويُحِبُّهُ مِنْهُ؛ فَيَنْطَلِقُ لسانُ العبدِ مُواطِئًا لقلبِهِ بِحَمْدِ اللهِ تعالىٰ والثناءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ سُبْحانَهُ مِنْ مَأْثُورِ الأورادِ.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي السُّجُودِ

أَنْ يَشْهَدَ مَعَانِيَ الخُضُوعِ والتَّذَلُّلِ للهِ تعالىٰ، فَيَخِرَّ بِصَفْحَةِ وَجْهِهِ علَىٰ الأرضِ، ويُرْغِمُ أَنْفَ نَفْسِهِ للهِ علَىٰ الأرضِ، ويُمَكِّنُ جميعَ أَعْضَاءِ الصَّلَاةِ مِنْ أَخْذِ حَظِّهَا مِنَ التَّذَلُّلِ للهِ تعالىٰ علَىٰ الوَجْهِ الذِي يُحِبُّ، ثمَّ يَشْهَدُ بِقَلْبِهِ أَنَّه كُلَّما اقتربَ مِنَ الأرضِ، وتَصَاغَرَ لِسَيِّدِهِ؛ كُلَّمَا اقتربَ مِنْهُ سُبْحانَه، ثُمَّ يَلْهَجُ مُسَبِّحًا رَبَّهُ بِوَصْفِه (الأَعْلَىٰ)، فَيَشْهَدُ ربَّهُ الأعلَىٰ في ذاتِهِ، والأعلَىٰ في أسمائِهِ، والأعلَىٰ في صفاتِهِ، والأعلَىٰ في أفعالِهِ. فَجَميعُ معانِي العُلُوِّ ثابتةٌ لَهُ ﷻ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ: فَلَهُ عُلُوُّ الذاتِ فهُوَ مُسْتوٍ علَىٰ عَرْشِهِ، فَوْقَ جميعِ خَلْقِهِ، مُطَّلِعٌ علىٰ أَحْوالِهِمْ، مُشاهِدٌ لَهُمْ، مُدَبِّرٌ لأمورِهِمْ. ولهُ عُلُوُّ القَدْرِ، وهُوَ عُلُوُّ صِفاتِهِ، وعَظَمَتِهَا، فلا يُمَاثِلُهُ فِيهَا مَخْلُوقٌ، فَبِجَميعِ صفاتِ العُلُوِّ والعَظَمَةِ والكِبرياءِ، والجَلالِ والجَمالِ وغايةِ الكمالِ اتَّصفَ، وإِلَيْهِ فيها المُنْتَهَىٰ. «ولَهُ عُلُوُّ القَهْرِ؛ فَإِنَّهُ تعالىٰ

الواحدُ القَهَّارُ، الذِي قَهَرَ بِعِزَّتِه وعُلُوِّهِ الخَلْقَ كُلَّهمْ، فَنَوَاصِيهِمْ[1] بيدِه، وقضاؤُهُ نافِذٌ فِيهِمْ، وأَمْرُهُ غالبٌ لَهُمْ»[2]. فَيَقْتَرِبُ مِنْ ربِّهِ حِينَئِذٍ أقربَ ما يَكُونُ؛ فلْيسأَلْ ربَّهُ الأعلَىٰ حوائِجَه ومَسَائِلَهُ؛ فلا تَسَلْ ساعتَهَا عَنْ إكرامِ اللهِ تعالىٰ لهُ، وإجابَتِهِ مَسَائِلَهُ وحَوَائِجَهُ؛ فَلَا يَكَادُ يُرَدُّ لَهُ ساعَتَئِذٍ مطلوبٌ.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعانِي الجُلُوسِ بَينَ السَّجْدَتَيْنِ

أنْ يشهدَ معنَىٰ الجُثُوِّ عَلَىٰ الرُّكَبِ بينَ يَدَي ربِّهِ تعالىٰ بعدَ طُولِ السجودِ، جُثُوًّا يُذَكِّرُهُ بِجُثُوِّ الأُمَمِ يومَ القيامَةِ، وأنَّ جُثُوَّهُ هُنَا؛ يُهَوِّنُ عليهِ جُثُوَّهُ هُناكَ. ثمَّ يسأَلُ رَبَّهُ تعالىٰ مَسْأَلَةً تَجْمَعُ لَهُ دُنْيَاهُ وآخِرَتَهُ: المغفرةَ، والرَّحْمةَ، والجُبْرانَ، والرِّفْعَةَ، والمُعافَاةَ، والرِّزْقَ؛ فإنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ كلُّ هَذَا؛ فَقَدْ رَجَعَ بِخَيْرَيِ الدُّنيا والآخرةِ.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي التَّشَهُّدِ

أنْ يشهدَ نَفْسَهُ قبلَ أنْ ينصرفَ منْ بينِ يَدَيْ رَبِّهِ جَالِسًا مُتَأَدِّبًا مُتَخَشِّعًا، يُحَيِّي رَبَّهُ، ويُثْنِي عَلَيْهِ بِأَجَلِّ التَّحِيَّاتِ، فَجَميعُ التَّحِيَّاتِ المَوْصوفَةِ بالبَرَكَةِ التي تُحَيَّا بِها الملوكُ فَهِي للهِ تعالىٰ علىٰ أَكْمَلِ الوجوهِ، كَمَا أنَّ الصلواتِ الطيباتِ لا تَنْبَغِي إلَّا لَهُ تعالىٰ علىٰ أَكْمَلِ الوجوهِ، فَهُو سبحانَهُ طَيِّبٌ، ولا يَلِيقُ بِهِ إلا الطيباتُ مِنَ التحياتِ.

---

(1) النَّوَاصِي: جَمْعُ النَّاصِيَةِ، وَهِيَ مَنبتُ الشّعْرِ فِي مُقَدَّمِ الرَّأْسِ، وسُمِّيَ الشَّعْرُ نَاصِيَةً؛ لنَباتِه فِي ذَلِك الْمَوْضِعِ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 12/ 171.

(2) انْظُرْ: تَفْسِيرَ أسماءِ اللهِ الحُسْنَىٰ، للسعدي: 1/ 168.

ثم حينَ يقولُ: (السَّلامُ عَلَيكَ أَيُّها النَّبِيُّ) يشهدُ بقلبِهِ النَّبِيَّ ﷺ مُسَلِّمًا عليهِ، فتتلاشَىٰ حينَها الأزمانُ والبِقاعُ، فإذا هوَ يُسلِّمُ عَلَيهِ بأدبِ الصَّحَابةِ الكرامِ ﭬ حينَ كانُوا يُكَلِّمُونَهُ، ويُسَلِّمُونَ عَلَيهِ، والنَّبِيُّ ﷺ يُجِيبُهُ، ويردُّ عليهِ بأحسنَ منها، مِمَّا عَلَّمَه اللهُ تَعَالىٰ.

ثمَّ يشهدُ بقلبِهِ حينَ يقولُ: (السلامُ علينا وعلَىٰ عبادِ اللهِ الصالحينَ) أنَّه يَسلِّمُ علىٰ سَائرِ عبادِ اللهِ الصالحينَ، والذينَ منهُمْ أشرفُ خلقِ اللهِ تَعَالَىٰ، وهُمُ الملائكةُ الكرامُ، والأنبياءُ والمرسلونَ، وأَتْباعُهُمْ، وعلَىٰ الصَّحَابَةِ البَرَرَةِ، وأتباعِهِمْ، وأنَّه يُسَلِّمُ علىٰ إخوانِهِ منَ الإنسِ والجِنِّ، وهوَ يدخلُ في جُملتِهِم، فيُسَلِّمُ علىٰ نفسِهِ وعلىٰ آبائِهِ وأجدادِهِ، وعلىٰ أولادِهِ وأحفادِهِ؛ لقولِهِ ﷺ: «فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ؛ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ فِي السَّمَاءِ أَوْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»[1]، فليسَ لأحدٍ منْهُ إلا السلامُ المُتَضَمِّنُ معنَىٰ السلامةِ منَ الأَذَىٰ مِنْهُ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ تعالىٰ.

ثمَّ يشهدُ بقلبِهِ للهِ تعالىٰ بالوحدانيَّةِ، ولِنَبِيِّهِ ﷺ بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ؛ ولهذِهِ الشهادةِ في هذا الموطِنِ ذَوْقٌ خاصٌّ؛ فَهِيَ توحيدٌ للهِ بالأُلُوهيةِ والعبادَةِ، وهوَ مُتَلَبِّسٌ بِأَجَلِّ عبادةٍ، وهيَ شهادةٌ بِأَنَّه لا تَصِحُّ العبادةُ والألوهيةُ إلا باتِّباعِ رسولِهِ ﷺ، فهيَ توحيدٌ للمعبودِ تعالىٰ، وتوحيدٌ للمَتْبوعِ ﷺ؛ فَلَوِ اسْتَفْتَحَ العبدُ كلَّ بابٍ، وسَلَكَ كُلَّ طريقٍ؛ فَلَنْ يُفْتَحَ لَهُ إلا مِنْ بَوابَةِ محمدٍ ﷺ، ولَنْ يَصِلَ إلَّا مِنْ طريقِهِ ﷺ.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعَانِي الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

أَنْ يَشْهَدَ بِقَلبِهِ حينَ يُصلِّي علىٰ النبيِّ ﷺ أَنَّهُ يسأَلُ ربَّهُ تعالَىٰ أَنْ يُصَلِّيَ ويُبارِكَ عَلَىٰ رسولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، والصلاةُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ ثناؤُهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ فِي المَلَأِ الأَعْلَىٰ، والرَّحْمَةُ

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ التَّشَهُّدِ فِي الْأُولَىٰ: 1/ 167، رقم: (835).

لِسَائِرِ العِبَادِ، كَمَا صَلَّىٰ وبارَكَ علىٰ رسولِهِ إبراهيمَ، كَمَا يشهدُ أَنَّه يسألُ ربَّهُ الصلاةَ والبَرَكَةَ لنفسِهِ ولجميعِ إخوانِهِ المُسْلِمينَ حينَ يقولُ: (وعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ)؛ فإِنَّ آلَ الرَّجُلِ كُلُّ مَنْ تابَعَهُ علىٰ دِينِهِ. يَسْأَلُهُ هَذِهِ المسائلَ مُتَوَسِّلًا إليهِ؛ لإجابتِها بوَصْفِ (الحَمِيْد) الذِي لَهُ كمالُ الحمدِ والثناءِ، وبِوَصْفِ (المَجِيد)، والمَجِيدُ: بِمَعْنَىٰ السَّعةِ والكَرَمِ والشَّرفِ الكثيرِ، ومَنْ لَهُ أوصافُ العَظَمَةِ والجَلالِ، فَهُوَ الذِي يَسعُهُ سبُحانَهُ أنْ يُجيبَ عَبْدَهُ إلىٰ كلِّ ما سألَ.

حَظُّ القَلْبِ مِنْ مَعانِي الدُّعَاءِ بعدَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَبْلَ التَّسْلِيمِ

أَنْ يشهدَ أنَّه يَتوَسَّلُ بالصلاةِ علَىٰ النبيِّ ﷺ، بينَ يدَيْ دعائِه؛ استعدادًا لِرَفْعِ حوائِجِهِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ، فإنَّها مِنْ أعظمِ الوسائلِ بين يَدَيِ الدُّعاءِ. ثمَّ يَشْهَدُ وهو يستعيذُ باللهِ منَ المُعَوِّذاتِ الأَرْبَعِ[1]؛ اعتصامَهُ باللهِ، ولُجُوءَهُ إليهِ؛ لِيَحْمِيَهُ ويَعْصِمَهُ منها، ويُخَلِّصَهُ منْ شَرِّها.

ثمَّ يتخيَّرُ منَ المسألَةِ بعدَ السلامَةِ منْ هذهِ الخمسةِ، ما يشاءُ منْ أَمْرِ دِينِهِ ودنياهُ[2].

فإِنَّ هذا مَوْطنٌ مِنْ مواطِنِ الإجابَةِ شريفٌ؛ لا يكادُ أنْ يُرَدَّ معهُ دعاءٌ؛ فإنَّ العبدَ إذا قَضَىٰ ما للهِ عليهِ منْ حقِّ الصلاةِ؛ لاسِيَّمَا إذا أَدَّاها علَىٰ الوَجْهِ الذِي يُحبُّهُ اللهُ منهُ؛ كانَ حقًّا علَىٰ

---

(1) إِشَارَةٌ إِلَىٰ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»، أخرجه مسلم، بَابُ مَا يُسْتَعَاذُ مِنْهُ فِي الصَّلَاةِ: 1/ 412، رقم: (588).

(2) صَحَّتْ أَدْعِيَةٌ مَأْثُورَةٌ فِي هَذَا المَوْطِنِ؛ فَلْتُرَاجَعْ فِي مَوْطِنِهَا مِنْ كُتُبِ الأَذْكَارِ والفِقْهِ.

اللهِ تعالىٰ أنْ يُعْطِيَ عَبْدَه مَا رَجَا وتَمَنَّىٰ؛ ويُؤَمِّنَهُ مِمَّا خافَ واستعاذَ؛ فإنْ كانَ العبدُ لِرَبِّه كما يُحِبُّ؛ كانَ اللهُ تعالَىٰ لِعَبدِهِ فوقَ ما يُحِبَّ.

حظُّ القَلْبِ مِنْ مَعانِي التّسْلِيمِ

أنْ يَشْهَدَ حينَ يُسَلِّمُ لِلْخُروجِ منَ الصلاةِ، أنَّه يُسَلِّمُ علَىٰ مَنْ علىٰ يَمينِهِ مِنَ الملائكةِ الكرامِ البَرَرَةِ، وعلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ إخوانِهِ المُسْلمينَ، وعلَىٰ مَنْ حَضَرَ مِنْ إخوانِهِ مِنْ مُسْلِمِي الجِنِّ، يُسَلِّمُ عليهِمْ بِوَصْفِ السلامِ، فهوَ عَهْدٌ مِنْهُ أنْ يكونَ سلامًا لكلِّ مَنْ سَمِعَها، فَهُوَ سلامٌ للملائكةِ، فلا يُشْهِدُهُمْ مِنْ نَفْسِهِ إلا كُلَّ فِعْلٍ جَميلٍ، وقَوْلٍ جَميلٍ، وسلامٌ لإخوانِهِ مِنَ الإِنْسِ والجِنِّ، فلا يكونُ منْهُ نَحْوَهُمْ إلا كُلُّ سلامٍ، وكُلُّ فِعْلٍ جَميلٍ، وقَوْلٍ جَميلٍ.

ثُمَّ يَحْضُرُهُ بَثُّهُ وحُزْنُهُ، لِقُرْبِ انصرافِهِ مِنَ بينِ يَدَيْ رَبِّهِ تعالىٰ وخروجِهِ مِنْ صَلَاتِهِ التِّي هِيَ قُرَّةُ عَيْنِهِ، ولذَّةُ نَفْسِهِ، ونُزْهَةُ رُوحِهِ فِي مَلَكُوتِ رَبِّهِ، ورِياضَةُ جَوارِحِهِ، فَهِيَ جَنَّتُهُ في دنياهُ، وهُوَ فِي نَعِيمِهَا يَتَقَلَّبُ ما دامَ مُصَلِّيًا؛ فَيُعاوِدُهُ الشَّوْقُ إِلَىٰ أَخَواتِها مِنَ الصلواتِ، والحَنِينُ إِلَىٰ مِثْلِهَا، للدُّخُولِ علىٰ رَبِّهِ مِنْ جَدِيدٍ.

قالَ ابْنُ قُدَامَةَ: «وَاعْلَمْ: أَنَّ أَدَاءَ الصَّلَاةَ بِهَذِهِ الشُّرُوطِ البَاطِنَةِ سَبَبٌ لِجَلَاءِ القَلْبِ مِنَ الصَّدَأِ، وَحُصُولِ الأَنْوَارِ فِيهِ، التِي بِهَا تَتَلَمَّحُ عَظَمَةُ المَعْبُودِ سُبْحانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَتَطَّلِعُ عَلَىٰ أَسْرَارِهِ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ. فَأَمَّا مَنْ هُوَ قَائِمٌ بِصُورَةِ الصَّلاةِ دُونَ مَعَانِيهَا، فَإِنَّهُ لَا يَطَّلِعُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بَلْ لَعَلَّهُ أَنْ يُنْكِرَ وُجُودَهُ»[1].

---

(1) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي: 1/ 32.

فوائدُ فِي حَظِّ القَلْبِ مِنَ الصَّلَاةِ

* أَوَّلًا: ما ذُكِرَ من حَظِّ القَلْبِ منْ مَعانِي الخشوعِ عَقِبَ كلِّ صِفَةٍ هُوَ بَعْضُ المعانِي التِي فَتَحَ اللُّه تعالىٰ بِهَا عَلينَا؛ وَلَيْسَ بالضَّرُورَةِ أنْ يَشْهدَ العَبْدُ كُلَّ هَذِهِ المَعَانِي؛ فلو شَهِدَ شيئًا منْها فِي كُلِّ صلاةٍ؛ فَقَدْ حَصَلَ المَقْصُودُ؛ فالمُهِمُّ أنْ يكونَ العبدُ حاضِرًا بِقَلْبِهِ ورُوحِهِ في الصَّلاةِ.

* ثَانِيًا: قدْ يَشْهَدُ العبدُ منْ معانِي الخُشوعِ ما لَمْ نَذْكُرْ؛ فَلا حَرَجَ مَا دامَتِ المشاهدُ مَضْبُوطَةً بِحُدودِ الشَّرْعِ؛ فوراءَ ما ذَكَرْنا مِمَّا لَمْ نُدْرِكْ مَا لا يَخْطُرُ عَلَىٰ قَلْبٍ. واللهُ تعالىٰ الفتاحُ العليمُ، فَقَدْ يفتحُ علَىٰ العبدِ مِنْ فُتُوحِ مَعَانِي الخَيْرِ مالَمْ يفتحْ عَلَىٰ غَيْرِهِ، بلْ قَدْ يَفْتَحُ عليهِ فِي صَلاةٍ مالمْ يَجِدْ هُوَ نَفْسُهُ فِي غَيْرِها.

* ثَالِثًا: لا حَرَجَ فِي تَكَلُّفِ اسْتِدْعاءِ معانِي الخُشوعِ التِي ذُكِرَتْ وغيرِهَا مَعَ كُلِّ صِفَةٍ؛ فَإِنَّ التَّكَلُّفَ فِي مبادِئِ الأُمُورِ لا يُذَمُّ. فالخُشوعُ بالتَّخَشُّعِ؛ فَلَا يزالُ العبدُ يَتَخَشَّعُ فِي صلاتِهِ وعبادَتِهِ، ويَسْلُكُ كُلَّ مَسْلَكٍ يُبَلِّغُهُ إياهُ؛ ويَسْأَلُ ربَّهَ بِصِدْقٍ أنْ يَرْزُقَهُ الخشوعَ؛ حَتَّىٰ يُبَلِّغَهُ اللهُ تعالىٰ مَا رَجَا؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ إنْ رَأَىٰ مِنْ عَبْدِهِ صِدْقَ مَقْصُودِهِ واجتهادِهِ فِي بلوغِهِ؛ رَزَقَهُ اللهُ تَعالَىٰ مِنَ الخُشُوعِ حَظًّا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ لَهُ عَلَىٰ بَالٍ؛ فإنَّهُ تَعَالَىٰ أَكْرَمُ مِنْ أنْ يَمْنَعَ عَبْدًا صادِقًا خيرًا وفضلًا، أَوْ أَنْ يَرُدَّ يَدَيْهِ خائِبَتَيْنِ صِفْرًا.

الخَامِسُ: تَذَكُّرُ المَوْتِ

وَفِي ذِكْرِ المَوْتِ دَوَاءٌ نَافِعٌ لِدَفْعِ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَخَطَرَاتِهِ، وَجَمْعِ الهَمِّ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كَمَا فِيهِ دَوَاءٌ لِكُلِّ دَاءٍ، فَذِكْرُ المَوْتِ شِفَاءٌ لِكُلِّ الرُّؤُوسِ المَرِيضَةِ، والقُلُوبِ العَلِيلَةِ، والنُّفُوسِ السَّقِيمَةِ، فَكَيْفَ يَغْفُلُ عَمَّا يَنْفَعُهُ فِي آخِرَتِهِ مَنْ يُوقِنُ بِقُرْبِ

المَوْتِ وَدُنُوِّهِ، وَيَنْتَظِرُ كُلَّ حِينٍ أَنْ يَهْجُمَ عَلَيْهِ مَلَكُ المَوْتِ وَأَعْوانُهُ؛ فَيَنْقُلُهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ إِلَىٰ القُبُورِ والظُّلُماتِ وَشِدَّةِ السُّؤالِ. فلَا يَكُونُ مِنْهُ إِلَّا الاعْتِذَارُ والتَّوَسُّلُ والرَّجَاءُ، وَالتَّعَلُّقُ بِرَبِّ الأَرْضِ وَالسَّماءِ؛ لِذَلِكَ كانَتِ الوَصِيَّةُ بِهِ عِنْدَ الصَّلاةِ التِي هِيَ أَرْجَىٰ أَعْمالِ العَبْدِ، وَأَحَبُّها إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ؛ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا، وَإِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ»[1]؛ وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ ﷺ، قَالَ: جاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي، وَأَوْجِزْ، قَالَ: «إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ، فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ، وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ»[2].

فَإِذَا ذَكَرَ العَبْدُ المَوْتَ فِي صَلاتِهِ؛ أَخْلَصَهَا، وأَتْقَنَهَا، وَأَحْسَنَ خُشُوعَهَا، وَهِيَ دَوَاءٌ لِكُلِّ عِبادَةٍ يُرَادُ لَهَا الخُشُوعُ والإِتْقانُ.

فَكُلَّمَا هَجَمَتْ عليهِ وارداتُ الدُّنيا؛ تَصَدَّىٰ لَهَا بِوَارِدَاتِ الآخِرَةِ، وأغلَقَ دونَها مَنافِذَ الفِكْرِ، وفَتَحَ لَهَا مَنَافِذَ وارِدَاتِ الآخرةِ؛ فَيَسْتَدْعِي ذِكْرَ هُجُومِ المَوْتِ ومقدِّماتِهِ عَلَيْهِ، وأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ حِيلَةٌ إِلَىٰ دَفْعِهِ وردِّهِ عنْهُ، وأَنَّها لعلَّها أنْ تكونَ آخرَ صلاةٍ يُصَلِّيها، وأَنَّهُ إِذا ماتَ؛ حَاسَبَهُ اللهُ تعالَىٰ عَلَىٰ هذهِ الصلاةِ الَّتي لا خُشوعَ فيهَا؛

---

(1) أخرجه السُّيُوطِيُّ في الفتح الكبير في ضم الزيادة إلىٰ الجامع الصغير: 1/ 153، رقم: (1580)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(2) أخرجه ابن ماجه، بَاب الْحِكْمَةِ: 2/ 1396، رقم: (4171)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ.

فإذا عزَّ عليهِ استحضارُ مَوْتِهِ؛ فَلْيَتَذَكَّرْ مَوْتَ عَزِيزٍ حَبِيبٍ، قَرِيبِ عَهْدٍ بِمَوتٍ، كيفَ خرجَ منَ الدُّنيا أَسْرَعَ مَا يكونُ.

فلا دواءَ أَنْفَعُ لخشوعِ العبدِ في صلاتِهِ مِنْ تَذْكَارِ الموتِ؛ إذْ هِيَ وَصْفَةُ رسولِ اللهِ ﷺ، وعَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ يَنْشُدُ الخُشُوعَ، وَجَمْعَ هَمِّهِ عَلَىٰ صَلَاتِهِ، إِذَا هَجَمَتْ عَلَيْهِ وارِدَاتُ الدُّنيا؛ أَنْ يتَصَدَّىٰ لَهَا بوارداتِ الآخرةِ، ويُغلِقَ دونَها مَنافِذَ الفِكْرِ، ويَفْتَحَ لَهَا منافِذَ وارِدَاتِ الآخرةِ؛ فيستدعِي ذِكْرَ هُجُومِ المَوْتِ ومقدِّماتِهِ عليهِ. فَإِذَا دَاوَمَ العَبْدُ عَلَىٰ ذِكْرِ المَوْتِ في صَلَاتِهِ؛ تَبَدَّدَتْ وَسَاوِسُهُ، وَأَتَاهُ الهَمُّ والخُشُوعُ أَسْرَعَ مَا يَكُونُ، وَهَذَا مُجَرَّبٌ مَعْلُومٌ.

السّادِسُ: التَّقَلُّلُ مِنَ الدُّنْيا

لَا أَضَرَّ عَلَىٰ شَتَاتِ فِكْرِ العَبْدِ فِي صَلَاتِهِ وعِبَادَاتِهِ كُلِّهَا مِنْ تَعَلُّقِ قَلْبِهِ فِي الدُّنْيَا، بِحَيْثُ تَكُونُ هَمَّهُ، وَمَوْضِعَ فِكْرِهِ، فَإِنَّهُ مَتَىٰ امْتَلَأَ القَلْبُ مِنَ الدُّنْيا تَرَحَّلَتْ عَنْهُ الآخِرَةُ؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ[1]، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ[2]، وَمَنْ

---

(1) جَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، أَيْ: جَمَعَ لَهُ مَا تَشَتَّتَ مِنْ أُمُورِهِ الْمُتَفَرِّقَةِ بِأَنْ جَعَلَهُ مَجْمُوعَ الْخَاطِرِ بِتَهْيِئَةِ أَسْبَابِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ بِهِ، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 8/ 3334.

(2) رَاغِمَةٌ، أَيْ: مَقْهُورَةٌ ذَلِيلَةٌ حَقِيرَةٌ تَابِعَةٌ لَهُ، لَا يَحْتَاجُ فِي طَلَبِهَا إِلَىٰ سَعْيٍ كَثِيرٍ، بَلْ تَأْتِيهِ هَيِّنَةً لَيِّنَةً، عَلَىٰ رَغْمِ أَنْفِهَا وَأَنْفِ أَرْبَابِهَا، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 8/ 3334.

كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ[1]، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»[2].

وَإِنَّ الدُّنيا: هِيَ كُلُّ مَا سِوَىٰ اللهِ تعالَىٰ: مِنْ مَالٍ، وَأَهْلٍ، ووَلَدٍ؛ فَمَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِشَيْءٍ مِنْهَا؛ أَخَذَتْ عَقْلَهُ، وَعَمِلَتْ فِيهِ مَفْعُولَ السِّحْرِ، حتَّىٰ يَغِيبَ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ صَلاتِهِ؛ فَعَنْ جَعْفَرَ بْنِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ، يَقُولُ: «اتَّقُوا السَّحَّارَةَ؛ فَإِنَّهَا تَسْحَرُ قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ» يَعْنِي الدُّنْيَا[3]. وَقَدْ «قالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[4]، وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ لَمْ يَشْرَبْ خَمْرًا، هُوَ فِي صَلَاتِهِ لَا يَعْلَمُ مَا يَقُولُ، قَدْ أَسْكَرَتْهُ الدُّنْيا بِهُمُومِهَا والعِياذُ باللهِ تَعَالَىٰ، لَيْسُوا بِسُكَارَىٰ العُقُولِ، ولكِنَّهُمْ سُكَارَىٰ الدُّنْيا وَحُظُوظِهَا الفَانِيَةِ»[5]. فأَنَّىٰ لِقَلْبٍ تَعَلَّقَ بالدُّنْيا واسْتَكْثَرَ مِنْهَا أَنْ يَجِدَ الخُشُوعَ، أَوْ أَنْ يَلْتَذَّ بِطَاعَةٍ، فَمَا إِنْ يَدْخُلُ صَاحِبُ الدُّنْيا صَلَاتَهُ؛ حتَّىٰ يَشْتَغِلَ فِكْرُهُ بالدُّنْيا، فَتَسْتَرِقُهُ الدُّنْيَا، وَتَأْخُذُهُ مِنْ صَلَاتِهِ وَتِلَاوَتِهِ وَذِكْرِهِ، وَتَنْقُلُهُ بَيْنَ أَوْدِيَةِ الدُّنْيا وَشِعَابِها، فَهُوَ مَرَّةً فِي السُّوقِ، وَمَرَّةً فِي العَمَلِ، وَمَرَّةً مَعَ الزَّوْجَةِ، وَمَرَّةً مَعَ الصَّاحِبِ، وَمَرَّةً يُحْصِي الأَمْوالَ، وَمَرَّةً يَصْنَعُ الصِّنَاعَاتِ، وَهَكَذَا شَأْنُهُ، حتَّىٰ إِذَا انْتَهَتْ صَلَاتُهُ، وَسَلَّمَ إِمَامُهُ؛ اسْتَيْقَظَ مِنْ غَفْلَتِهِ، وَتَذَكَّرَ أَنَّهُ كَانَ فِي صَلَاةٍ، وَلَوْ حَاوَلَ انْتِزَاعَ نَفْسِهِ مِنْهَا لَمَا

---

(1) فَرَّقَ اللهُ شَمْلَهُ، أَيْ: شَتَّتَ مَا اجْتَمَعَ مِنْ أَمْرِهِ، تحفة الأحوذي، للمباركفوري: 7/ 140.

(2) أخرجه الترمذي في سننه، بَابٌ: 4/ 642، رقم: (2465)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(3) حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الأَصْفِيَاءِ، لِأَبِي نُعَيْمٍ: 2/ 364.

(4) النساء: 43.

(5) أرشيف منتدىٰ الألوكة: 1/ 1.

اسْتَطَاعَ؛ لِعَظِيمِ سُلْطَانِ الدُّنْيا عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَقُوَّةِ اسْتِحْوَاذِهَا وَسَيْطَرَتِهَا عَلَيْهِ، فَهُوَ إِنْ فَكَّرَ؛ فَكَّرَ لَها، وإِنْ عَمِلَ؛ عَمِلَ لها، وإِنْ تَكَلَّمَ؛ تَكَلَّمَ بِهَا، وإِنْ أَرَادَ الاشْتِغَالَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لَمْ تَأْذَنْ لَهُ، فَبَدَنُهُ فِي الطَّاعَةِ، وقلبُهُ فِي حُبُوسِ الدُّنْيا؛ فَأَنَّىٰ لِمَنْ هَذَا حَالُهُ أَنْ يَجِدَ الخُشُوعَ، وَأَنْ يَذُوقَ طَعْمَ المَحَبَّةِ.

وإِنَّ مَنْ كَثُرَ اشْتِغَالُهُ بِالدُّنْيا؛ تَعَلَّقَ بِهَا قَلْبُهُ، واشْتَغَلَ بِهَا فِكْرُهُ؛ أَضَرَّ هَذَا بِخُشُوعِ صَلاتِهِ، وَبِأَمْرِ آخِرَتِهِ، وَهَذَا مَعْنَىٰ الحَدِيثِ الذِي رَواهُ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ؛ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ؛ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ مَا يَفْنَىٰ»[1]، وَكَمَا قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الدُّنْيَا والآخِرَةُ ضَرَّتَانِ، فَبِقَدْرِ مَا تُرْضَىٰ إِحْداهُمَا؛ تَسْخَطُ الأُخْرَىٰ»[2]؛ لِذَلِكَ شُرِعَ للعَبْدِ الإِبْرادُ بالظُّهْرِ[3]، وَأَنْ يَبْدَأَ بِطَعَامِهِ قَبْلَ صَلَاتِهِ؛ وَكُرِهَ لَهُ الصَّلاةُ وَهُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ: البَوْلُ، والغَائِطُ، وأَنْ يُصَلِّيَ إِلَىٰ مَكَانٍ فِيهِ زَخْرَفَةٌ؛ تُلْهِي عَنِ الصَّلَاةِ، وَعَنْ كُلِّ مَا يُلْهِي القَلْبَ، وَيَشْغُلُ الفِكْرَ؛ كُلُّ هَذَا حتَّىٰ يَتَفَرَّغَ القَلْبُ للصَّلَاةِ، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «إِنَّ مِنْ فِقْهِ الْمَرْءِ إِقْبَالَهُ عَلَىٰ حَاجَتِهِ؛ حَتَّىٰ يُقْبِلَ عَلَىٰ صَلَاتِهِ وَقَلْبُهُ فَارِغٌ»[4].

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: 32/ 470، رقم: (19697)، وقال الألباني في موارد الظمآن إلىٰ زوائد ابن حبان: «صحيح لغيره».

(2) إحياء علوم الدين، للغزالي: 3/ 209.

(3) الإِبْرَادُ بِالظُّهْرِ: تَأْخِيرُهُ إِلَىٰ أَنْ تَخِفَّ حِدَّةُ الْحَرِّ، وَيَتَمَكَّنَ الذَّاهِبُونَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ مِنَ السَّيْرِ فِي ظِلَالِ الْجُدْرَانِ، انظر: الموسوعةَ الفقهية الكويتية، لوزارة الأوقاف الكويتية والشئون الإسلامية: 7/ 177.

(4) تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِيِّ: 1/ 185، والزهد والرقائق، لابن المبارك، والزهد، لنعيم بن حماد: 1/ 402.

«واعْلَمْ: أَنَّ قَطْعَ حُبِّ الدُّنْيا مِنَ القَلْبِ أَمْرٌ صَعْبٌ، وَزَوَالُهُ بالكُلِّيَّةِ عَزِيزٌ، فَلْيَكُنِ الاجْتِهَادُ فِي المُمْكِنِ مِنْهُ»(1). فَإِنَّ مِنَ الدُّنْيا مَا يُحْمَدُ؛ فَالدُّنْيَا مَمَرُّ الآخِرَةِ وَطَرِيقُهَا الذِي لَا بُدَّ مِنْ سُلُوكِهِ، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ سَالِكِ طَرِيقٍ أَنْ يَأْخُذَ لَهُ عُدَّتَهُ وَجهَازَهُ؛ لِذَلِكَ لَزِمَ الأَخْذُ مِنَ الدُّنْيَا؛ لِمَا يُبَلِّغُ الآخِرَةَ؛ بَحَيْثُ لَا يَسْتَكْثِرُ؛ فَيَثْقُلُ سَيْرُهُ، وَإِنَّما يُحْمدُ مِنَ الدُّنْيَا ما يُقَرِّبُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمَا وَالاهُ(2)، وَعالِمًا وَمُتَعَلِّمًا»(3). وَفِي رِوَايَةٍ للبَيْهَقِيِّ: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا للهِ ﷻ»(4).

فَلا سَبِيلَ إِلَىٰ إِخْرَاجِ الدُّنْيا مِنَ القَلْبِ لِمَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ إِلَّا أَنْ يَتَقَلَّلَ مِنْ مُبَاحَاتِهَا مِمَّا لَا يَنْفَعُهُ فِي آخِرَتِهِ، وَأَلَّا يَشْتَغِلَ مِنْهَا إِلَّا بِمَا يَلْزَمُهُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ فِيها.

وَلَسْنَا هُنَا نَدْعُو إِلَىٰ أَنْ يَتْرُكَ النَّاسُ العَمَلَ؛ حَتَّىٰ يَفْتَقِرُوا، وَيَكُونُوا عَالَةً عَلَىٰ النَّاسِ، وَإِنَّمَا نَدْعُو للتَّقَلُّلِ مِنْهَا؛ فَلَا يَجْمَعُونَ مَا لَا يَأْكُلُونَ، وَلَا يَبْنُونَ مَا لَا يَسْكُنُونَ، وَأَلَّا يَزِيدُوا عَنِ الحَدِّ فِي أَصْنَافِ الطَّعَامِ، وَزِينَةِ البُيُوتِ والمَرَاكِبِ والمَلَابِسِ، فَإِذَا مَا انْفَتَحَتْ لَهُمْ

---

(1) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي: 1/ 32.

(2) مَا وَالاهُ: أَيْ مَا قَارَبَ ذِكْرَ اللهِ تَعالَىٰ وأَشْبَهَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ تَعالَىٰ مِنْ أَعْمَالِ البِرِّ، انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن عَلَّانَ: 4/ 410.

(3) أخرجه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في هوان الدنيا علىٰ الله ﷻ: 4/ 561، رقم: (2322)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(4) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: الزهد وقصر الأمل: 13/ 109، رقم: (10031)، وله شاهد من حديث أبي هريرة السابق.

أَبْوابُ الدُّنْيَا، أَخَذُوهَا؛ لِيَنْفَعُوا بِهَا النَّاسَ، وَوَضَعُوهَا فِي أَهْلِها؛ فَتَكُونُ الدُّنْيَا فِي يَدِهِ لَا فِي قَلْبِهِ، لَا يَفْرَحُ لِإِقْبَالِهَا، وَلَا يَحْزَنُ لِإِدْبَارِهَا؛ كَمَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ ﵁، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَضُرُّه كَثِيرُ الدُّنْيا، وَلَا قَلِيلُهَا.

وَهَذَا هُوَ الزُّهْدُ الذِي تَحَدَّثَ عَنْهُ العُلَمَاءُ، قالَ ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ يَقُولُ: الزُّهْدُ: تَرْكُ مَا لَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ. وَالْوَرَعُ: تَرْكُ مَا تَخافُ ضَرَرَهُ فِي الْآخِرَةِ. وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ وَأَجْمَعِهَا»[1].

فَلَا تَخْرُجُ الدُّنْيا مِنَ القَلْبِ، ولَا يَسْلَمُ العَبْدُ مِنْهَا إِلَّا بالزُّهْدِ فِي مُبَاحَاتِهَا؛ فَضْلًا عَنْ تَرْكِ مُشْتَبَهَاتِهَا؛ قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الجُنَيْدِ: «فَأَهْلُ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ قَوَّامُونَ بِأَمْرِ اللهِ ﷿، قَطَعُوا مَحَبَّتَهُمْ بِمَعْرِفَةِ رَبِّهِمْ، وتَرَكُوا الدُّنْيا لِطَاعَةِ مَلِيكِهِمْ، فَهُمْ يُلْهَمُونَ الحَقَّ، ويُوَفَّقُونَ لِلتَّوْفيقِ، وَيَنْظُرُونَ بِنُورِ اللهِ ﷿، وَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالاسْتِكانَةِ، ويَتْلونَ القُرْآنَ بِفَهْمٍ وفِكْرَةٍ، طَابَتْ قُلُوبُهُمْ، وطَهُرَتْ مِنَ الأَدْنَاسِ والأَقْذَارِ، لَا تُشْبِهُ قُلُوبَ أَهْلِ الحِرْصِ والطَّمَعِ والشَّرَهِ والهَوَىٰ والآمَالِ»[2].

السَّابِعُ: تَرْكُ المَعَاصِي

حَرَامٌ عَلَىٰ قَلْبٍ تَدَنَّسَ بِأَوْسَاخِ المَعَاصِي، ونَجَاسَاتِ الآثَامِ أَنْ يَذُوقَ حَلَاوَةَ الخُشُوعِ، ولَذَّةَ العِبادَةِ حتَّىٰ يَطْهُرَ مِنْهَا، وَيَتَخَلَّصَ مِنْ آثَارِهَا، فَقَلْبٌ تَدَنَّسَ بِأَدْناسِ المَعاصِي، وتَلَطَّخَ بِأَقْذارِ الآثَامِ مَحْجُوبٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَيَنْبَغِي عَلَىٰ العَبْدِ الذِي يَطْلُبُ الخُشُوعَ فِي صَلَاتِهِ ويَنْشُدُهُ، ويَرْجُو حُصُولَهُ فِي قَلْبِهِ وَجَوارِحِهِ أَنْ يُقْلِعَ عَنْ سَائِرِ

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 2/ 12.

(2) المحبة لله، لإبراهيم بن الجنيد الختلي: 1/ 44.

المَعَاصِي جُمْلَةً: مَعَاصِي القَلْبِ، والعَيْنِ، والأُذُنِ، واللِّسَانِ، والبَطْنِ، والفَرْجِ، واليَدِ، والرِّجْلِ، والبَدَنِ كُلِّهِ، ويَتَطَهَّرَ مِنْهَا جُمْلَةً بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ، «فالنَّمَّامُ، والكَذَّابُ، والمُغْتَابُ، وشَاهِدُ الزُّورِ، وقَاذِفُ المُحْصَنِ، والقَائِلُ علَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ورسولِهِ ﷺ ما لا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وآكِلُ الرِّبَا، وآكِلُ أموالِ اليتامَىٰ، وآكِلُ السُّحْتِ مِنَ الرشْوَةِ[1] والبرْطِيلِ ونَحْوِهِمَا، وآكِلُ مالِ أخيهِ المُسلِمِ بغيرِ حَقٍّ، والسَّارِقُ، والخَائِنُ، والغَادِرُ، والمُخادِعُ، والمَاكِرُ، وآخِذُ الرِّبَا، ومُعْطيهِ، وكاتِبُهُ، وشاهِداهُ، ومُؤْذِي المُسلمينَ، ومُتَتَبِّعُ عورَاتِهِمْ، والذِي يَشْتَغِلُ بعيوبِ النَّاسِ عَنْ عيبِهِ، وبِذُنوبِهِمْ عنْ ذنْبِهِ، والمُعينُ علَىٰ الإِثْمِ والعُدْوانِ، وقاتِلُ النَّفْسِ التِي حَرَّمَ اللهُ، والنَّائِحَةُ[2]، والجبَّارونَ، والمُتكبِّرونَ، والمُراؤُونَ، والهَمَّازُونَ، واللَّمَّازُونَ، والذينَ يأتُونَ الكَهَنَةَ والمُنَجِّمينَ والعَرَّافينَ[3]، والذِي يَحلِفُ باللهِ تَعَالَىٰ ويَكْذِبُ، والفاحِشُ

---

(1) الرِّشْوَةُ: مُثَلَّثَةً، يَجُوزُ فِيهَا كَسْرُ الرَّاءِ وضَمُّهَا وفَتْحُهَا، وَهِيَ بِمَعْنَىٰ البَرْطِيلِ، وَهُوَ مَا يُعْطِيهِ شَخْصٌ لِآخَرَ مِنْ مَالٍ وَشِبْهِهِ؛ لِإِبْطَالِ حَقٍّ، أَوْ لِإِحْقَاقِ بَاطِلٍ، أَمَّا إِذَا أَعْطَىٰ لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَىٰ حَقٍّ، أَوْ لِيَدْفَعَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ظُلْمًا؛ فَلَا بَأْسَ بِهِ، تاج العروس، للزبيدي: 38/ 153، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 6/ 2437.

(2) النَّوْحُ والنِّيَاحَةُ بُكَاءٌ مَعَ صَوْتٍ، وَالْمُرَادُ بِهَا الَّتِي تَنُوحُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ، أَوْ عَلَىٰ مَا فَاتَهَا مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، يُقَالُ: نَاحَتِ الْمَرْأَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ إِذَا نَدَبَتْهُ، أَيْ: بَكَتْ عَلَيْهِ وَعَدَّدَتْ مَحَاسِنَهُ، وَأَمَّا الْبُكَاءُ بِصَوْتٍ خَفِيضٍ، دُونَمَا صَوْتٍ وتَعْدِيدِ مَحَاسِنِ الأَمْوَاتِ؛ فَمَأْذُونٌ بِهِ، وَأَمَّا الَّتِي تَنُوحُ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهَا فَذَلِكَ نَوْعٌ مِنَ الْعِبَادَةِ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 6/ 1237.

(3) الْفَرْقُ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالْعَرَّافِ والْمُنَجِّمِ: أَنَّ الْكَاهِنَ يَتَعَاطَىٰ الْأَخْبَارَ عَنِ الْكَوَائِنِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَالْعَرَّافَ يَتَعَاطَىٰ مَعْرِفَةَ الشَّيْءِ الْمَسْرُوقِ، وَمَكَانَ الضَّالَّةِ وَنَحْوَهِمَا مِمَّا هُوَ كَائِنٌ، أَمَّا الْمُنَجِّمُ فَهُوَ مَنْ

اللسانِ البَذِيءُ، والذي لا يُؤَدِّي زكاةَ مالِهِ طيبَةً بها نَفْسُهُ، والذِي لا يَحُجُّ مَعَ قُدْرَتِهِ علَىٰ الحَجِّ، والذِي لا يَصِلُ رَحِمَهُ، والذِي لا يَرْحَمُ المسكينَ، ولا الأَرْمَلَة، ولا اليتيمَ ولا الحيوانَ البَهيمَ، فكُلُّ هَؤَلَاءِ وأَمْثالُهُمْ»[1] مِنَ المُقِيمينَ عَلَىٰ المَعَاصِي؛ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي تَحْقِيقِ الخُشُوعِ، حتَّىٰ يَتَخَلَّصُوا مِمَّا هُمْ فِيهِ من مَعَاصٍ وآثَامٍ بِتَوْبَةٍ صَادِقَةٍ نَصُوحٍ؛ فَإِنَّهُ «إِذَا اجْتَمَعَ للعَبْدِ الطُّهرانِ: طَهَارَةُ القَلْبِ بالتَّوْبَةِ، وطَهَارَةُ البَدَنِ بالمَاءِ؛ صَلُحَ للدُّخُولِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، والوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ومَنَاجَاتِهِ»[2].

وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ شَكُورٌ، وَمِنْ شُكْرِهِ عَبْدَهُ أَنَّهُ يُثِيبُهُ عَلَىٰ تَرْكِ المَعَاصِي، وَلُزُومِ الطَّاعَاتِ لَذَّةً وانْشِراحًا وخُشُوعًا، وَتَتَوارَدُ عَلَيْهِ فُتُوحُ الخَيْرِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ؛ فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّ المَعَاصِي تُوجِبُ العُقُوبَةَ، والقَطِيعَةَ، وقَسْوَةَ القَلْبِ، وجَفَافَ العَيْنِ؛ فَإِنَّ الطَّاعاتِ تُوجِبُ اللَّذَّةَ، والخُشُوعَ، ورِقَّةَ القَلْبِ، وَجُودَ العَيْنِ بِمَائِهَا.

فإِنْ أَصَرَّ العَبْدُ عَلَىٰ الإِقَامَةِ عَلَىٰ المَعْصِيَةِ، ولَمْ يَتَدَارَكْ نَفْسَهُ بتوبَةٍ، وقَلْبُهُ بِطَهارَةٍ؛ فَلَنْ يَشَمَّ للخُشُوعِ وَرِقَّةِ القَلْبِ رَائِحَةً؛ وَإِنْ عَبَدَ اللهَ تعالىٰ مَا عَبَدَ، وقالَ الناسُ فِي مَدِيحِهِ والثَّناءِ عليهِ ما قَالُوا. بَلْ قَدْ يُصَابُ قَلْبُهُ بآفَاتٍ وأَمْرَاضٍ؛ لَا يَلْتَذُّ بِعِبَادَتِهِ، وَلَا يَطْعَمُ

يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ بِحَسَبِ مَوَاقِيتِها، وَسَيْرِهَا، وَيَسْتَطْلِعُ مِنْ ذَلِكَ أَحْوَالَ الكَوْنِ بالغَيْبِ، انظرْ: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 2/ 777، والقاموسَ الفقهي، لسعدي أبي حبيب: 1/ 348.

(1) كتاب الروح، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 78.

(2) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 57.

طَعْمَهَا؛ فَإِنَّه «إِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ؛ فَسَدَ إِدْرَاكُهُ كَمَا أَنَّهُ إِذَا فَسَدَ الْفَمُ؛ فَسَدَ إِدْرَاكُهُ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[1]:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ *** يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلَالَا[2]»[3].

عُقُوبَاتُ المَعَاصِي

ولقد قَضَىٰ اللهُ تَعالَىٰ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاواتِ والأَرْضَ بِعُقُوبَةِ العَاصِي، الذِي هَانَتْ عَلَيْه مَعْصِيَةُ رَبِّهِ ومَوْلَاهُ؛ فَقَدْ يُضْرَبُ قلبُ العَبْدِ -إنْ لَمْ يَسْتَدْرِكْ بِأَوْبَةٍ عَاجِلَةٍ- بِعُقُوبَاتٍ؛ فَيَبْتَعِدُ عَنْ رَبِّهِ ﷻ مِنْ حَيْثُ يُرِيدُ الاقْتِرَابَ مِنْهُ، فَقَدْ قالَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[4].

ولا أَشَدَّ ولا أَقْسَىٰ مِنْ أَنْ يُضْرَبَ قلبُ العَبْدِ بِعُقُوبَةٍ؛ قال مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: «إِنَّ للهِ عُقُوبَاتٍ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ: ضَنْكٌ فِي الْمَعِيشَةِ، وَوَهَنٌ فِي الْعِبَادَةِ، وَمَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ، وقال ابن القيم: خلقت النَّار لإذابة الْقُلُوب القاسية، أبعد الْقُلُوب من الله الْقلب القاسي»[5].

---

(1) الشَّاعِرُ الْمُتَنَبِّي، انظر: الأمثال السائرة من شعر المتنبي، للصَّاحِبِ ابن عَبَّادٍ: 1/ 28.

(2) الزُّلالُ: الصَّافِي العَذْبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 11/ 307.

(3) مِفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 100.

(4) الأحزاب: 36.

(5) الفوائد، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 97.

المَعَاصِي تُضْعِفُ سَيْرَ الْقَلْبِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

وَإِنَّ مَرَضَ القَلْبِ بالمَعَاصِي يُؤَثِّرُ عَلَىٰ قُوَّةِ سَيْرِ العَبْدِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ؛ كَمَا أَنَّ مَرَضَ البَدَنِ يُضْعِفُ سَيْرَ البَدَنِ عَنِ السَّفَرِ وقَطْعِ البِلادِ؛ قال ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «ومن عُقُوبَات المعصية: أَنَّهَا تُضْعِفُ سَيْرَ الْقَلْبِ إِلَىٰ اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، أَوْ تَعُوقُهُ، أَوْ تُوقِفُهُ وَتَقْطَعُهُ عَنِ السَّيْرِ، فَلَا تَدَعُهُ يَخْطُو إِلَىٰ اللهِ خُطْوَةً، هَذَا إِنْ لَمْ تَرُدَّهُ عَنْ وُجْهَتِهِ إِلَىٰ وَرَائِهِ، فَالذَّنْبُ يَحْجِبُ الْوَاصِلَ، وَيَقْطَعُ السَّائِرَ، وَيُنَكِّسُ الطَّالِبَ، وَالْقَلْبُ إِنَّمَا يَسِيرُ إِلَىٰ اللهِ بِقُوَّتِهِ، فَإِذَا مَرِضَ بِالذُّنُوبِ؛ ضَعُفَتْ تِلْكَ الْقُوَّةُ الَّتِي تُسَيِّرُهُ، فَإِنْ زَالَتْ بِالْكُلِّيَّةِ انْقَطَعَ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ انْقِطَاعًا يَبْعُدُ تَدَارُكُهُ. فَالذَّنْبُ إِمَّا يُمِيتُ الْقَلْبَ، أَوْ يُمْرِضُهُ مَرَضًا مُخَوِّفًا، أَوْ يُضْعِفُ قُوَّتَهُ»(1).

الْمَعَاصِي تُمْرِضُ الْقُلُوبَ

كَمَا أَنَّ الأَمْرَاضَ إِذَا أَصَابَتِ الأَبْدانَ أَضْعفَتْهَا وأَسْقَمَتْهَا، فَإِنَّ القُلُوبَ إِذَا أَصَابَتْهَا المَعَاصِي أَضْعفَتْهَا وأَسْقَمَتْهَا كَذَلِكَ؛ قال ابنُ قيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «مِنْ عُقُوبَاتِ المعاصي: أَنَّهَا تَصْرِفُ الْقَلْبَ عَنْ صِحَّتِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ إِلَىٰ مَرَضِهِ وَانْحِرَافِهِ، فَلَا يَزَالُ مَرِيضًا مَعْلُولًا لَا يَنْتَفِعُ بِالْأَغْذِيَةِ الَّتِي بِهَا حَيَاتُهُ وَصَلَاحُهُ، فَإِنَّ تَأْثِيرَ الذُّنُوبِ فِي الْقُلُوبِ كَتَأْثِيرِ الْأَمْرَاضِ فِي الْأَبْدَانِ، بَلِ الذُّنُوبُ أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَدَاؤُهَا، وَلَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا تَرْكُ الذُّنُوبِ. وَقَدْ أَجْمَعَ السَّائِرُونَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ أَنَّ الْقُلُوبَ لَا تُعْطَىٰ مُنَاهَا حَتَّىٰ تَصِلَ إِلَىٰ مَوْلَاهَا، وَلَا تَصِلُ إِلَىٰ

---

(1) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، المسمىٰ: (الداء والدواء)، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 73.

مَوْلَاهَا حَتَّىٰ تَكُونَ صَحِيحَةً سَلِيمَةً، وَلَا تَكُونُ صَحِيحَةً سَلِيمَةً إِلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا، فَهَوَاهَا مَرَضُهَا، وَشِفَاؤُهَا مُخَالَفَتُهُ، فَإِنِ اسْتَحْكَمَ الْمَرَضُ؛ قَتَلَ أَوْ كَادَ»[1].

الْمَعَاصِي تُوجِبُ الْقَطِيعَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالرَّبِّ

وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لِعَبْدِهِ كَمَا يَكُونُ العَبْدُ لِرَبِّهِ ﷻ، فَمَنْ وَصَلَ مَا بَيْنَهُ وبين رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالطَّاعَاتِ والقُرُبَاتِ؛ وَصَل اللهُ تَعَالَىٰ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَقَرَّبَهُ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ للإِيمَانِ، وَمَلأَهُ إِيْمَانًا، وَمَحَبَّةً، وَرِقَّةً، وَخُشُوعًا، وَمَنْ قَطَعَ مَا بينَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ بالمَعَاصِي وتَرْكِ الطَّاعَاتِ؛ قَطَعَ اللهُ تَعَالَىٰ مَا بَيْنَهُ وبَيْنَهُ، وَأَبْعَدَهُ، وَأَوْحَشَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، قَالَ ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «وَمِنْ أَعْظَمِ عُقُوبَاتِ المعاصي: أَنَّهَا تُوجِبُ الْقَطِيعَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَإِذَا وَقَعَتِ الْقَطِيعَةُ؛ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ، وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ، فَأَيُّ فَلَاحٍ، وَأَيُّ رَجَاءٍ، وَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ، وَقَطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَلِيِّهِ وَمَوْلَاهُ، الَّذِي لَا غِنَىٰ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا بَدَلَ لَهُ مِنْهُ، وَلَا عِوَضَ لَهُ عَنْهُ، وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ، وَوَصَلَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَىٰ عَدُوٍّ لَهُ؛ فَتَوَلَّاهُ عَدُوُّهُ وَتَخَلَّىٰ عَنْهُ وَلِيُّهُ؟ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا فِي هَذَا الِانْقِطَاعِ وَالِاتِّصَالِ مِنْ أَنْوَاعِ الْآلَامِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ؛ فَأُفٍّ لِلذُّنُوبِ؛ مَا أَقْبَحَ آثَارَهَا! وَمَا أَسْوَأَ أَخْبَارَهَا!»[2].

---

(1) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، المسمىٰ: (الداء والدواء)، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 76.

(2) صيد الخاطر، لابن الجوزي: 1/ 144.

الثَّامِنُ: الصَّلَاةُ فِي المَسْجِدِ

إِنَّ للصَّلاةِ فِي بُيُوتِ اللهِ تَعَالَىٰ أَبْلَغَ الأَثَرِ فِي تَحْقِيقِ الخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ العَبْدَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ أَوْ عَمَلِهِ وَأَشْغَالِهِ وَيَمَّمَ[1] إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّهُ فِي الحَقِيقَةِ يَكُونُ قَدْ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيا وأَشْغَالِهَا وأَنْكَادِهَا، إِلَىٰ الآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا حَيْثُ الرِّقَّةُ والصَّفَاءُ، والانْخِلَاعُ مِنْ جَوَاذِبِ الأَرْضِ وأَشْغَالِهَا، والاتِّصَالُ بالمَلَأِ الأَعْلَىٰ، والتَّحْلِيقُ فِي فَضَاءِ الآخِرَةِ الرَّحِيبِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ بُيُوتَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنَ الآخِرَةِ، لَا مِنَ الدُّنْيا، فَالمَسْجِدُ قِطْعَةٌ مِنَ الجَنَّةِ عَلَىٰ الأَرْضِ، قَالَ الرَّافِعِيُّ: «عَرَفْتُ -واللهِ- مِنْ مَعْنَىٰ المَسْجِدِ مَا لَمْ أَعرِفْ، حتَّىٰ كَأَنِّي لَمْ أَدْخُلْهُ مِنْ قَبْلُ، فَانْكَشَفَ لِيَ المَسْجِدُ فِي نُورِهِ الرُّوحِيِّ عَنْ مَعَانٍ أَدْخَلَتْنِي مِنَ الدُّنْيا فِي دُنْيا عَلَىٰ حِدَةٍ. فَمَا المَسْجِدُ بِنَاءً وَلَا مَكَانًا كَغَيْرِهِ مِنَ البِنَاءِ والمَكَانِ، بَلْ هُوَ تَصْحِيحٌ للعَالَمِ الذِي يَمُوجُ مِنْ حَوْلِهِ ويَضْطَرِبُ، وَكَمَا يُشَقُّ النَّهْرُ؛ فَتَقِفُ الأَرْضُ عِنْدَ شَاطِئَيْهِ لَا تَتَقَدَّمُ، يُقَامُ المَسْجِدُ؛ فَتَقِفُ الأَرْضُ بِمَعانِيها التُّرَابِيَّةِ خَلْفَ جُدْرَانِهِ لَا تَدْخُلُهُ»[2].

وَصْفَةٌ لِخُشوعِ القَلْبِ

إِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ الخُشُوعَ بالتَّخَشُّعِ؛ فَلْيُعْلَمْ أَنَّ لِخُشُوعِ البَصَرِ أَثَرًا عَظِيمًا عَلَىٰ خُشُوعِ القَلْبِ؛ «فَخُشُوعُ القَلْبِ يَسْتَلْزِمُ خُشُوعَ البَصَرِ وَذُلَّهُ وَخَفْضَهُ وَسُكُونَهُ»[3]، فَإِذَا خَفَضَ العَبْدُ رَأْسَهُ فِي مَمْشَاهُ إِلَىٰ المَسْجِدِ، وَرَمَىٰ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ الأَرْضِ، وَأَمْسَكَ عَنِ التَّلَفُّتِ فِي

---

(1) يَمَّمَ: قَصَدَ وتَوَجَّهَ وتَوَخَّىٰ، انظر: معجم العين، للخليل: 8/ 430.

(2) وحي القلم، للرافعي: 1/ 286.

(3) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: 7/ 24.

وُجُوهِ الخَلْقِ وأَعْرَاضِ الدُّنيا، وَأَطْلَقَ لِسَانَهُ بِذِكْرِ رَبِّهِ ﷻ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ فِيمَا يَذْكُرُ، وحَرَّكَ بِهِ قَلْبَهُ؛ مُسْتَحْضِرًا عظَمَةَ اللهِ تعَالَىٰ، وَعظَمَةَ بَيْتِهِ، وَأَنَّهُ وَافِدٌ عَلَىٰ أَعْظَمِ مَكَانٍ، لِيُقَدِّمَ قَرابِينَهُ للهِ تَعَالَىٰ فِي بَيْتِهِ؛ وَكُلَّمَا هَجَمَتْ عَلَيْهِ وَارِدَاتُ الدُّنْيا وَخَوَاطِرُهَا؛ نَادَىٰ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ: (يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ) حتَّىٰ يَعُودَ لَهُ قَلْبُهُ؛ حَتَّىٰ إِذَا وَصَلَ المَسْجِدَ؛ اسْتَحْضَرَ عَظَمَةَ بَيْتِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَقَدَّمَ رِجْلَهُ اليُمْنَىٰ بِسَكِينَةٍ وأَدَبٍ، ودَعَا بِذِكْرِ دُخُولِ المَسْجِدِ: «أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ؛ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ[1]، ثُمَّ إِذَا اسْتَقَرَّ بَدَنُهُ بِبَيْتِ رَبِّهِ ﷻ، حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ المَسْجِدِ رَكْعَتَيْنِ يَتَقَرَّبُ بِهِمَا عَلَىٰ بِسَاطِهِ، وعَظَّمَ رَبَّهُ ﷻ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي المَسْجِدِ بِكَلَامِ الدُّنْيا؛ تَوالَتْ عَلَيْهِ فُتُوحُ الخَيْرِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ حِينَها مِنْ وَارِدَاتِ الرِّقَّةِ وَتَهَيَّأَ القَلْبُ لِلحُضُورِ والخُشُوعِ، فَإِذَا مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ المَكْتُوبَةُ؛ كَانَ الخُشُوعُ الذِي يَرْجُو، وَهَذِهِ وَصْفَةٌ لِلخُشُوعِ مُجَرَّبَةٌ نَافِعَةٌ، فَإِنْ جَاهَدَ العَبْدُ نَفْسَهُ فِي تَحْقِيقِهَا، ودَاوَمَ عَلَيْهَا مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ؛ دَامَ لَهُ خُشُوعُهُ، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[2]، فَإِذَا حَصَلَ لِلقُلُوبِ تَقْواهَا؛ حَصَلَ لَهَا الخُشُوعُ، وتَوَافَدَ عَلَيهَا كُلُّ خَيرٍ، واللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

---

(1) أخرجه أبو داود، بَابٌ فِيمَا يَقُولُهُ الرَّجُلُ عِنْدَ دُخُولِهِ الْمَسْجِدَ: 1/ 127، رقم: (466)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(2) الحج: 32.

فَمَنْ مِثْلُكَ أَيُّهَا المُسْلِمُ؛ أُذِنَ لَكَ بالدُّخُولِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مَتَىٰ تَشَاءُ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَتطَهَّرَ، وتَدْخُلَ عَلَىٰ سَيِّدِكَ ومَوْلَاكَ الحَقِّ فِي صَلَاتِكَ، تُنَاجِيهِ، وتَدْعُوهُ، وتَسْأَلُهُ مِنْ حَوائِجِكَ مَا تَشَاءُ.

التَّاسِعُ: المُحافَظَةُ عَلَى دُعَاءِ الاسْتِفْتَاحِ

مِنْ مَقَاصِدِ مَشْرُوعِيَّةِ دُعَاءِ الاسْتِفْتَاحِ، تَهْيِئَةُ القَلْبِ والنَّفْسِ للدُّخُولِ فِي الصَّلَاةِ، فَدُعاءُ الاسْتِفْتَاحِ فَاصِلٌ لَطِيفٌ بَيْنَ أَقْوالِ الدُّنْيا وأَعْمَالِهَا، وبَيْنَ أَقْوالِ الصَّلَاةِ وأَعْمَالِهَا؛ ثُمَّ إِنَّ المُتَأَمِّلَ مَعَانِيَ أَذْكَارِ الاسْتِفْتَاحِ، وَمَا فِيها مِنْ مَعَانِي الثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَعْظِيمِهِ، والتَّوْبَةِ والتَّحَلُّلِ مِنَ المَعَاصِي، والاسْتِعَاذَةِ باللهِ تَعَالَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ يَعْلَمُ أَثَرَ أَدْعِيَةِ الاسْتِفْتَاحِ فِي تَهْيِئَةِ القَلْبِ للخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ، وَتَفَهُّمِ مَعَانِي الفَاتِحَةِ وَأَعْمَالِ الصَّلَاةِ؛ فَخُذْ مَثَلًا هَذِهِ الأَذْكَارَ الثَّلَاثَةَ:

* «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَىٰ جَدُّكَ[1]، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ». ثُمَّ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[2]. وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَزِيدُ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ: يَقُولُ: «اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا».

---

(1) الْجَدُّ: الْغِنَىٰ، والْحَظُّ، وَالْبَخْتُ، وَالْعَظَمَةُ، انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني: 6/ 132.

(2) أخرجه أبو داود، بَابُ مَنْ رَأَىٰ الِاسْتِفْتَاحَ بِسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ: 1/ 206، رقم: (776)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

ثَلَاثًا، «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ[1]» ثُمَّ يَقْرَأُ[2].

* «اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ؛ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ، كَمَا يُنَقَّىٰ الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ[3]، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ»[4].

* «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[5].

فَمَنْ تَأَمَّلَ مَعَانِي هَذِهِ الأَذْكَارِ وَغَيْرِهَا، وَقَرَأَهَا مُتَوَسِّلًا بِمَا فِيهَا مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ يُرْجَىٰ أَنْ يَحْفَظَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، وَأَنْ يَحْرُسَهُ مِنْ غَارَاتِ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، وَأَنْ يَرْزُقَهُ بِهَا الخُشُوعَ؛ فَسَيَجِدُ بَرَكَتَهَا وَثَمَرَتَهَا خُشُوعًا؛ وَسَتُفْتَحُ -بِدُعَاءِ الاسْتِفْتَاحِ- أَقْفَالُ قَلْبِهِ بِإِذْنِ الفَتَّاحِ العَلِيمِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(1) هَمْزُهُ: الْجُنُونُ، ونَفْخُهُ: الوَسْوَسَةُ والْكِبْرُ، ونَفْثُهُ: الشِّعْرُ، انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني: 22/ 182.

(2) أخرجه أبو داود، بَابُ مَنْ رَأَىٰ الِاسْتِفْتَاحَ بِسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ: 1/ 206، رقم: (775)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

(3) الدَّنَسُ: الوَسَخُ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 12/ 255.

(4) أخرجه البخاري، بَابُ مَا يَقُولُ بَعْدَ التَّكْبِيرِ: 1/ 259، رقم: (711)، ومسلم، بَابُ مَا يُقَالُ بَيْنَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ وَالْقِرَاءَةِ: 1/ 419، رقم: (598).

(5) أخرجه مسلم، باب الدُّعَاءِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَقِيَامِهِ: 1/ 534، رقم: (770).

العَاشِرُ: مُطَالَعَةُ سِيَرِ الخَاشِعِينَ فِي صَلَاتِهِمْ

رُكِزَ فِي النُّفُوسِ حُبُّ الكُمَّلِ مِنَ النَّاسِ، واقْتِفَاءُ آثَارِهِمْ، وَتَقْلِيدُهُمْ، والتَّأَسِّي بِهِمْ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، أَمَّا الصَّالِحُونَ، فَلَا شَيْءَ آثَرُ عِنْدَهُمْ مِنْ أَنْ يَتَأَسَّوْا بالصَّالِحِينَ مِمَّنْ سَلَفَ، وَأَنْ يَسْمَعُوا أَخْبَارَهُمْ، فَلَرُبَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بِذِكْرِهِمْ مِنَ البَرَكَةِ والنَّفْعِ مَا لَمْ يَحْصُلْ بِكَثِيرٍ مِنَ المَوَاعِظِ والدُّرُوسِ؛ قَالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: «عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ؛ تَتَنَزَّلُ الرَّحْمَةُ»، وَقَالَ سُفْيانُ للفُضَيْلِ: «إِنْ لَمْ نَكُنْ صَالِحِينَ؛ فَإِنَّا نُحِبُّ الصَّالِحِينَ»[1]. «فَسَيْرُهُمْ أَفْضَلُ السَّيْرِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، وَفِيها كُلُّ الفَضَائِلِ والخَيْرَاتِ؛ فَكَيْفَ لَا تَصْلُحُ القُلُوبِ بِهَا، وَهُمُ المُصْلِحُونَ حَقًّا»[2].

فَإِذَا مَا طَالَعَ العَبْدُ الذِي يَنْشُدُ الخُشُوعَ سِيَرَ الخَاشِعِينَ مِنَ العُبَّادِ؛ سَيَحْمِلُهُ مَا سَمِعَهُ مِنْ ذِكْرِ أَحْوالِهِمْ إِلَىٰ التَّأَسِّي بِهِمْ، والتَّشَبُّهِ بِهِمْ؛ وَكَمْ مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ أَيْقَظَهُ مَا شَاهَدَ مِنْ أَحْوالِ الصَّالِحِينَ قَبْلَهُ.

وَسَنُورِدُ فِي خَاتِمَةِ الكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ ذِكْرَ عَشَرَةِ نَمَاذِجَ لِمَشَاهِدَ مِنَ العُبَّادِ الخَاشِعِينَ الذِينَ يَصْلُحُ أَنْ نَتَأَسَّىٰ بِهِمْ، وَنَأْنَسَ بِذِكْرِهِمْ.

---

(1) الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض)، لأبي الفضل السبتي: 1/ 107.

(2) انظر: أرشيف منتدىٰ الألوكة: 2 (بترقيم الشاملة).

ثَانِيًا: مَشَاهِدُ الصَّلَاةِ القَلْبِيَّةِ العَشَرَةِ

كَانَ الصَّالِحُونَ فِيمَا مَضَىٰ يَتَوَاصَوْنَ بالصَّلَاةِ، وَيَتَنَاصَحُونَ بِإِحْسَانِهَا، وَيَتَرَاسَلُونَ بِذَلِكَ، مِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ رِسَالَةً إِلَىٰ أَحَدِ إِخْوانِهِ؛ يُوصِيهِ بالصَّلَاةِ، وَيُعَظِّمُ لَهُ أَمْرَها، وَقَدْ أَرْشَدَهُ فِيها إِلَىٰ مَشَاهِدَ قَلْبِيَّةٍ سِتَّةٍ للصَّلَاةِ، مَنْ حَقَّقَهَا فِي صَلَاتِهِ؛ زَكَتْ صَلَاتُهُ، وَبُورِكَتْ، وَأَثْمَرَتْ خُشُوعًا وَرِقَّةً وَانْشِرَاحَ صَدْرٍ، وَرُجِيَ لَهُ قَبُولُهَا وَأَجْرُهَا، وَمَنْ فَاتَتْهُ وَأَهْمَلَها؛ فَقَدْ فَاتَهُ مِنْ خَيْرِ الصَّلَاةِ وَفَضْلِهَا بِحَسَبِ مَا فَاتَهُ مِنْهَا، وقَدْ أَحْصَىٰ ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ سِتَّةَ مَشَاهِدَ، وَنَحْنُ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَىٰ أَتْمَمْنَاهَا بِأَرْبَعَةٍ؛ لِيَتِمَّ بِهَا وَفَاءُ العَشَرَةِ، قَالَ ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الصَّلَاةَ الَّتِي تَقَرُّ بِهَا الْعَيْنُ وَيَسْتَرِيحُ بها الْقَلْبُ هِيَ الَّتِي تَجْمَعُ سِتَّةَ مَشَاهِدَ»[1]:

المَشْهَدُ الأَوَّلُ: مَشْهَدُ الْإِخْلَاصِ

«وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْحَامِلُ عَلَىٰ العِبَادَةِ كُلِّها، والدَّاعِي إِلَيْهَا رَغْبَةَ العَبْدِ فِي اللهِ، وَمَحَبَّتَهُ لَهُ، وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ، والقُرْبَ مِنْهُ، والتَّوَدُّدَ إِلَيْهِ، وامْتِثَالَ أَمْرِهِ، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ الْبَاعِثُ لَهُ عَلَيْهَا حَظًّا مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا أَلْبَتَّةَ، بَلْ يَأْتِي بِهَا ابْتِغَاءَ وَجهِ رَبِّه الْأَعْلَىٰ؛ مَحَبَّةً لَهُ، وَخَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ، وَرَجَاءً لِمَغْفِرَتِهِ وَثَوابِهِ»[2].

وَهَذَا المَشْهَدُ هُوَ أَوَّلُ المَشَاهِدِ وَرُوحُها؛ فَإِنْ قَامَ فِي قَلْبِ العَبْدِ، وَتَحَقَّقَ فِي نَفْسِهِ، فَكُلُّ مَا بَعْدَهُ تَبَعٌ لَهُ، وَأَيْسَرُ مِنْهُ، فَالإِخْلَاصُ أَوَّلًا. وَإِنَّ مَنْ أَخْلَصَ للهِ تَعَالَىٰ فِي صَلاتِهِ؛ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِأَنْ يَأْتِيَ بِجَمِيعِ الشُّرُوطِ التِي تُزَكِّي العَمَلَ، وتُتِمُّهُ، وتَرْفَعُهُ، وَيُرْجَىٰ لَهُ

---

(1) انظر: رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه: 1/ 34.

(2) رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه: 1/ 34.

مِنَ التَّوْفِيقِ لِتَحْقِيقِ الخُشُوعِ مَا يُرْجَىٰ! فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلشَّيطَانِ عَلَىٰ العَبْدِ المُخْلِصِ، وَلَقَدْ عَلِمَ الشَّيْطَانُ هَذَا مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ طُرِدَ فِيهِ؛ فَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1]، فَمَا مِنْ شَرٍّ إِلَّا وَيَصْرِفُهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ العَبْدِ؛ بِسَبَبِ إِخْلَاصِهِ، كَمَا صَرَفَهُ عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[2]؛ فالعَبْدُ المُخْلِصُ بِعَيْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَعِيَّتِهِ وحِفْظِهِ.

المَشْهَدُ الثَّانِي: مَشْهَدُ الصِّدْقِ والنُّصْحِ

«وَهُوَ أَنْ يُفَرِّغَ العَبْدُ قَلْبَهُ للهِ تَعَالَىٰ فِي صَلَاتِهِ، وَيَسْتَفْرِغَ جُهْدَهُ فِي إِقْبَالِهِ فِيهَا عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَجَمْعِ قَلْبِهِ عَلَيْهَا، وَإِيقَاعِهَا عَلَىٰ أَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا: ظَاهِرًا، وَبَاطِنًا، فَإِنَّ الصَّلَاةَ لَهَا ظَاهِرٌ وبَاطِنٌ، فَظَاهِرُهَا الْأَفْعَالُ الْمُشَاهَدَةُ، والأَقْوَالُ المَسْمُوعَةُ، وبَاطِنُهَا الْخُشُوعُ، والمُرَاقَبَةُ، وَتَفْرِيغُ الْقَلْبِ للهِ تَعَالَىٰ، وَالإِقْبَالُ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا، بِحَيْثُ لَا يَلْتَفِتُ قَلْبُهُ عَنهُ إِلَىٰ غَيرِهِ. فَهَذَا بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ لَهَا، وَالْأَفْعَالُ بِمَنْزِلَةِ الْبَدَنِ، فَإِذَا خَلَتْ مِنَ الرُّوحِ؛ كَانَتْ كَبَدَنٍ لَا رُوحَ فِيهِ، أَفَلَا يَسْتَحِي العَبْدُ أَنْ يُواجِهَ سَيِّدَهُ بِمِثْلِ ذَلِك، وَلِهَذَا تُلَفُّ الصَّلَاةُ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلَقِ[3] وَيضْربُ بِهَا وَجهُ صَاحِبِهَا، وَتَقُولُ: ضَيَّعَكَ اللهُ تَعَالَىٰ كَمَا ضَيَّعْتَنِي.

---

(1) الحجر: 39-40.

(2) يوسف: 24.

(3) الخَلَقُ: البَالِي الرَّثُّ، انْظَرْ: معجم العين، للخليل: 4/ 31.

والصَّلَاةُ الَّتِي كَمُلَ ظَاهِرُهَا وبَاطِنُهَا؛ تَصْعَدُ، وَلَهَا نُورٌ وَبُرْهَانٌ كَنُورِ الشَّمْسِ، حَتَّىٰ تُعْرَضَ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَيَرْضَاهَا، وَيَقْبَلُهَا»[1].

والمُرَادُ بالنُّصْحِ فِي الصَّلَاةِ: بَذْلُ غَايَةِ الجُهْدِ فِي إِصَلاحِ العِبَادَاتِ وَإِتْقَانِهَا، وَإِحْسَانِهَا، قالَ ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ: «فَالْأَمْرُ كُلُّهُ دَائِرٌ عَلَىٰ جَمْعِ الْهِمَّةِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَاسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ بِغَايَةِ النَّصِيحَةِ فِي التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ، بَعْدَ تَكْمِيلِ الْفَرَائِضِ، وَالطَّرِيقُ[2] بِمَجْمُوعِهَا لَا تَخْرُجُ عَنْ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ، وَإِنْ طَوَّلُوا الْعِبَارَاتِ، وَدَقَّقُوا الْإِشَارَاتِ؛ فَلَا تُطَوِّلْ، وَلَا يُطَوَّلُ عَلَيْكَ»[3]. «والنُّصْحُ فِي الْعُبُودِيَّةِ عَلَيْهِ مَدَارُ الدِّينِ، وَهُوَ بَذْلُ الْجُهْدِ فِي إِيقَاعِ الْعُبُودِيَّةِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَحْبُوبِ لِلرَّبِّ الْمَرْضِيِّ لَهُ، وَأَصْلُ هَذَا وَاجِبٌ، وَكَمَالُهُ مَرْتَبَةُ الْمُقَرَّبِينَ»[4].

فَإِنَّ العَبْدَ النَّاصِحَ، الكَامِلَ النُّصْحِ للهِ تَعَالَىٰ فِي صَلَاتِهِ «إِذَا جَاءَ بِهَا؛ بَادَرَ إِلَيْهَا مُكَمِّلًا لَهَا، نَاصِحًا فِيهَا لِمَعْبُودِهِ كَنُصْحِ المُحِبِّ الصَّادِقِ المَحَبَّةِ لِمَحْبُوبِهِ الذِي قَدْ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يعمَلَ لَهُ شَيْئًا مَا، فَهُوَ لَا يُبْقِي مَجْهُودًا، بَلْ يَبْذُلُ مَقْدُورَهُ كُلَّهُ فِي تَحْسِينِهِ وَتَزْيِينِهِ وَإِصْلاحِهِ

---

(1) رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه: 1/ 34.

(2) الطَّرِيقُ: يَعْنِي طَرِيقَ الإِسْلَامِ وشَرَائِعَهُ، والطَّرِيقَ المُوصِلَةَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ.

(3) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 3/ 292.

(4) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 130.

وإِكْمَالِهِ؛ لِيَقَعَ مَوْقِعًا مِنْ مَحْبُوبِهِ، فَيَنَالُ بِهِ رِضَاهُ عَنْهُ، وقُرْبَهُ مِنْهُ»[1]؛ قالَ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: «إِذَا كَانَ الشَّيْءُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسُرُّنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَيْبٌ»[2].

وفِي الحَدِيثِ: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»[3]. وَإِنَّ مِنْ لَوازِمِ النُّصْحِ فِي الصَّلَاةِ وإِتْقَانِهَا وكَمَالِهَا وَخُلُوِّهَا مِنَ النُّقْصَانِ، أَنْ يَكُونَ العَبْدُ فِيها خَاشِعًا، حَاضِرَ القَلْبِ.

المَشْهَدُ الثَّالِثُ: مَشْهَدُ الْمُتَابَعَةِ والاقْتِدَاءِ

«وَهُوَ أَنْ يَحْرِصَ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَىٰ الاِقْتِدَاءِ فِي صَلَاتِهِ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَيعْبُدَهُ كَمَا كَانَ يُصَلِّي رَسُولُ اللهِ ﷺ، ويُعْرِضَ عَمَّا أَحْدَثَ النَّاسُ فِي صَلَاتِهِمْ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، الَّتِي لَمْ يُنْقَلْ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْءٌ مِنْهَا، وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَلَا يَقِفُ عِنْدَ أَقْوَالِ المُرَخِّصِينَ، الَّذين يَقِفُونَ مَعَ أَقَلِّ مَا يَعْتَقِدُونَ وُجُوبَهُ، وَلَعَلَّ الْأَحَادِيث الثَّابِتَةَ وَالسُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ تُخَالِفُهُمْ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ مُقَلِّدُونَ لفُلَانٍ. وَهَذَا لَا يُخَلِّصُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلَا يَكُونُ عُذْرًا لِمَنْ تخلَّفَ عَمَّا عَلِمَهُ مِنَ السُّنَّةِ عِنْدَهُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا أَمَرَ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ واتِّبَاعِهِ وَحْدَهُ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِاتِّبَاعِ غَيرِهِ، وَإِنَّمَا يُطاعُ غَيرُهُ إِذَا أَمَرَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُول ﷺ، وكُلُّ أَحَدٍ سِوَىٰ الرَّسُولِ ﷺ فَمَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ ومَتْرُوكٌ، وَقد أَقْسَمَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِنَفسِهِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّا لَا نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُحَكِّمَ الرَّسُولَ ﷺ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَنا، وَنَنْقَادَ

---

(1) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 214.

(2) إحياء علوم الدين، للغزالي: 1/ 226.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، بَابٌ فِي الْأَمَانَاتِ وَمَا يَجِبُ مِنْ أَدَائِهَا إِلَىٰ أَهْلِهَا: 7/ 233، رقم: (4929)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ.

لِحُكْمِهِ، ونُسَلِّمَ تَسْلِيمًا، فقالَ تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]، فَلَا يَنْفَعُنَا تَحْكِيمُ غيرِهِ، والانْقِيادُ لَهُ، وَلَا يُنَجِّينَا مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعالَىٰ، وَلَا يُقْبَلُ مِنَّا هَذَا الْجَوابُ إِذَا سَمِعْنَا نِدَاءَهُ سُبْحَانَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾[2]، فَإِنَّهُ لَا بُدَ أَنْ يَسْأَلَنَا عَن ذَلِكَ، وَيُطالِبَنَا بِالْجَوابِ؛ قَالَ تَعالَىٰ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[3]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُوحِي إِلَيّ: أَنكُمْ بِي تُفْتَنُونَ، وعَنِّي تُسْأَلُونَ»[4]، يَعْنِي الْمَسْأَلَةَ فِي الْقَبْرِ، فَمن انْتَهَتْ إِلَيْهِ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَرَكَهَا لقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ؛ فَسَيُرَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيعْلَمُ مِقْدَارَ خَسَارَتِهِ»[5].

وَإِنَّ مِنْ لَوَازِمِ الاقْتِدَاءِ ومُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنْ يَكُونَ العَبْدُ فِيها خَاشِعًا حَاضِرَ القَلْبِ؛ فَهُو سَيِّدُ الخَاشِعِينَ وَقُدْوَتُهُمْ وإِمَامُهُمْ ﷺ.

المَشْهَدُ الرَّابِعُ: مَشْهَدُ الْإِحْسَانِ والمُرَاقَبَةِ

«وَهُوَ مشْهدُ المُرَاقَبَةِ، وَهُوَ أَنْ يَعْبُدَ العَبْدُ المُؤْمِنُ اللهَ تَعَالَىٰ كَأَنَّهُ يراهُ، وَهَذَا المَشْهَدُ إِنَّمَا يَنْشَأُ مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ باللهِ تَعَالَىٰ وأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ يَرَىٰ اللهَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، مُسْتَوِيًا عَلَىٰ عَرْشِهِ، يتكَلَّم بأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَيُدَبِّرُ أَمْرَ الخَلِيقَةِ؛ فَينزِلُ الْأَمْرُ مِنْ

---

(1) النساء: 65.

(2) القصص: 65.

(3) الأعراف: 6.

(4) أخرجه أحمد في مسنده، مُسْنَدُ الصِّدِّيقَةِ عَائِشَةَ بِنْتِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: 42/ 12، برقم: (25089)، وَصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

(5) رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه: 1/ 38.

عِنْدِهِ، ويصْعَدُ إِلَيْهِ، وَتُعْرَضُ أَعْمالُ الْعِبَادِ وأَرْواحُهُمْ عِنْدَ المُوافاةِ عَلَيْهِ، فَيشْهدُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِقَلْبِهِ، وَيشْهَدُ أَسْمَاءَهُ وَصِفاتِهِ، وَيَشْهَدُ قَيُّومًا[1]، حَيًّا، سَمِيعًا، بَصِيرًا، عَزِيزًا، حَكِيمًا، آمِرًا، نَاهِيًا، يُحِبُّ وَيُبْغِضُ، وَيَرْضَىٰ وَيَغْضَبُ، وَيَفْعل مَا يَشَاء، وَيحْكُمُ مَا يُرِيدُ، وَهُوَ فَوق عَرْشِهِ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعمالِ الْعِبَادِ، وَلَا أَقْوَالِهِمْ، وَلَا بَوَاطِنِهِمْ، بَلْ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْينِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ.

ومَشْهَدُ الْإِحْسَانِ أَصْلُ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ كُلِّهَا؛ فَإِنَّهُ يُوجِبُ الْحَيَاءَ، والإجْلالَ، والتَّعْظِيمَ، والخَشْيَةَ، والمَحَبَّةَ، والإِنَابَةَ، والتَّوَكُّلَ، والخُضُوعَ، والخُشُوعَ للهِ سُبْحَانَهُ، والذُّلَّ لَهُ، وَيقْطَعُ الوَسَاوِسَ وَحَدِيثَ النَّفْسِ، وَيَجْمَعُ الْقَلْبَ والهَمَّ علَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، فَحَظُّ العَبْدِ مِنَ الْقرْبِ مِنَ اللهِ ﷻ عَلَىٰ قَدْرِ حَظِّهِ مِنْ مَقَامِ الْإِحْسَانِ، وبِحَسَبِهِ تتَفَاوَتُ العِبَادَاتُ، حَتَّىٰ يَكُونَ بَينَ صَلَاةِ الرَّجُلَيْنِ مِنَ الْفضْلِ كَمَا بينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَقِيامُهُمَا وَرُكُوعُهُمَا وَسُجُودُهُمَا وَاحِدٌ»[2].

وَجَدِيرٌ بِعَبْدٍ عَاشَ مَشْهَدَ المُرَاقَبَةِ أَنْ يَرْتَقِيَ إِلَىٰ أَسْمَىٰ مَرَاتِبِ الخُشُوعِ والتَّعَلُّقِ باللهِ تَعَالَىٰ، فَيَنْخَلِعُ قَلْبُهُ مِمَّا فِيهِ الخَلْقُ، وَيَرْتَقِي إِلَىٰ شُهُودِ جَلالِ اللهِ تَعَالَىٰ وَعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيائِهِ؛ فَيَقُودُهُ هَذَا إِلَىٰ الخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ عَلَىٰ النَّحْوِ الذِي يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَيَرْضَاهُ.

---

(1) الْقَيُّومُ، هُوَ: الْمُتَقَوِّمُ بِذَاتِهِ، الْمُقَوِّمُ لِكُلِّ مَا عَدَاهُ، القَائِمُ عَلَىٰ أُمُورِ خَلْقِهِ: بِالإِحْيَاءِ، وَالإِمَاتَةِ، وَالخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَسَائِرِ التَّصَرُّفاتِ، انظرْ: مَفاتيحَ الغيبِ، أَوِ التفسيرَ الكبيرِ، للرازي: 7/ 6.

(2) رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه: 1/ 39.

المَشْهَدُ الْخَامِسُ: مَشْهَدُ الْمِنَّةِ

«وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ العَبْدُ فِي صَلاتِهِ أَنَّ الْمِنَّةَ لِلهِ سُبْحَانَهُ كَونَهُ أَقَامَهُ فِي هَذَا الْمقَامِ، وَأَهَّلَهُ لَهُ، وَوَفَّقَهُ لِقِيَامِ قَلْبِهِ وَبَدَنِهِ فِي خِدْمَتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَوْلا اللهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَحْدُونَ[1] بَينَ يَدي النَّبِيِّ ﷺ؛ فَيَقُولُونَ:

وَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا *** وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]، فَاللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمُسْلِمَ مُسلِمًا، والمُصَلِّي مُصَلِّيًا، كَمَا قَالَ الْخَلِيل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[3]، وَهَذَا المَشْهَدُ مِنْ أَعْظَمِ الْمَشَاهِدِ وأَنْفَعِهَا للْعبدِ، وَكلَّما كَانَ العَبْدُ أَعْظَمَ رُؤْيَةً لِمِنَّةِ اللهِ تَعالَىٰ؛ كَانَ حَظُّهُ مِنْ هَذَا المَشْهَدِ أَتَمَّ، وَفِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ:

* الأُولَىٰ: أَنَّهُ يَحُولُ بينَ الْقَلْبِ وَبَينَ الْعُجْبِ بِالْعَمَلِ وَرُؤْيَتِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا شَهِدَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ المَانُّ بِهِ، الْمُوَفِّقُ لَهُ، الْهَادِي إِلَيْهِ، شَغَلَهُ شُهُودُ ذَلِكَ عَنْ رُؤْيَتِهِ، والإِعْجَابِ بِهِ، وَأَنْ يَصُولَ[4] بِهِ عَلَىٰ النَّاسِ، فَيَرْفَعُ مِنْ قَلْبِهِ مِنَّتَهُ بالعَمَلِ؛ فَلَا يَعْجَبُ بِهِ، وَمِنْ لِسَانِهِ؛ فَلَا يَمُنُّ بِهِ، وَلَا يَتَكَثَّرُ بِهِ، وَهَذَا شَأْنُ الْعَمَلِ الْمَرْفُوعِ.

---

(1) يَحْدُونَ: يُغَنُّونَ ويُنْشِدُونَ، والحُدَاءُ: الغِنَاءُ للإِبِلِ؛ كَيْ تَنْشَطَ عَلَىٰ السَّيْرِ، انظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، للأزهري: 1/ 279.

(2) الحجرات: 17.

(3) البقرة: 128.

(4) يَصُولُ: يَسْتَطِيلُ ويَتَفَاخَرُ، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 3/ 322.

* الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يُضِيفُ الْحَمْدَ إِلَىٰ وَلِيِّهِ ومُسْتَحِقِّهِ، فَلَا يشْهَدُ لِنَفْسِهِ حَمْدًا، بَلْ يَشْهَدُهُ كُلَّهُ للهِ تَعَالَىٰ، كَمَا يشْهدُ النِّعْمَةَ كُلَّهَا مِنْهُ، وَالْفضْلَ كُلَّهُ لَهُ، وَالْخيْرَ كُلَّهُ فِي يَدَيْهِ، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ التَّوْحِيدِ، فَلَا يَسْتَقِرُّ قَدَمُهُ فِي مَقَامِ التَّوْحِيدِ إِلَّا بِعِلْمِ ذَلِكَ وَشُهُودِهِ، فَإِذا عَلِمَهُ، ورَسَخ فِيهِ؛ صَارَ لَهُ مَشْهَدًا، وَإِذا صَارَ لِقَلْبِهِ مَشْهَدًا؛ أَثْمَرَ لَهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ والأُنْسِ بِاللهِ ﷻ، والشَّوْقِ إِلَىٰ لِقَائِه، والتَّنَعُّمِ بِصَلاتِهِ وَطَاعَتِهِ مَا لَا نِسْبَةَ بَينَهُ وَبينَ أَعلَىٰ نَعِيمِ الدُّنْيَا أَلْبَتَّةَ؛ فَيَسْتَخْرِجُ هَذَا المَشْهَدُ مِنَ العَبْدِ مِنَ الخُشُوعِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ قَبْلُ. وَمَا للمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاتِهِ إِذَا كَانَ قَلْبُهُ عَنْ هَذَا مَصْدُودًا، وَطَرِيقُ الْوُصُولِ إِلَيْهِ عَنهُ مَسْدُودًا، بَلْ هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(1)»(2).

وَمَنْ رَأَىٰ مِنَّةَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الصَّلَاةِ؛ خَشَعَ لَهُ وَذَلَّ واسْتكَانَ؛ فَإِنَّهُ لَا أَذَلَّ مِنْ مُحْتَاجٍ بَيْنَ يَدَيْ مُحْسِنٍ مُتَفَضِّلٍ عَلَيْهِ.

المَشْهَدُ السَّادِسُ: مَشْهَدُ التَّقْصِيرِ

«وَهُوَ أَنَّ العَبْدَ لَو اجْتهد فِي الْقيام بِالْأَمْرِ غَايَةَ الاِجْتِهَادِ، وَبَذَلَ وَسْعَهُ؛ فَهُوَ مُقَصِّرٌ، وَحَقُّ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ أَن يُقَابَلَ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ والعُبُودِيَّةِ والخِدْمَةِ فَوقَ ذَلِك بِكَثِيرٍ، وَأَنَّ عَظَمَتَهُ وجَلَالَهُ سُبْحَانَهُ يَقْتَضِي مِنَ الْعُبُودِيَّةِ مَا يَلِيقُ بِهَا، وَإِذا كَانَ خَدَمُ الْمُلُوكِ وعبيدُهُمْ يُعامِلُونَهُمْ فِي خِدْمَتِهِمْ بالإِجْلالِ لَهُمْ، والتَّعْظِيمِ، والاحْتِرامِ، والتَّوْقِيرِ، وَالْحَيَاءِ، والمَهَابَةِ، والخَشْيَةِ، والنُّصْحِ، بِحَيْثُ يُفَرِّغُونَ قُلُوبَهُمْ وجوارِحَهُمْ لَهُم؛ فَمَالِكُ الْمُلُوكِ، وَربُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوْلَىٰ أَنْ يُعَامَلَ بِذَلِكَ، بَلْ بِأَضْعَافِ ذَلِكَ.

---

(1) الحِجْر: 3.

(2) رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه: 1/ 42.

وَإِذَا شَهِدَ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَمْ يُوَفِّ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي صَلَاتِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ حَقَّهُ، وَلَا قَرِيبًا مِنْ حَقِّهِ؛ عَلِمَ تَقْصِيرَهُ، وَلم يَسَعْهُ مَعَ ذَلِكَ غَيرُ الاسْتِغْفَارِ والاعْتِذَارِ مِنْ تَقْصِيرِهِ وتَفريطِهِ، وَعدَمِ الْقِيامِ بِمَا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ حقِّهِ، وَأَنَّهُ إِلَىٰ أَنْ يَغفرَ لَهُ تقصِيرَهُ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَيَعْفُوَ عَنهُ فِيهَا، أَحْوجُ مِنْهُ إِلَىٰ أَنْ يطْلبَ مِنْهُ عَلَيْهَا ثَوابًا، وَهُوَ لَو وفَّاهَا حَقَّهَا كَمَا يَنْبَغِي؛ لكَانَتْ مُسْتَحَقَّةً عَلَيْهِ بِمُقْتَضَىٰ الْعُبُودِيَّةِ، فَإِنَّ عَمَلَ العَبْدِ وخِدْمَتَهُ لِسَيِّدِهِ مُسْتَحَقٌّ عَلَيْهِ بِحُكْمِ كَونِهِ عَبدَهُ ومَمْلُوكَهُ، فَلَوْ طَلَبَ مِنْهُ الْأُجْرَةَ علَىٰ عَمَلِهِ وخِدْمتِهِ؛ لَعَدَّهُ النَّاسُ أَحْمَقَ وأَخْرَقَ[1]، فَعَمَلُهُ وخِدْمَتُهُ مُسْتَحَقٌّ عَلَيْهِ بِحُكْمِ كَونِهِ عَبدَهُ، فَإِذا أَثَابَهُ عَلَيْهِ كَانَ ذَلِك مُجَرَّدَ فَضْلٍ ومِنَّةٍ وإِحسانٍ إِلَيْهِ، لَا يسْتَحِقُّهُ العَبْدُ عَلَيْهِ؛ وَمن هَهُنَا يُفْهَمُ مَعْنَىٰ قولِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»[2].

وَقَالَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: يَخْرُجُ للْعَبدِ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثَلَاثَةُ دَوَاوِينَ: دِيوَانٌ فِيهِ حَسَنَاتُهُ، ودِيوانٌ فِيهِ سيئاتُهُ، ودِيوانُ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ بها، فَيَقُولُ الرَّبُّ تَعَالَىٰ لِنِعَمِهِ: خُذِي حَقَّكِ مِنْ حَسَنَاتِ عَبدِي؛ فَيقومُ أصغرُهَا؛ فَتَسْتَنْفِذُ حَسَنَاتِهِ، ثُمَّ تَقُولُ: وَعِزَّتِكَ مَا استوفَيْتُ حَقِّي بعدُ، فَإِذا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْحَمَ عَبدَهُ وَهَبَهُ نِعَمَهُ عَلَيْهِ، وَغفَر لَهُ سَيِّئَاتِهِ، وَضَاعَفَ لَهُ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا ثَابتٌ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، وَهُوَ أَدَلُّ شَيْءٍ عَلَىٰ كَمَالِ عِلْمِ الصَّحَابَةِ

---

(1) الأَخْرَقُ والأَحْمَقُ والأَرْعَنُ: الذِي لَا يُحْسِنُ عَمَلَهُ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 7/ 15، ومقاييس اللغة، لابن فارس: 2/ 251.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ تَمَنِّي المَرِيضِ المَوْتَ: 7/ 121، رقم: (5673)، ومسلم، بَابُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ: 2/ 2169، رقم: (2816).

برَبِّهِمْ تبارك وتَعَالَىٰ وحُقُوقِهِ عَلَيْهِم، كَمَا أَنَّهُمْ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِنَبِيِّهِمْ ﷺ وسُنَّتِهِ وَدِينِهِ، فَإِنَّ فِي هَذَا الْأَثَرِ مِنَ الْعِلْمِ والمَعْرِفَةِ مَا لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا أُولُو البَصائِرِ العَارِفُونِ بِاللهِ تَعالَىٰ وأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَحقِّهِ، وَمِنْ هُنَا يُفْهَمُ قَولُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الحَدِيثِ: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ، وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ، كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ»[1]»[2].

فَيَشْهَدُ العَبْدُ فِي هَذَا المَشْهَدِ عَدمَ رِضَاهُ عَنْ عَمَلِهِ، وَأَنَّ عَمَلَهُ لَا يَصْلُحُ قُرْبَانًا للمَلِكِ الحَقِّ سُبْحانَهُ وَتَعالَىٰ؛ كَمَا «قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: مَتَىٰ رَضِيتَ نَفْسَكَ وَعَمَلَكَ للهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ غَيْرُ رَاضٍ بِهِ، وَمَنْ عَرَفَ أَنَّ نَفْسَهُ مَأْوَىٰ كُلِّ عَيْبٍ وَشَرٍّ، وَعَمَلَهُ عُرْضَةٌ لِكُلِّ آفَةٍ وَنَقْصٍ؛ كَيْفَ يَرْضَىٰ للهِ نَفْسَهُ وَعَمَلَهُ؟

وَللهِ دَرُّ الشَّيْخِ أَبِي مَدْيَنَ حَيْثُ يَقُولُ: كُلَّمَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ فِي قَلْبِكَ؛ صَغُرَتْ نَفْسُكَ عِنْدَكَ، وَتَضَاءَلَتِ الْقِيمَةُ الَّتِي تَبْذُلُهَا فِي تَحْصِيلِهِ، وَكُلَّمَا شَهِدْتَ حَقِيقَةَ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ، وَعَرَفْتَ اللهَ، وَعَرَفْتَ النَّفْسَ، وَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ مَا مَعَكَ مِنَ الْبِضَاعَةِ لَا يَصْلُحُ لِلْمَلِكِ الْحَقِّ، وَلَوْ جِئْتَ بِعَمَلِ الثَّقَلَيْنِ[3] خَشِيتَ عَاقِبَتَهُ وَإِنَّمَا يَقْبَلُهُ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَتَفَضُّلِهِ، وَيُثِيبُكَ عَلَيْهِ أَيْضًا بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَتَفَضُّلِهِ»[4].

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، حَدِيثُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ: 35/ 465، رقم: (21589)، وابن ماجه، بَابٌ فِي الْقَدَرِ: 1/ 29، رقم: (77)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده قوي».

(2) رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه: 1/ 46.

(3) الثَّقَلَانِ: الْإِنْس وَالْجِنّ، انظر: المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده: 6/ 355.

(4) انظرْ: مدارجَ السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 192-194.

فَإِذَا قَامَ العَبْدُ فِي صَلَاتِهِ بِحَقِّ هَذَا المَشْهَدِ، وَشَهِدَ تَقْصِيرَهُ عَنِ القِيامِ بِحَقِّ رَبِّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ فِي صَلَاتِهِ وعِبَادَتِهِ؛ بَعْدَ شُهُودِ تَمَامِ مِنَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ؛ اسْتَخْرَجَ مِنْهُ مِنَ الخُشُوعِ والرِّقَّةِ والتَّعَلُّقِ باللهِ تَعَالَىٰ والاسْتِكَانَةِ لَهُ مَا اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ عَلِيمٌ.

المَشْهَدُ السَّابِعُ: مَشْهَدُ الافْتِقَارِ[1]

وَبَعْدَ شُهُودِ العَبْدِ مِنَّةَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ صَاحِبُ الفَضْلِ والمِنَّةِ فِي كُلِّ مَا يَأْتِي مِنَ العَبْدِ مِنْ خَيْرٍ فِي دِينِهِ ودُنْيَاهُ، وَأَنَّ العَبْدَ بِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لَا بِنَفْسِهِ. وَبَعْدَ شُهُودِ العَبْدِ مَشْهَدَ التَّقْصِيرِ مِنْ نَفْسِهِ، وَأَنَّهُ مُقَصِّرٌ فِيمَا للهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ العُبُودِيَّةِ، مُقَصِّرٌ فِي عَدَدِهَا وَكَمِّهَا، ومُقَصِّرٌ فِي صِفَتِهَا وَكَيْفِيَّتِهَا. بَعْدَ شُهودِ هَذَينِ المَشْهَدَيْنِ؛ يَتَوَلَّدُ مِنْ هَذَينِ المَشْهَدَيْنِ مَشْهَدٌ ثالثٌ أَجَلُّ مِنْهُمَا، وَأَكْمَلُ، وَهُوَ مَشْهَدُ الافْتِقَارِ، والافْتِقَارُ: أَنْ يَكُونَ العَبْدُ مُفْتَقِرًا إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ ظَاهِرًا وباطِنًا، مُسْتَشْعِرًا حاجَتَهُ إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ فِي كُلِّ شَيْءٍ، ومَعَ كُلِّ نَفَسٍ، وأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ فيهِ مِنْ فَضْلٍ هُوَ مِنَ اللهِ تَعالَىٰ علَىٰ الحَقِيقَةِ. فالْفَقْرُ الْحَقِيقِيُّ: دَوَامُ الافْتِقَارِ إِلَىٰ اللهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَأَنْ يَشْهَدَ الْعَبْدُ -فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ- فَاقَةً تَامَّةً إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ. فالفَقِيرُ الذِي لا يَرَىٰ لِنَفْسِهِ حَاجَةً

---

(1) هَذَا المَشْهَدُ، مَشْهَدُ الافْتِقَارِ، والتِي بَعْدَهُ: مَشَاهِدُ الصَّبْرِ والتَّعْظِيمِ والمَحَبَّةِ، لَمْ يَذْكُرْهَا ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ فِي رِسَالَتِهِ لِأَحَدِ إِخْوَانِهِ، وَقَدِ اسْتَلَلْنَا هَذِهِ المَشَاهِدَ الأَرْبَعَةَ مِنْ مَواضِعَ مُتَفَرِّقَةٍ مِنْ كِتَابَاتِهِ، وبَعْضُهَا أَفْرَدَ لَهُ كِتَابًا، مِثْلُ مَشْهَدِ الصَّبْرِ، فَقَدْ أَفْرَدَ لَهُ كِتَابَ: عُدَّةُ الصَّابِرِينَ، وذَخِيرَةُ الشَّاكِرِينَ، ومَشْهَدُ المَحَبَّةِ، أَفْرَدَ لَهُ كِتَابَ: رَوْضَةُ المُحِبِّينَ، ونُزْهَةُ المُشْتَاقِينَ؛ وَأَمَّا مَشْهَدا الافْتِقَارِ والتَّعْظِيمِ، فَلَمْ يَدَعْ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- مَوْضِعًا مِنْ كِتَابَاتِهِ إِلَّا وَذَكَرَهُمَا فِيهِ، فَتَرَاهُ يُلِحُّ بِكَثْرَةٍ عَلَيْهِمَا حَيْثُ تَوَجَّهَ، وَفِي أَيٍّ؛ وَنَحْنُ لِأَهَمِّيَّةِ هَذِهِ المَشَاهِدِ الأَرْبَعَةِ هُنَا؛ رَأَيْنَا أَنْ نُتْبِعَهَا المَشَاهِدَ السِّتَّةَ؛ لِتَكْمُلَ بِهَا العَشَرَةُ؛ فَيَكْمُلَ بِهَا الخَيْرُ، وَتَتِمَّ الفَائِدَةُ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَىٰ وتَوْفِيقِهِ.

إِلَىٰ شَيْءٍ مِنَ الأَشياءِ سِوَىٰ رَبِّهِ تبارَكَ وتعالَىٰ، فَهُوَ عَبْدٌ خَالِصٌ بِكُلِّيَّتِهِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، ليسَ لِنَفْسِهِ ولا لِهَواهُ فِي أَحْوالِهِ حَظٌّ ولا نَصيبٌ، فَمُعَوَّلُهُ علَىٰ اللهِ تعالَىٰ، وهِمَّتُهُ لا تَقِفُ دُونَ شَيْءٍ سِواهُ، لَا يَفْرَحُ بِمَوْجودٍ، وَلَا يَأْسَفُ علَىٰ مَفْقُودٍ، بَرِيءٌ مِنَ الدَّعاوَىٰ، فَلَا يَدَّعِي بِلِسَانِهِ ولا بِقَلْبِهِ ولا بِحَالِهِ شَيْئًا، زَاهِدٌ فِي كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ قائِمٌ علَىٰ عِبادَةِ رَبِّهِ تبارك وتَعالَىٰ الليلَ والنَّهارَ، عَاكِفٌ عَلَيْها؛ وَلَا يَرَىٰ أَنَّهُ عَمِلَ شَيْئًا، فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَىٰ عَمَلِهِ بِعَيْنِ العَيْبِ والنَّقْصِ، دائِمُ الاسْتِغْفارِ مِنْ تَقْصيرِهِ فِي عِبادَةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَهُوَ لَا يَعْتَمِدُ علَىٰ حَسَنَاتِهِ؛ وإِنَّمَا يَعْتَمِدُ علَىٰ كَرَمِ رَبِّهِ تَعالَىٰ فِي قَبُولِ أَعْمالِهِ، وإِثَابَتِهِ عَلَيْها[1].

قَالَ ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «فَيَحْصُلُ لِقَلْبِهِ كَسْرَةٌ خَاصَّةٌ لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ؛ فَحِينَئِذٍ يَسْتَكْثِرُ فِي هَذَا الْمَشْهَدِ مَا مِنْ رَبِّهِ إِلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَرَىٰ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ قَلِيلًا مِنْهُ وَلَا كَثِيرًا، فَأَيُّ خَيْرٍ لَهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ اسْتَكْثَرَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَعَلِمَ أَنَّ قَدْرَهُ دُونَهُ، وَاسْتَقَلَّ مَا مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ لِرَبِّهِ، وَرَآهَا وَلَوْ سَاوَتْ طَاعَاتِ الثَّقَلَيْنِ مِنْ أَقَلِّ مَا يَنْبَغِي لِرَبِّهِ عَلَيْهِ، وَاسْتَكْثَرَ قَلِيلَ مَعَاصِيهِ وَذُنُوبِهِ، فَإِنَّ الْكَسْرَةَ الَّتِي حَصَلَتْ لِقَلْبِهِ أَوْجَبَتْ لَهُ هَذَا كُلَّهُ.

فَمَا أَقْرَبَ الْجَبْرَ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ الْمَكْسُورِ! وَمَا أَدْنَىٰ النَّصْرَ وَالرَّحْمَةَ والرِّقَّةَ والخُشُوعَ وَالرِّزْقَ مِنْهُ! وَمَا أَنْفَعَ هَذَا الْمَشْهَدَ لَهُ وَأَجْدَاهُ عَلَيْهِ! وَذَرَّةٌ مِنْ هَذَا وَنَفَسٌ مِنْهُ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ طَاعَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ مِنَ الْمُدِلِّينَ[2] الْمُعْجَبِينَ بِأَعْمَالِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، وَأَحَبُّ الْقُلُوبِ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ قَلْبٌ قَدْ تَمَكَّنَتْ مِنْهُ هَذِهِ الْكَسْرَةُ،

---

(1) انظرْ: مدارجَ السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 2/ 411، وطريقَ الهجرتين وباب السعادتين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 47-51.

(2) المُدِلُّونَ: المُمْتَنُّونَ بِعِبادَتِهِمْ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 14/ 48.

وَمَلَكَتْهُ هَذِهِ الذِّلَّةُ؛ فَهُوَ نَاكِسُ الرَّأْسِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَيْهِ حَيَاءً وَخَجَلًا مِنَ اللهِ، وَعَنَا[1] الْوَجْهُ حِينَئِذٍ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ، وَخَشَعَ الصَّوْتُ وَالْجَوَارِحُ كُلُّهَا، وَذَلَّ الْعَبْدُ وَخَضَعَ وَاسْتَكَانَ، وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَىٰ عَتَبَةِ الْعُبُودِيَّةِ، نَاظِرًا بِقَلْبِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ وَوَلِيِّهِ نَظَرَ الذَّلِيلِ إِلَىٰ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ، فَلَا يُرَىٰ إِلَّا مُتَمَلِّقًا[2] لِرَبِّهِ، خَاضِعًا لَهُ، ذَلِيلًا مُسْتَعْطِفًا لَهُ، يَسْأَلُهُ عَطْفَهُ وَرَحْمَتَهُ، فَهُوَ يَتَرَضَّىٰ رَبَّهُ كَمَا يَتَرَضَّىٰ الْمُحِبُّ الْكَامِلُ الْمَحَبَّةِ مَحْبُوبَهُ الْمَالِكَ لَهُ، الَّذِي لَا غِنَىٰ لَهُ عَنْهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، فَلَيْسَ لَهُ هَمٌّ غَيْرَ اسْتِرْضَائِهِ وَاسْتِعْطَافِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا حَيَاةَ لَهُ، وَلَا فَلَاحَ إِلَّا فِي قُرْبِهِ وَرِضَاهُ عَنْهُ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، يَقُولُ: كَيْفَ أُغْضِبُ مَنْ حَيَاتِي فِي رِضَاهُ؟ وَكَيْفَ أَعْدِلُ عَمَّنْ سَعَادَتِي وَفَلَاحِي وَفَوْزِي فِي قُرْبِهِ وَحُبِّهِ وَذِكْرِهِ؟

وَأَلْقَىٰ بِنَفْسِهِ طَرِيحًا بِبَابِهِ، يُمَرِّغُ خَدَّهُ فِي ثَرَىٰ أَعْتَابِهِ، بَاكِيًا بَيْنَ يَدَيْهِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، ارْحَمْ مَنْ لَا رَاحِمَ لَهُ سِوَاكَ، وَلَا نَاصِرَ لَهُ سِوَاكَ، وَلَا مُؤْوِيَ لَهُ سِوَاكَ، وَلَا مُغِيثَ لَهُ سِوَاكَ. مِسْكِينُكَ وَفَقِيرُكَ، وَسَائِلُكَ وَمُؤَمِّلُكَ وَمُرَجِّيكَ، لَا مَلْجَأَ لَهُ وَلَا مَنْجَىٰ لَهُ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، أَنْتَ مَعَاذُهُ وَبِكَ مَلَاذُهُ.

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ❋❋❋ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ

---

(1) عَنَا الوَجْهُ: اسْتَسْلَمَ، وَذَلَّ، وخَضَعَ، وانْقَادَ، انظر: مسائل نافع بن الأزرق، المسمىٰ: (غريب القرآن في شعر العرب)، لعبد الله بن عباس: 168.

(2) مُتَمَلِّقٌ: مُتَوَدِّدٌ، والمَلَقُ: الوُدُّ واللُّطْفُ الشَّدِيدُ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 9/ 149.

لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ *** وَلَا يَهِيضُونَ[1] عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ»[2].

وإِنَّ بَابَ الافْتِقَارِ مِنْ أَوْسَعِ الأَبْوابِ التِي تُدْخِلُ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَأَرْحبِهَا وَأَسْلَكِهَا؛ «يُحْكَىٰ عَنْ بَعْضِ الْعَارِفِينَ، أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ أَبْوَابِ الطَّاعَاتِ كُلِّهَا، فَمَا دَخَلْتُ مِنْ بَابٍ إِلَّا رَأَيْتُ عَلَيْهِ الزِّحَامَ، فَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ الدُّخُولِ، حَتَّىٰ جِئْتُ بَابَ الذُّلِّ وَالافْتِقَارِ، فَإِذَا هُوَ أَقْرَبُ بَابٍ إِلَيْهِ وَأَوْسَعُهُ، وَلَا مُزَاحِمَ فِيهِ وَلَا مُعَوِّق، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَضَعْتُ قَدَمِي فِي عَتَبَتِهِ، فَإِذَا هُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَخَذَ بِيَدِي، وَأَدْخَلَنِي عَلَيْهِ!

وهَذِهِ الذِّلَّةَ وَالْكَسْرَةَ الْخَاصَّةَ تُدْخِلُهُ عَلَىٰ اللهِ، وَتَرْمِيهِ عَلَىٰ طَرِيقِ الْمَحَبَّةِ، فَيُفْتَحُ لَهُ مِنْهَا بَابٌ لَا يُفْتَحُ لَهُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَإِنْ كَانَتْ طُرُقُ سَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالطَّاعَاتِ تَفْتَحُ لِلْعَبْدِ أَبْوَابًا مِنَ الْمَحَبَّةِ، لَكِنَّ الَّذِي يَفْتَحُ مِنْهَا مِنْ طَرِيقِ الذُّلِّ وَالِانْكِسَارِ وَالِافْتِقَارِ وَازْدِرَاءِ[3] النَّفْسِ، وَرُؤْيَتِهَا بِعَيْنِ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ وَالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ وَالذَّمِّ، بِحَيْثُ يُشَاهِدُهَا ضَيْعَةً وَعَجْزًا، وَتَفْرِيطًا وَذَنْبًا وَخَطِيئَةً، نَوْعٌ آخَرُ وَفَتْحٌ آخَرُ»[4].

فَيَا لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ، لَوْ شَهِدَهُ العَبْدُ فِي عِبَادَتِهِ؛ لَنَسِيَ مَعَهُ كُلَّ لَذَائِذِ الدُّنْيَا، وَلَطَابَتْ لَهُ العُبُودِيَّةُ، ولَخَشَعَ قَلْبُهُ خُشُوعًا، لَمْ يَذُقْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، فإِنَّ الخُشُوعَ المُلَازِمَ للافْتِقَارِ لَيْسَ

---

(1) هاض عظمه: كسره بعد الجبر، ويقال: هاضَ فؤادَه الحزنُ يَهيضه هَيْضًا، إذا أَصابَهُ الْحزن مرّة بعد أُخْرَىٰ، انظر: جَمْهَرَةَ اللُّغَةِ، لابن دريد: 2/ 913، ومقاييس اللغة، لابن فارس: 6/ 24.

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 427-429.

(3) ازْدِرَاءٌ: احْتِقَارٌ واسْتِخْفَافٌ، انظر: طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، للنسفي: 1/ 74.

(4) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 429.

كَكُلِّ خُشُوعٍ، وَلَخَفَّتْ عَلَيْهِ، وَلَأَسْرَعَ فِيهَا؛ لِمَا يَجِدُ مَعَهَا مِنْ حَلاوَةٍ تُنْسِيهِ مَشَقَّةَ العُبُودِيَّةِ وَشِدَّتَهَا وَطُولَهَا.

المَشْهَدُ الثَّامِنُ: مَشْهَدُ الصَّبْرِ

لا بُدَّ لِسَالِكٍ طَرِيقَهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ مُصَاحَبَةِ الصَّبْرِ؛ فَهُوَ أَعْظَمُ مُعِينٍ عَلَىٰ القِيَامِ بِحَقِّ العُبُودِيَّةِ وَوَظَائِفِهَا؛ لِذَلِكَ لَزِمَ التَّأْكِيدُ عَلَىٰ أَهَمِّيَّةِ الصَّبْرِ للعُبَّادِ، واعْتِبارُهُ مَشْهدًا مِنْ مَشَاهِدِ العُبُودِيَّةِ؛ فَلَا تَقُومُ العُبُودِيَّةُ الحَقَّةُ إِلَّا عَلىٰ سَاقِ الصَّبْرِ؛ قَالَ ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «الصَّبْرُ مِنْ آكَدِ الْمَنَازِلِ فِي طَرِيقِ العُبُودِيَّةِ، وَأَلْزَمِهَا للعُبَّادِ، وَهُمْ أَحْوَجُ إِلَىٰ مَنْزِلَتِهِ مِنْ كُلِّ مَنْزِلَةٍ، وَحَاجَةُ العَبْدِ إِلَيْهِ ضَرُورِيَّةٌ، وَبِهِ يُعْلَمُ صَحِيحُ العِبَادَةِ مِنْ مَعْلُولِهَا، وَصَادِقُهَا مِنْ كَاذِبِهَا. فَإِنَّ بِقُوَّةِ الصَّبْرِ عَلَىٰ الْمَكَارِهِ فِي مُرَادِ الْمَحْبُوبِ يُعْلَمُ صِحَّةُ مَحَبَّتِهِ؛ فَأَعْظَمُ العِبَادِ مَحَبَّةً للهِ تَعالَىٰ أَعْظَمُهُمْ صَبْرًا»[1].

والصَّبْرُ قَرِينُ العِبَادَاتِ كُلِّهَا، وَعُدَّةٌ للعَبْدِ عَلَيْهَا، لَا عُدَّةَ أَلْزَمَ لَهُ مِنْهُ؛ «فَقَرَنَهُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ بالصَّلَاةِ كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[2]، وَقَرَنَهُ بالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ عُمُومًا كَقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[3]، وَجَعَلَهُ قَرِينَ التَّقْوَىٰ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾[4]، وجَعَلَهُ قَرِينَ الشُّكْرِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[5]، وَجَعَلَهُ

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 2/ 161-162.

(2) البقرة: 45.

(3) هود: 11.

(4) يوسف: 90.

(5) إبراهيم: 5.

قَرِينَ الحَقِّ كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1]، وَجَعَلَهُ قَرِينَ الرَّحْمَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[2]، وَجَعَلَهُ قَرِينَ اليَقِينِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[3]، وَجَعَلَهُ قَرِينَ الصِّدْقِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾[4]، وَجَعَلَهُ سَبَبَ مَحَبَّتِهِ وَمَعِيَّتِهِ وَنَصْرِهِ وَعَوْنِهِ وحُسْنِ جَزَائِهِ؛ وَيَكْفِي بَعْضُ ذَلِكَ شَرَفًا وفَضْلًا»[5].

وَإِنَّ خُشُوعَ الصَّابِرِينَ أَحْسَنُ خُشُوعٍ وأَبْرَكُهُ وأَدْوَمُهُ؛ فَإِنَّ العَبْدَ الخَاشِعَ يَلْزَمُهُ الصَّبْرُ مَعَ كُلِّ نَفَسٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ أَمْرِ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ أَوَّلًا، ثُمَّ يَلْزَمُهُ أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ قَهْرِ الوَسَاوِسِ والخَوَاطِرِ التِي تُشَتِّتُ هَمَّهُ، وتُذْهِبُ خُشُوعَهُ، ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ الخُشُوعِ، وَيَثْبُتَ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ الصَّلَاةِ إِلَىٰ آخِرِهَا، ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ تَحْقِيقِ الخُشُوعِ فِي صَلَوَاتِهِ كُلِّهَا، لَا أَنْ تَكُونَ فَلْتَةً عَابِرَةً، مَرَّةً وَاحِدَةً فِي العَامِ أَوْ مَرَّتَيْنِ. قَالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ: «يَعْرِضُ الْوَسْوَاسُ لِكُلِّ مَنْ تَوَجَّهَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِذِكْرٍ أَوْ غَيْرِهِ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَثْبُتَ وَيَصْبِرَ، وَيُلَازِمَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الذِّكْرِ وَالصَّلَاةِ، وَلَا يَضْجَرَ، فَإِنَّهُ بِمُلَازَمَةِ ذَلِكَ يَنْصَرِفُ عَنْهُ كَيْدُ الشَّيْطَانِ، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[6]. وَكُلَّمَا أَرَادَ

---

(1) العصر: 3.

(2) البلد: 17.

(3) السجدة: 24.

(4) الأحزاب: 35.

(5) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 7.

(6) النساء: 76.

الْعَبْدُ تَوَجُّهًا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِقَلْبِهِ جَاءَ مِنَ الْوَسْوَاسِ أُمُورٌ أُخْرَىٰ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ بِمَنْزِلَةِ قَاطِعِ الطَّرِيقِ، كُلَّمَا أَرَادَ الْعَبْدُ يَسِيرُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ أَرَادَ قَطْعَ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ»(1).

المَشْهَدُ التَّاسِعُ: مَشْهَدُ التَّعْظِيمِ

وَهَذَا المَشْهَدُ مِنْ أَجَلِّ مَشَاهِدِ الصَّلَاةِ القَلْبِيَّةِ وأَبْرَكِهَا التِي تَعْظُمُ بِهَا الصَّلَاةُ ؛ فَبِهِ تَزْكُو الصَّلَاةُ، وَيُبَارَكُ فِيها، ويَتَأَهَّلُ صَاحِبُهَا للخُشُوعِ والقَبُولِ والقُرْبِ، وَبُلوغِ مَرْتَبَةِ المَحْبُوبِيَّةِ، إِذِ «المَحَبَّةُ لَا تَنْفَكُّ عَنْ تَعْظِيمٍ وإِجْلالٍ للمَحْبُوبِ، ولكِنْ يُضَافُ إِلَىٰ كُلِّ ذاتٍ بِحَسَبِ مَا تَقْتضيهِ خصائِصُ تِلْكَ الذَّاتُ، فَمَحَبَّةُ العَبْدِ لِرَبِّهِ تَسْتَلْزِمُ إِجْلالَهُ وتعَظِيمَهُ، وَكَذَلِكَ مَحَبَّةُ الرَّسُولِ ﷺ تَسْتَلْزِمُ تَوْقِيرَهُ وتَعْزِيرَهُ(2) وإِجْلَالَهُ»(3).

حَقِيقَةُ التَّعْظِيمِ

أَمَّا حَقِيقَةُ التَّعْظِيمِ، التِي مَتَىٰ شَهِدَهَا العَبْدُ؛ كَانَ مُعَظِّمًا رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَقَّ التَّعْظِيمِ؛ فَهِيَ: «حَالَةٌ لِلْقَلْبِ تَتَوَلَّدُ مَعَ مَعْرِفَتَيْنِ:

* **إِحْدَاهُمَا**: مَعْرِفَةُ جَلَالَةِ اللهِ ﷻ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ، فإِنَّ مَنْ لا يَعْتَقِدُ عَظَمَتَهُ سُبْحَانَهُ؛ لَا تُذْعِنُ النَّفْسُ لِتَعْظِيمِهِ.

* **الثَّانِيَةُ**: مَعْرِفَةُ حَقَارَةِ النَّفْسِ وَخِسَّتِهَا، وَكَوْنِهَا عَبْدًا مُسَخَّرًا مَرْبُوبًا؛ حَتَّىٰ يَتَوَلَّدَ مِنَ الْمَعْرِفَتَيْنِ الِاسْتِكَانَةُ، وَالِانْكِسَارُ، وَالْخُشُوعُ للهِ سُبْحَانَهُ؛ فَيُعَبَّرُ عَنْهُ بِالتَّعْظِيمِ.

---

(1) الفتاوىٰ الكبرىٰ، لابن تيمية: 2/ 224.

(2) التَّعْزِيرُ: النُّصْرَةُ مَعَ التَّعْظِيمِ، انظر: المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني: 1/ 564.

(3) بدائع الفوائد، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 2/ 94.

وَمَا لَمْ تَمْتَزِجْ مَعْرِفَةُ حَقَارَةِ النَّفْسِ بِمَعْرِفَةِ جَلالِ اللهِ تَعالَىٰ؛ لَا تَنْتَظِمُ حالَةُ التَّعْظِيمِ والخُشُوعِ، فإِنَّ المُسْتَغْنِيَ عَنِ اللهِ تَعالَىٰ، الآمِنَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، لا يَكُونُ الخُشُوعُ والتَّعْظِيمُ حَالَهُ»[1].

فالتَّعْظِيمُ أَنْ يَشْهَدَ العَبْدُ فِي صَلاتِهِ وعِبَادَتِهِ كَمَالَ عِلْمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَجَهْلَ نَفْسِهِ، وكَمَالَ قُوَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَضَعْفَ نَفْسِهِ، وكَمَالَ عِزِّ اللهِ تَعالَىٰ، وَذُلَّ نَفْسِهِ، وكَمَالَ غِنَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَفَقْرَ نَفْسِهِ، وكَمَالَ إِحْسانِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَقُصُورَ نَفْسِهِ... فَإِذَا مَا شَهِدَ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ تَبارَكَ وتَعالَىٰ، ومِنْ نَفْسِهِ تِلْكَ المَشَاهِدَ؛ تَحَقَّقَ لَهُ مَشْهَدُ التَّعْظِيمِ أَكْمَلَ تَحَقُّقٍ، وتَحَقَّقَ الخُشُوعُ بَعْدَ ذَلِكَ بالتَّبَعِيَّةِ؛ ومَنْ لم يَشْهَدْ ذَلِكَ مِنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وتَعالَىٰ، ومِنْ نَفْسِهِ؛ فَهُوَ عَنْ تَعْظِيمِ اللهِ تَعالَىٰ بِمَعْزِلٍ، وَأَنَّىٰ لَهُ أَنْ يَخْشَعَ فِي صَلَاتِهِ!

الحَيَاءُ قَرِينُ التَّعْظِيمِ

عَلَىٰ قَدْرِ مَنْزِلَةِ المَحْبُوبِ فِي قَلْبِ مُحِبِّهِ يَكُونُ اسْتِحْيَاؤُهُ مِنْهُ، فَمَنْ عَظُمَ مَحْبُوبُهُ فِي عَيْنِهِ عَظُمَ الحَيَاءُ مِنْهُ؛ لِذَلِكَ لَا يُسْتَحْيَا مِنَ الصَّغِيرِ الذِي لَا يَعْقِلُ، وَلَا مِنَ الأَبْلَهِ ذَاهِبِ العَقْلِ؛ لِخُلُوِّ القُلُوبِ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ، قالَ مُحَمَّدُ بنُ نَصْرٍ المَرْوَزِيُّ: «والحَياءُ مِنَ اللهِ تعالَىٰ هَائِجٌ عَنِ الْمَعْرِفَةِ بِعَظَمَةِ اللهِ تَعالَىٰ وَجَلَالِهِ وَقُدْرَتِهِ، لِأَنَّهُ إِذَا ثَبَتَ تَعْظِيمُ اللهِ تَعالَىٰ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ؛ أَوْرَثَهُ الْحَيَاءَ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْهَيْبَةَ لَهُ، فَغَلَبَ عَلَىٰ قَلْبِهِ ذِكْرُ اطِّلَاعِ اللهِ الْعَظِيمِ وَنَظَرِهِ بِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ إِلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَجَوارِحِهِ، وَذِكْرُ الْمَقَامِ غَدًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَسُؤَالِهِ إِيَّاهُ عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِ قَلْبِهِ وَجَوارِحِهِ، وَذِكْرُ دَوَامِ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، وَقِلَّةِ الشُّكْرِ مِنْهُ لِرَبِّهِ، فَإِذَا غَلَبَ ذِكْرُ هَذِهِ الْأُمُورِ عَلَىٰ قَلْبِهِ؛ هَاجَ مِنْهُ الْحَيَاءُ مِنَ اللهِ تعالىٰ؛ فَاسْتَحْيَا مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يَطَّلِعَ

---

(1) إحياء علوم الدين، للغزالي: 1/ 162.

عَلَىٰ قَلْبِهِ وَهُوَ مُعْتَقِدٌ لِشَيْءٍ مِمَّا يَكْرَهُ، أَوْ عَلَىٰ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِهِ، يَتَحَرَّكُ بِمَا يَكْرَهُ؛ فَطَهَّرَ قَلْبَهُ مِنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ، وَمَنَعَ جَوَارِحَهُ مِنْ جَمِيعِ مَعَاصِيهِ»(1)، «فالْحَيَاءَ حَالَةٌ حَاصِلَةٌ مِنَ امْتِزَاجِ التَّعْظِيمِ بِالْمَوَدَّةِ، فَإِذَا اقْتَرَنَا؛ تَوَلَّدَ بَيْنَهُمَا الْحَيَاءُ»(2).

فالعَبْدُ المُعَظِّمُ للهِ تَعَالَىٰ يَسْتَحْيِي «مِنْهُ كَمَا يَسْتَحِيِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ؛ فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ؛ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِأَنَّ اللهَ ﷻ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ؛ فَلَا يَدَعُ قَلْبَهُ يُضْمِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا يَكْرَهُ، وَاسْتَحْيَا مِنْ كُلِّ نَقْصٍ يَدْخُلُ فِيهِ مِنْ فُضُولِ الدُّنْيَا، فَهُوَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَرَاهُ رَاغِبًا فِيمَا زَهَّدَهُ فِيهِ»(3)، مُشْتَغِلًا فِكْرُهُ بِغَيْرِ صَلاتِهِ، ذَاهِبًا قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ ﷻ، وَهَكَذَا لَا يَزَالُ التَّعْظِيمُ بالعَبْدِ؛ حتَّىٰ يَدُلَّهُ عَلَىٰ الحَياءِ، ولَا يَزَالُ الحَيَاءُ بالعَبْدِ؛ حتَّىٰ يَدُلَّهُ عَلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ؛ مِنْ خُشُوعٍ، وَرِقَّةٍ، وإِقْبَالٍ علَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، فَفِي الحَدِيثِ: «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»(4).

---

(1) تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِيِّ: 2/ 825.

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 2/ 253.

(3) تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِيِّ: 2/ 828.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ الحَيَاءِ: 8/ 29، رقم: (6117)، ومسلم، بَابُ شُعَبِ الْإِيمَانِ: 1/ 64، برقم: (37).

المَشْهَدُ العَاشِرُ: مَشْهَدُ المَحَبَّةِ

وَهَذَا المَشْهَدُ طَمَحَتْ[1] إِلَيْهِ عُيُونُ العُبَّادُ، وَإِلَيْهِ تَطَاوَلَتْ أَعْنَاقُهُمْ؛ وَفِيهِ أَدْأَبُوا أَنْفُسَهُمْ: أَسْهَرُوا لَيْلَهُمْ، وَأَخْمَصُوا بُطُونَهُمْ، فَفِي الحَدِيثِ الإِلَهِيِّ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ؛ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ»[2].

فَمَا مِنْ مَشْهَدٍ مِنَ المَشَاهِدِ إِلَّا وَهُوَ مُقَدِّمَةٌ لِتَحْقِيقِ مَشْهَدِ المَحَبَّةِ، وَمَا مِنْ خَيْرٍ يَبْلُغُهُ العِبَادُ إِلَّا وَهُوَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ المَحَبَّةِ، يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ فِي الحَدِيثِ الإِلَهِيِّ: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي؛ لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي؛ لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[3]. فَلا يَزَالُ العَبْدُ يَطْلُبُ مَحَبَّةَ اللهِ تَعَالَىٰ بِصَلاتِهِ وَعِبَادَتِهِ؛ حَتَّىٰ إِذَا رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهُ ذَلِكَ، وَعَلِمَ صِدْقَ تَوَجُّهِهِ إِلَيْهِ؛ أَلْقَىٰ فِي قَلْبِهِ مَحَبَّتَهُ، واجْتَبَاهُ لِمَوَدَّتِهِ، واصْطَفَاهُ لِقُرْبِهِ، وَجَعَلَهُ مِنْ خَاصَّةِ أَحْبَابِهِ، وأَدْخَلَهُ فِي زُمْرَةِ أَوْلِيَائِهِ المُقَرَّبِينَ، قَالَ ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: «إِذَا اسْتَبْصَرَ العَبْدُ مَشْهَدَ الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَتَمَكَّنَ مِنْ قَلْبِهِ، وَبَاشَرَهُ وَذَاقَ طَعْمَهُ وَحَلَاوَتَهُ؛ تَرَقَّىٰ مِنْهُ إِلَىٰ الْغَايَةِ الَّتِي شَمَّرَ إِلَيْهَا السَّالِكُونَ، وَأَمَّهَا الْقَاصِدُونَ، وَلَحَظَ[4] إِلَيْهَا العَامِلُونَ، وَهُوَ مَشْهَدُ

---

(1) طَمَحَ: صَعَّدَ بِبَصَرِهِ، وَنَظَرَ إِلَىٰ أَعْلَىٰ، انظر: مجمل اللغة، لابن فارس: 1/ 587.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، باب التواضع: 8/ 105، رقم: (6502).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، باب التواضع: 8/ 105، رقم: (6502).

(4) لَحَظَ: نَظَرَ بِتَرَقُّبٍ، وأَصْلُ اللَّحْظِ: النَّظَرُ بِشِقِّ الْعَيْنِ الَّذِي يَلِي الصُّدْغَ، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة: 2/ 818.

الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَالشَّوْقِ إِلَىٰ لِقَائِهِ، وَالابْتِهَاجِ بِهِ، وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ بِهِ؛ فَتَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ، وَيَسْكُنُ إِلَيْهِ قَلْبُهُ، وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ جَوارِحُهُ، وَيَسْتَوْلِي ذِكْرُهُ عَلَىٰ لِسَانِ مُحِبِّهِ وَقَلْبِهِ، فَتَصِيرُ خَطَرَاتُ الْمَحَبَّةِ مَكَانَ خَطَرَاتِ الْمَعْصِيَةِ، وَإِرَادَاتُ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ مَرْضَاتِهِ مَكَانَ إِرَادَةِ مَعَاصِيهِ وَمَسَاخِطِهِ، وَحَرَكَاتُ اللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ بِالطَّاعَاتِ مَكَانَ حَرَكَاتِهَا بِالْمَعَاصِي؛ قَدِ امْتَلَأَ قَلْبُهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَلَهِجَ لِسَانُهُ بِذِكْرِهِ»[1].

فَيَكُونُ لِهَذَا المَشْهَدِ العَظِيمِ أَعْظَمُ الأَثَرِ فِي خُشُوعِ العُبَّادِ فِي صَلاتِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ، فَإِنَّ قُلُوبَ المُحِبِّينَ مَطْبُوعَةٌ عَلَىٰ الذُّلِّ للمَحْبُوبِ، والخُشُوعِ لَهُ، كَمَا قِيلَ:

إذا كُنْتَ تَهْوَىٰ مَنْ تُحِبُّ ولَمْ تَكُنْ *** ذَلِيلًا فيهِ فاقْرَأِ السَّلامَ علَىٰ الوَصْلِ[2]

تَذَلَّلْ لِمَـنْ تَهْوَىٰ لِتَكْسِبَ عِـزَّةً *** فَـكَمْ عِـزَّةٍ قَـدْ نـالَها المَرْءُ بالذُّلِّ

وكَمَا قَالَ الآخَرُ:

اخْضَعْ وذِلَّ لِمَنْ تُحِبُّ فَلَيْسَ فِي *** شَرْعِ الهَوَىٰ أَنْفٌ يُشالُ[3] ويُعْقَدُ[4]

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 429.

(2) الْوَصْلُ: ضِدُّ الْهِجْرَانِ، وَهُوَ الاتِّصالُ بالمَحْبُوبِ، وَوِصَالُ المَرْأَةِ: لِقَاءُ الحُبِّ، أَوْ نَوالُها والحُصُولُ عَلَيْها، انظر: مختار الصحاح، للرازي: 1/ 340، وتكملة المعاجم العربية، للدوزي: 11/ 73.

(3) يُشالُ: يَرْتَفِعُ، يُقالُ: شَالَ: إِذَا ارْتَفعَ، وأشلتُهُ أنا إذا رفعتُهُ، انظر: جَمْهَرَةَ اللُّغَةِ، لابن دريد: 1/ 289.

(4) الأَنْفُ المَعْقُودَةُ: هِيَ الأَنْفُ الشَّامِخَةُ، التِي يُخْشَىٰ مِنْهَا، وَعَقْدُ الأَنْفِ: رَبْطُها؛ حتَّىٰ لَا تَتَكَبَّرَ، وأَصْلُهُ مِنْ رَبْطِ أَنْفِ البَعِيرِ، وهُوَ كُلُّ حَبْلٍ يُعَلَّق فِي حَلْقِ البَعِيرِ، ثُمَّ يُعْقَدُ علىٰ أَنْفِهِ كَانَ من جِلْدٍ أَو صُوفٍ أَو لِيفٍ؛ حتَّىٰ يَتَمَكَّنَ مِنْها، ويُمْسِكَهَا مِنْهُ، وَيُرْغِمَهَا عَلَىٰ مَا يُرِيدُ، انظر: تاج العروس، للزبيدي: 32/ 115.

فَإِنَّ التَّذَلُّلَ للمَحْبُوبِ وتَمَلُّقَهُ واسْتِعْطَافَهُ والانْكِسَارَ لَهُ، أَوْلَىٰ بالمُحِبِّ مِنْ تَجَلُّدِهِ وتَعَزُّزِهِ، كَمَا قِيلَ:

ويُعْجِبُنِي ذُلِّي لَدَيْكَ ولَمْ يَكُنْ *** لِيُعْجِبُنِي لَـوْلَا مَحَبَّتُكَ الذُّلُّ

وكَمَا قَالَ الآخَرُ:

يَلَذُّ لَهُ ذُلُّ الهَوَىٰ وخُضُوعُهُ *** ولَوْلَا الهَوَىٰ مَا لَذَّ لِلْعاقِلِ الذُّلُّ

فالْمُحِبُّ ذَلِيلٌ بِالذَّاتِ، وَعَلَىٰ قَدْرِ مَحَبَّتِهِ لَهُ؛ يَكُونُ ذُلُّهُ، فَالْمَحَبَّةُ أُسِّسَتْ عَلَىٰ الذِّلَّةِ لِلْمَحْبُوبِ، كَمَا قِيلَ:

مَساكِينُ أَهْلُ الحُبِّ حتَّىٰ قُبورُهم *** عَلَيْها تُرابُ الذُّلِّ دُونَ المَقابِرِ[1]

---

* ومَعْنَىٰ البَيْتِ: أَنَّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ المَحَبَّةِ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَخْضَعَ وَيَذِلَّ لِمَحْبُوبِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ المُقَرَّرِ فِي شَرْعِ أَهْلِ المَحَبَّةِ وعُرْفِهِمْ أَنَّهُ لَا مَكَانَ لِصَاحِبِ الأَنْفِ الشَّامِخَةِ المُتَكَبِّرَةِ بَيْنَ أَهْلِ المَحَبَّةِ، فَإِمَّا أَنْ يَذِلَّ لِمَحْبُوبِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَهْجُرَهُ مَحْبُوبُهُ، وَيَقْطَعَ الوِصَالَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ، واللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

(1) المعنىٰ أن أهلَ المحبة أهلُ مَسْكَنَةٍ وذُلٍّ، فهم أَذِلَّاءُ مُدَّةَ بقائِهم في الدنيا، بَلْ إن الذِّلَّةَ تُلَازِمُهُمْ حتَّىٰ فِي قُبُورِهِمْ، فَقُبُورُهُمْ يَبْدُو عَلَيها الذُّلُّ دُونَ أَهْلِ المَقَابِرِ، لِسَرَيَانِ أَثَرِ الذُّلِّ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَهَذَا وَصْفُ أَهْلِ المَحَبَّةِ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيا؛ أَمَّا أَحْبَابُ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَمَا إِنْ يَمُوتوا؛ حتَّىٰ يَنَالُوا أَرْفَعَ العِزِّ وأَكرَمَهُ؛ فَعَلَىٰ قَدْرِ ذُلِّهِمْ لِرَبِّهِمْ تَبَارَكَ وتَعالَىٰ فِي الدُّنْيا؛ يَكُونُ عِزُّهُمْ عِنْدَ لِقَائِهِ.

ومَتَىٰ اسْتَحْكَمَ الذُّلُّ والحُبُّ؛ صَارَ عُبُودِيَّةً، فَيَصِيرُ القَلْبُ المُحِبُّ مُعَبَّدًا[1] لِمَحْبُوبِهِ، خَاشِعًا لَهُ، وَهَذِهِ الرُّتْبَةُ لا يَلِيقُ أَنْ تتعَلَّقَ بِمَخْلُوقٍ، وَلَا تَصْلُحُ إِلَّا للهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ»[2].

كَلِمَةٌ وَتَعْقِيبٌ

وَبَعْدَ التَّمَامِ مِنْ وَفَاءِ عِشْرِينَ مِنْ أَسْبَابِ الخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ ومَشَاهِدِها القَلْبِيَّةِ، يَجْدُرُ الإِشَارَةُ إِلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ بالضَّرُورَةِ أَنْ يَسْتَحْضِرَ العَبْدُ الأَسْبَابَ والمَشَاهِدَ كُلَّها فِي كُلِّ صَلاةٍ مِنْ صَلَواتِهِ، وفِي كُلِّ عِبَادَةٍ مِنْ عِبَادَاتِهِ، وَإِنَّما يَكْفِيهِ مَا يَحْصُلُ لَهُ بِهِ الخُشُوعُ مِنْها، فَلَوْ قَامَ بِسَبَبٍ مِنْهَا، وتَحَقَّقَ بِمَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهَا، وحَصَلَ لَهُ بِهِ الخُشُوعُ؛ لَكَانَ كَافِيًا، ولَكِنْ كُلَّمَا كانَ حَظُّهُ مِنَ القِيَامِ بِهَا أَكْثَرَ؛ كانَ أَثَرُهَا فِي الخُشُوعِ أَكْبَرَ وأَجَلَّ.

ولِلعَبْدِ فِي صَلَاتِهِ أَنْ يَتَنَقَّلَ مِنْ سَبَبٍ إِلَىٰ سَبَبٍ، وَمِنْ مَشْهَدٍ إِلَىٰ مَشْهَدٍ، فَيَسْلُكَ سَبَبًا وَمَشْهَدًا فِي كُلِّ صَلاةٍ، حتَّىٰ يَتَذَوَّقَ وِجْدانَاتِ الأَسْبَابِ والمَشَاهِدِ كُلِّهَا؛ فَتَذْهَبَ عَنْهُ السَّآمَةُ التِي قَدْ تَحْدُثُ بِسَبَبِ لُزُومِ حَالَةٍ واحِدَةٍ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ مَلُولَةٌ، سَرِيعَةُ السَّآمَةِ، وَذَلِكَ مِنْ حُسْنِ سِيَاسَتِهَا؛ واللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

---

(1) مُعَبَّدٌ: مُذَلَّلٌ، والتَّعْبِيدُ التَّذْلِيلُ، انظر: كتاب الأفعال، لابن القطاع: 2/ 340.

(2) انظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 282، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 224، ومِفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ: 1/ 24.

ثَالِثًا: مَشَاهِدُ مِنَ العُبَّادِ الخَاشِعِينَ

بَعْدَ أَنْ أَتَيْنَا عَلَىٰ وَفَاءِ ذِكْرِ عَشْرَةِ أَسْبَابٍ لِلخُشُوعِ، وَعَشْرَةِ مَشَاهِدَ قَلْبِيَّةٍ لِلخُشُوعِ، فَإِنَّنَا نَذْكُرُ هُنَا عَشْرَةً مِنَ مَشَاهِدَ لِعُبَّادٍ خَاشِعِينَ؛ لِيَتِمَّ بِهِمْ وَفَاءُ الثَّلَاثِينَ؛ رَجَاءَ النَّفْعِ، وَكَمَالِ الفَائِدَةِ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا قِيلَ مَنْ يَسْتَطِيعُ هَذَا، وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَهَؤُلَاءِ دَلَائِلُ عَلَىٰ إِمْكَانِ تَحَقُّقِ مَا ذَكَرْنَا، وَرُبَّمَا حَصَلَتِ التَّذْكِرَةُ بِالصَّالِحِينَ مَا لَمْ تَحْصُلْ بِغَيْرِهَا؛ وَهَذِهِ نَمَاذِجُ لِمَشَاهِدَ مِنَ الخَاشِعِينَ مِنَ السَّلَفِ:

الأَوَّلُ: عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه

كانَ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه مِمَّنْ رُزِقُوا الخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ، والاجْتِهَادَ فِي العِبَادَةِ؛ فعَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: «كانَ ابنُ الزُّبَيْرِ إِذَا قامَ إِلَىٰ الصَّلاةِ، كَأَنَّهُ عُودٌ، قالَ ابنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: لَوْ رَأَيْتَهُ مَا رَأَيْتَ مُنَاجِيًا، ولَا مُصَلِّيًا مِثْلَهُ»[1].

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، قَالِ: «لَوْ رَأَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَائِمًا يُصَلِّي؛ لَقُلْتَ: شَجَرَةٌ تَصْفُقُهَا الرِّيَاحُ، وَحِجَارَةُ الْمَنْجَنِيقِ[2] تَقَعُ هَاهُنَا وَهَاهُنَا مَا يَلْتَفِتُ»[3].

---

(1) سير أعلام النبلاء، للذهبي: 3/ 368.

(2) نَصَبَ الْحُصَيْنُ بنُ نُمَيرٍ المَنْجَنِيقَ لِقِتَالِ عَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه زَمَانَ يَزِيدَ بنِ أَبِي سُفْيانَ، بَعْدَ أَنْ حَاصَرَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أَرْبَعَةً وَسِتِّينَ يَوْمًا، وَمَاتَ يَزِيدُ؛ فَارْتَحَلَ الْحُصَيْنُ بنُ نُمَيْرٍ، انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: 4/ 264.

(3) الزهد، لأحمد بن حنبل: 120.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ قَيْسٍ، «عَنْ أُمِّهِ أَنَّهَا دَخَلَتْ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بَيْتَهُ، فَإِذَا هُوَ يُصَلِّي، فَسَقَطَتْ حَيَّةٌ عَلَىٰ ابْنِهِ هَاشِمٍ، فَصَاحُوا: الْحَيَّةَ، الْحَيَّةَ، ثُمَّ رَمَوْهَا، فَمَا قَطَعَ صَلاتَهُ»[1].

وَعَنْ يَحْيَىٰ بْنِ وَثَّابٍ، «أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ كانَ يَسْجُدَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ العَصَافِيرُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ وَلَا تَحْسَبُهُ إِلَا جِذْمَ[2] حَائِطٍ»[3].

الثَّانِي: عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ رضي الله عنه

وَهَذَا عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ رضي الله عنه، كَانَ لِشِدَّةِ اجْتِمَاعِ هَمِّهِ فِي صَلَاتِهِ كَأَنَّهُ مَطْبُوعٌ عَلَىٰ الْخُشُوعِ، لَا يُحْسِنُ الغَفْلَةَ فِيها؛ فَعَنْ أَبِي الحُسَيْنِ المُجَاشِعِيِّ: «قِيلَ لِعَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ: أَتُحَدِّثُ نَفْسَكَ فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: نَعَمْ أُحَدِّثُ نَفْسِي بِالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ عز وجل، وَمُنْصَرَفِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ»[4]، وقالُوا له مَرَّةً: «أَتُحَدِّثُ نَفْسك بِشَيْءٍ فِي الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: أَوَ شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ أُحَدِّثُ بِهِ نَفْسِي؟ قَالُوا: إِنَّا لَنُحَدِّثُ أَنْفُسَنَا فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: أَبِالْجَنَّةِ وَالْحُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؟ فَقَالُوا: لَا، وَلَكِنْ بِأَهْلِينَا وَأَمْوَالِنَا، فَقَالَ: لَأَنْ تَخْتَلِفَ الْأَسِنَّةُ[5] فِيَّ أَحَبُّ إِلَيَّ»[6].

---

(1) تاريخ الإسلام، للذهبي: 2/ 833.

(2) جِذْمٌ: قِطْعَةٌ، والجَذْمُ: القَطْعُ، انظر: معجم العين، للخليل: 6/ 96.

(3) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 302.

(4) الزهد والرقائق، لابن المبارك، والزهد، لنعيم بن حماد: 1/ 544.

(5) الْأَسِنَّةُ: جَمْعُ سِنَانٍ، وَسِنانُ الرُّمحِ حَدِيدَتُهُ التِي تُرَكَّبُ فِي طَرَفِهِ، والمَعْنَىٰ: أَيْ: لَأَنْ يَكْثُرَ طَعْنُ الرِّماحِ فِي جَسَدِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُحَدِّثَ نَفْسِي فِي الصَّلاةِ بأمورِ الدُّنيا، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 13/ 223.

(6) الفتاوىٰ الكبرىٰ، لابن تيمية: 2/ 222.

الثَّالِثُ: مَسْرُوقُ بْنُ الأَجْدَعِ رضي الله عنه

وهَذَا العَالِمُ العَابِدُ الخَاشِعُ؛ مَسْرُوقُ بْنُ الأَجْدَعِ رضي الله عنه، كَانَ لِطُولِ صَلَاتِهِ وحُسْنِهَا يُشَبَّهُ بالرُّهْبَانِ[1]؛ فعَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، قَالَ: كَانَ مَسْرُوقٌ يَقُومُ فَيصَلِّي كَأَنَّهُ رَاهِبٌ، وَكَانَ يَقُولُ لِأَهْلِهِ: هَاتُوا كُلَّ حَاجَةٍ لَكُمْ فَاذْكُرُوهَا لِي قَبْلَ أَنْ أَقُومَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، وعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْتَشِرِ، قَالَ: «كَانَ مَسْرُوقٌ يُرْخِي السِّتْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، وَيُقْبِلُ عَلَىٰ صَلاتِهِ وَيُخَلِّيهِمْ وَدُنْيَاهُمْ»[2].

الرَّابِعُ: مُرَّةُ الْهَمْدَانِيُّ رضي الله عنه

وَهَذَا العَابِدُ الخَاشِعُ البَكَّاءُ؛ مُرَّةُ الْهَمْدَانِيُّ رضي الله عنه، كَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ، طَوِيلَ السُّجُودِ إِلَىٰ الحَدِّ البَعِيدِ؛ فَعَنْ سُفْيَانَ بنِ عُيَيْنَةَ، قَالَ: «سَمِعْتُ عَطَاءَ بْنَ السَّائِبِ، يَقُولُ: رَأَيْتُ مُصَلَّىٰ مُرَّةَ الْهَمْدَانِيِّ مِثْلَ مَبْرَكِ الْبَعِيرِ[3]»[4]. وَقَالَ عَطَاءٌ: «كَانَ مُرَّةُ يُصَلِّي كُلَّ يَوْمٍ سِتَّمِائَةِ رَكْعَةٍ، وَنُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ سَجَدَ حَتَّىٰ أَكَلَ التُّرَابُ جَبْهَتَهُ»[5].

---

(1) الرُّهْبَانُ: جَمْعُ راهِبٍ، الرَّاهِبُ: الْمُتَعَبِّدُ، وَهُوَ مُخْتَصٌّ بالنَّصَارَىٰ، كانُوا يَتَرَهَّبُونَ بالتَّخَلِّي في الصَّوامِعِ مِنْ أَشْغَالِ الدُّنْيا، وتَرْكِ مَلَاذِّهَا، وَيَتَفَرَّغُونَ للعِبَادَةِ، انظر: المطلع علىٰ ألفاظ المقنع، لأبي الفتح البعلي: 1/ 249.

(2) حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الأَصْفِيَاءِ، لِأَبِي نُعَيْمٍ: 2/ 96، وتاريخ دمشق، لابن عساكر: 57/ 430.

(3) مَبْرَكُ الْبَعِيرِ: مَكَانُ بُرُوكِهِ وقُعُودِهِ، انظر: معجم العين، للخليل: 5/ 367.

(4) سير أعلام النبلاء، للذهبي: 5/ 31.

(5) سير أعلام النبلاء، للذهبي: 5/ 31.

الخَامِسُ: عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ رضي الله عنه

وَهَذَا سَلِيلُ[1] النُّبُوَّةِ؛ عَلِيُّ بنُ الحُسَيْنِ رضي الله عنه، كَانَ كَثِيرَ الخَوْفِ والتَّخَشُّعِ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ أَبِي سُلَيْمَانَ، قَالَ: «كَانَ عَلِيُّ بنُ الحُسَيْنِ إِذَا مَشَىٰ لَا تُجَاوِزُ يَدُهُ فَخِذَيْهِ، وَلَا يَخْطِرُ بِهَا، وَإِذَا قَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، أَخَذَتْهُ رِعْدَةٌ وَنَفْضَةٌ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: تَدْرُوْنَ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ أَقُوْمُ وَمَنْ أُنَاجِي؟! وَعَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَوَضَّأَ، اصْفَرَّ»[2].

وعَنْ أَبِي نُوْحٍ الأَنْصَارِيِّ، قَالَ: «وَقَعَ حَرِيْقٌ فِي بَيْتٍ فِيْهِ عَلِيُّ بنُ الحُسَيْنِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَجَعَلُوا يَقُوْلُوْنَ: يَا ابْنَ رَسُوْلِ اللهِ، النَّارَ! فَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّىٰ طُفِئَتْ. فَقِيْلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَلْهَتْنِي عَنْهَا النَّارُ الأُخْرَىٰ»[3].

السَّادِسُ: مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ رضي الله عنه

وهَذَا مُسْلِمُ بنُ يَسَارٍ رضي الله عنه، العَبْدُ الأَوَّاهُ[4]، كَثِيرُ الخُشُوعِ وَالصَّلَاةِ؛ فعَنْ غَيْلَانَ بْنِ جَرِيْرٍ: «كَانَ مُسْلِمُ بنُ يَسَارٍ إِذَا صَلَّىٰ، كَأَنَّهُ ثَوْبٌ مُلْقَىٰ»[5].

وَعَنِ ابْنِ عَوْنٍ، قَالَ: «كَانَ مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ صَلَاةٍ كَأَنَّهُ فِي صَلَاةٍ، وَإِذَا صَلَّىٰ كأَنَّهُ وَتَدٌ لَا يُحَرِّكُ شيئًا مِنْهُ، يَنْظُرُ إِلَىٰ مَوْضِعِ سُجُودِهِ، وَلا يُراوِحُ بينَ رِجْلَيْهِ»[6].

---

(1) سَلِيلُ: يَعْنِي مَسْلُولٌ مِنْ نَسْلِ النَّبِيِّ ﷺ، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 11/ 338.

(2) حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الأَصْفِيَاءِ، لِأَبِي نُعَيْمٍ: 3/ 133، وسير أعلام النبلاء، للذهبي: 4/ 392.

(3) سير أعلام النبلاء، للذهبي: 4/ 391.

(4) أَوَّاهٌ: كثيرُ التَّأَوُّهِ والخَوْفِ، والخُشُوعِ والتَّضَرُّعِ، انظر: تفسير غريب القرآن، للكواري: 9/ 114.

(5) سير أعلام النبلاء، للذهبي: 4/ 512.

(6) حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الأَصْفِيَاءِ، لِأَبِي نُعَيْمٍ: 2/ 291، وإكمال تهذيب الكمال، لعلاء الدين الحنفي: 11/ 186.

وَقَالَ ابْنُ شَوْذَبٍ: «كَانَ مُسْلِمُ بنُ يَسَارٍ يَقُولُ لأَهْلِهِ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ: تَحَدَّثُوا، فَلَسْتُ أَسْمَعُ حَدِيثَكُم، وَرَوَىٰ: أَنَّهُ وَقَعَ حَرِيْقٌ فِي دَارِهِ، وَأُطْفِئَ، فَلَمَّا ذُكِرَ ذَلِكَ لَهُ، قَالَ: مَا شَعَرْتُ»[1].

وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ حَيَّانَ، قَالَ: «لَقَدِ انْهَدَمَتْ نَاحِيَةُ الْمَسْجِدِ؛ فَفَزِعَ أَهْلُ السُّوقِ لِهَدَّتِهِ، وَإِنَّهُ لَفِي الْمَسْجِدِ فِي صَلَاةٍ، فَمَا الْتَفَتَ»[2]، «مَا عَلِمَ بِهِ»[3].

وَعَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، قَالَ: رَأَيْتُ مُسْلِمًا وَهُوَ سَاجِدٌ، وَهُوَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «مَتَىٰ أَلْقَاكَ وَأَنْتَ عَنِّي رَاضٍ؟ وَيَذْهَبُ فِي الدُّعَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: مَتَىٰ أَلْقَاكَ وَأَنْتَ عَنِّي رَاضٍ؟»[4].

السَّابِعُ: أَبُو عَبدِ اللهِ النَّبَاجِيُّ رضي الله عنه

وَهَذَا العَبْدُ المُجَاهِدُ، الخَاشِعُ السَّاجِدُ؛ أَبُو عبدِ اللهِ النَّبَاجِيُّ رضي الله عنه، لَمْ يَكُنْ يَهُمُّهُ فِي صَلَاتِهِ إِلَّا اتِّصَالُهُ بِرَبِّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ؛ فَعَنْ مُحَمَّدِ بنِ أَبِي الوَرْدِ، قالَ: «صلَّىٰ أَبُو عبدِ اللهِ النَّبَاجِيُّ بأَهْلِ طَرَسُوسٍ[5] صَلاةَ الغَدَاةِ، فَوَقَعَ النَّفِيرُ، وصَاحُوا، فَلَمْ يُخَفِّفِ الصَّلاةَ، فلمَّا فَرَغُوا؛ قَالوا لَهُ: أَنْتَ جَاسُوسٌ، قالَ: وَكَيفَ ذاكَ؟ فَقَالُوا: صَاحَ النَّفِيرُ، وأَنْتَ فِي الصَّلاةِ؛

---

(1) سير أعلام النبلاء، للذهبي: 4/ 512.

(2) الزهد، لأحمد بن حنبل: 1/ 203.

(3) حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الأَصْفِيَاءِ، لِأَبِي نُعَيْمٍ: 2/ 290.

(4) حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الأَصْفِيَاءِ، لِأَبِي نُعَيْمٍ: 2/ 291، والزهد، لأحمد بن حنبل: 1/ 201.

(5) طَرَسُوسُ: مَدِينَةٌ بِثُغورِ الشَّامِ بينَ أَنْطاكِيَةَ وَحَلَبَ وبِلادِ الرُّومِ، انظر: معجم البلدان، للحموي: 4/ 38.

فَلَمْ تُخَفِّفْ، فقالَ: إِنَّما سُمِّيَتْ صَلاةً؛ لأَنَّهَا اتِّصالٌ باللهِ تعالىٰ، ومَا حَسِبْتُ أنَّ أحَدًا يكونُ فِي الصلاةِ، فيَقَعُ فِي سَمْعِهِ غيرُ مَا يُخَاطِبُ اللهَ تعالىٰ بِهِ»[(1)].

الثَّامِنُ: ضَيْغَمُ بنُ مَالِكٍ رضي الله عنه

وَهَذَا ضَيْغَمُ بنُ مَالِكٍ رضي الله عنه، كَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ، حَسَنَ الخُشُوعِ، طَوِيلَ الحُزْنِ، كَثِيرَ البُكَاءِ؛ فَعَنْ أَزْهَرَ بْنِ مَرْوانَ الرَّقاشِيِّ، قالَ: «رأيْتُ ضَيْغمًا العَابِدَ، وكُنْتُ إِذَا رأيتُهُ رأيْتُ رَجُلًا لا يُشْبِهُ النَّاسَ مِنَ الخُشوعِ، والضُّرِّ، وطُولِ الحُزْنِ»[(2)].

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: «قَالَ بَشَّارٌ: رَأَيْتُ ضَيْغَمًا بنَ مَالِكٍ صَلَّىٰ نَهَارَهُ وَلَيْلَهُ، حَتَّىٰ بَقِيَ رَاكِعًا لا يَقْدِرُ أَنْ يَسْجُدَ، فَرَأَيْتُهُ رَفعَ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: قُرَّةَ عَيْنِي ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ وَهُوَ سَاجِدٌ: إِلَهِي كَيْفَ عَزَفَتْ[(3)] قُلُوبُ الْخَلِيقَةِ عَنْكَ؟ فَرُبَّمَا أَصَابَتْهُ الْفَتْرَةُ[(4)]، فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ اغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ بَيْتًا فَأَغْلَقَ بَابَهُ، وَقَالَ: إِلَهِي إِلَيْكَ جِئْتُ، فَيَعُودُ إِلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَكَانَ وِرْدُهُ كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعَمِائَةَ رَكْعَةٍ»[(5)].

---

(1) تاريخ دمشق، لابن عساكر: 21/ 19، وصفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 419.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 211.

(3) عَزَفَتْ: انْصَرَفَتْ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 2/ 86.

(4) الْفَتْرَةُ: السُّكُونُ والكَسَلُ بَعْدَ النَّشَاطِ، لسان العرب، لابن منظور: 5/ 43.

(5) حفظ العمر، لابن الجوزي: 1/ 52.

وعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ، قالَ: أَتَيْتُ صَاحِبًا لِي يُقالُ لَهُ: عِمْرانُ بنُ مُسْلِمٍ، فَأَرانِي مَوْضِعَيْنِ مُبْتَلَّيْنِ فِي مَسْجِدِهِ، أَحَدُهُمَا بِحِذاءِ الآخَرِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قال: هَذَا واللهِ مِنْ دُمُوعِ ضَيْغَمٍ البَارِحَةَ بينَ المَغْرِبِ والعِشاءِ، وهُوَ رَاكِعٌ»[1].

التَّاسِعُ: مُحَمَّدُ بنُ إِسْماعيلَ البُخارِيُّ رضي الله عنه

وَهَذَا إِمَامُ العِلْمِ والعَمَلِ؛ أَبُو عَبْدِ اللهِ البُخَارِيُّ رضي الله عنه، جَمَعَ إِلَىٰ العِلْمِ العَمَلَ، وَإِلَىٰ الصَّلَاةِ الخُشُوعَ؛ فَعَنْ مُحَمَّدِ بنِ أَبِي حاتِمٍ، قالَ: «دُعِيَ مُحمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ البُخَارِيُّ إِلَىٰ بُسْتانِ بَعْضِ أَصْحابِهِ، فلمَّا صَلَّىٰ بالقَوْمِ الظُّهْرَ، قامَ يَتَطَوَّعُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ، رَفَعَ ذَيْلَ قَميصِهِ، فَقالَ لِبَعْضِ مَنْ مَعَهُ: انْظُرْ هَلْ تَرَىٰ تَحْتَ قَمِيصي شيئًا؟ فَإِذا زُنْبورٌ[2] قَدْ أَبَرَهُ[3] فِي سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ مَوْضِعًا، وقَدْ تَوَرَّمَ مِنْ ذلِكَ جَسَدُهُ. فقالَ لَهُ بعضُ القَوْمِ: كيفَ لَمْ تَخْرُجْ مِنَ الصَّلاةِ أَوَّلَ مَا أَبرَكَ؟ قالَ: كُنْتُ فِي سُورَةٍ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُتِمَّها». وَعَنْ بَكْرِ بنِ مُنيرٍ، قالَ: «كانَ مُحَمَّدُ بنُ إِسْماعِيلَ يُصَلِّي ذاتَ لَيْلَةٍ، فَلَسَعَهُ الزُّنْبُورُ سَبْعَ عشْرَةَ مَرَّةً، فَلَمَّا قَضَىٰ الصَّلاةَ، قالَ: انْظُرُوا أَيش آذانِي»[4].

العَاشِرُ: ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ رضي الله عنه

العَالِمُ العَابِدُ، ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ رضي الله عنه، كَانَ كَثِيرَ الشَّغَفِ بالصَّلَاةِ والافْتِقَارِ والتَّعْظِيمِ والمَحَبَّةِ، عَظِيمَ الخُشُوعِ، قال ابنُ رَجَبٍ في وَصْفِ حَالِهِ: «وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ ذَا عِبادَةٍ

---

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 211.

(2) الزُّنْبُورُ: الدَّبُّورُ، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر: 1/ 721.

(3) أَبَرَهُ: لَسَعَهُ بِإِبْرَتِهِ، انظر: معجم العين، للخليل: 8/ 290.

(4) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي: 2/ 331، وسير أعلام النبلاء، للذهبي: 12/ 442، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي: 24/ 447.

وتَهَجُّدٍ، وَطُولِ صَلاةٍ إِلَىٰ الغَايةِ القُصْوَىٰ، وتأَلُّهٍ[1]، ولَهْجٍ بالذِّكْرِ، وشَغَفٍ[2] بِالمَحَبَّةِ، والإِنابَةِ والاسْتغفَارِ، والافتِقَارِ إِلَىٰ اللهِ تعَالَىٰ، والانْكِسارِ لَهُ، والاطِّرَاحِ بَيْنَ يديهِ عَلَىٰ عَتبَةِ عُبُودِيَّتِهِ، لَمْ أشاهِدْ مِثْلَهُ فِي ذَلِكَ، ولا رأيتُ أوسَعَ مِنه عِلْمًا، ولا أعرفَ بمعاني الْقُرْآن، والسُّنَّةِ، وحَقائِقِ الإيمانِ مِنْهُ، لَمْ أرَ فِي مَعناهُ مِثْلَهُ. وَقَدِ امْتُحِنَ مرَّاتٍ، وَكَانَ فِي مُدَّةِ حَبْسِهِ مُشْتَغِلًا بِتلاوَةِ القرآنِ، بالتَّدبُّرِ، والتَّفكُّرِ؛ فَفُتِحَ عَلَيْهِ من ذَلِكَ خيرٌ كثيرٌ، وحَصَلَ لَهُ جَانِبٌ عَظِيمٌ مِنَ الأَذْوَاقِ والمَواجِيدِ[3] الصَّحِيحَةِ»[4].

كَلِمَةٌ وتَعْقِيبٌ

هَذِهِ نَمَاذِجُ لِأَئِمَّةٍ مِنَ العُبَّادِ والعُلَمَاءِ المُجْتَهِدِينَ الخَاشِعِينَ، الذِينَ بَلَغُوا الغَايَةَ فِي الاجْتِهَادِ والخُشُوعِ، تَحِنُّ القُلُوبُ إِلَىٰ وَصْفِ أَخْبَارِهِمْ، وَتَطْرَبُ النُّفُوسِ عِنْدَ سَمَاعِ أَحَادِيثِهِمْ، وَتَنْشَطُ الهِمَمُ، وَتَعْلُو إِلَىٰ القِمَمِ عِنْدَ ذِكْرِ أَحْوَالِهِمْ، وَإِنَّهُم مَا بَلَغُوا هَذَا الحَدَّ مِنَ الاجْتِهَادِ إِلَّا بِمُجَاهَدَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَمُدَاوَاتِهَا أَزْمَانًا مَدِيدَةً، وحَمْلِهَا عَلَىٰ الخُشُوعِ، حتَّىٰ

---

(1) التَّأَلُّهُ: التَّعَبُّدُ والتَّنَسُّكُ، انظر: مختار الصحاح، للرازي: 1/ 21.

(2) الشَّغَفُ: أَن يَبْلُغ الحُبُّ شَغَافَ القَلْبِ، وَهُوَ جِلْدة دُونَه، والشَّعَفُ: إِحْراق الحُبِّ القَلْبِيِّ مَعَ لَذَّةٍ يَجِدُها، وَهُوَ شَبِيه باللَّوْعة، وَمِنْه قيل رجُل مَشْغُوفُ الفُؤادِ: وَهُوَ عِشْقٌ مَعَ حُرْقة، انظر: المخصص، لابن سيده: 1/ 379.

(3) المَواجِيدُ: مُصْطَلَحٌ يَدُلُّ علَىٰ ما يَجِدُهُ العابِدُ فِي قَلْبِهِ مِنْ ذَوْقِ الإيمانِ والمَحَبَّةِ والعبادَةِ، والوارِدَاتِ الإلهيةِ، والخَوَاطِرِ المَلَكِيَّةِ، والذَّوْقُ أَوَّلُ المَواجِيدِ، ومِنَ المَواجيدِ ما يكونُ صَادقًا، ومِنْهُ مَا هُوَ كَاذِبٌ؛ وذَلِكَ بِحَسَبِ صَاحِبِها، انظر: طبقات الصوفية، للسلمي: 1/ 370، والطبقات الكبرىٰ، للشعراني: 1/ 128.

(4) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب: 5/ 173.

وَاتَتْهُمْ[1] إِلَىٰ مَا يُحِبُّونَ مِنْهَا، مِنْ طُولِ الخُشُوعِ، وَتَعَلُّقٍ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَبِمِثْلِهِمْ يَتَشَبَّهُ الأَحْرَارُ، وَعَلَىٰ مِنْوَالِهِمْ يَنْسُجُ[2] الأَخْيَارُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ: أَنَّىٰ لَنَا مِثْلُ هَذَا، وَهُمْ فِي زَمَانٍ لَيْسَ كَزَمَانِنَا، وَشِبْهَهُ مِنَ الكَلَامِ، وَلَا تَسْتَمِعْ لِقَائِلِهِ؛ وَإِنَّهُ لَيُسْعِدُ الشَّيْطَانَ مِنْكَ هَذَا القَوْلُ؛ لِيَفْتَحَ عَلَيْكَ بِهِ بَابًا مِنَ التَّخْذِيلِ عَرِيضًا؛ وَلَكِنْ تَرَحَّمْ عَلَيْهِمْ، وَتَرَضَّىٰ عَنْهُمْ، وتَأَسَّىٰ بِهِمْ، وَشَمِّرْ واجْتَهِدْ، واسْتَعِنْ بِاللهِ تَعالَىٰ عَلَىٰ تَحْصِيلِ المَطْلُوبِ، فَقَدْ يُدْرِكُ المَسْبُوقُ، وَقَدْ يَسْبِقُ الآخِرُ الأَوَّلُ، وَإِنَّ ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[3].

(1) وَاتَتْهُمْ: طَاوَعَتْهُمْ، المُواتَاةُ: المُطَاوَعَةُ، انظر: جَمْهَرَةَ اللُّغَةِ، لابن دريد: 2/ 1033.

(2) المِنْوالُ: مَا يُحَاكُ عَلَيْهِ الثَّوبُ، ومَعْنَىٰ عَلَىٰ مِنْوَالِهِمْ: يَعْنِي عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ، انظر معجم اللغة العربية المعاصرة: 3/ 230.

(3) الحديد: 21.

خَاتِمَةٌ

وَبَعْدَمَا قَرَأْتَ مَا قَرَأْتَ، وَبَعْدَمَا سَمِعْتَ مَا سَمِعْتَ، مِنْ أَهَمِّيَّةِ الصَّلَاةِ لِتَقْرِيرِ مَصِيرِ العَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَحُصُولِ عَوْدَتِهِ الحَمِيدَةِ إِلَىٰ رَبِّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ، وَبَعْدَمَا عَلِمْتَ حَقِيقَةَ الخُشُوعِ وأَحْكَامِهِ؛ والأَسْبَابَ التِي يُبَلِّغُهُ، والمَشَاهِدَ القَلْبِيَّةَ التِي تُرَقِّيهِ وَتُبارِكُهُ، وبَعْدَمَا تَلَمَّحْتَ مِنْ بَعِيدٍ نَمَاذِجَ فَرِيدَةً مِنَ الأَئِمَّةِ الخَاشِعِينَ؛ هَلْ مَا زِلْتَ تَذْكُرُ الهَدَفَ الذِي وَضَعْتَهُ لِنَفْسِكَ فِي مُقَدِّمَةِ الكِتَابِ: (إِصْلاحُ الصَّلَاةِ)، وَتُصِرُّ عَلَىٰ تَحْقِيقِهِ؟ تَفَقَّدْ قَلْبَكَ السَّاعَةَ؛ فَإِنْ وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ مَيْلًا إِلَىٰ العَمَلِ بِمَا فِي هَذَا الكِتَابِ، ورَغْبَةً فِيهِ، وعَزْمًا علَىٰ إِصْلَاحِ الصَّلَاةِ، وَتَحْقِيقِ الخُشُوعِ؛ فَأَبْشِرْ، فَقَدْ حَصَلَ لَكَ شَطْرُ[1] السَّعادَةِ، وبَقِيَ عَلَيْكَ شَطْرُ العَمَلِ؛ فَاعْقِدِ النِّيَّةَ، وأَكِّدِ العَزْمَ، وَخُذْ بِأَسْبابِ العَمَلِ بِمَا عَلِمْتَ؛ فَإِنَّ الرَّجَاءَ فِي اللهِ تَعالَىٰ عَلَىٰ تَحْقِيقِهِ عَظِيمٌ، والظَّنَّ بِهِ سُبْحانَهُ جَمِيلٌ، وإِنْ رَأَيْتَ فِي نَفْسِكَ اسْتِبْعادًا لَهُ، وزُهْدًا فِيهِ، أَوْ إِنْكَارًا لِحَقائِقِهِ؛ فَقَدْ أَبْعَدْتَ الخَيْرَ عَنْ نَفْسِكَ، وحَرَمْتَهَا أَنْفَعَ الأَشْيَاءِ لَهَا، وأَنْتَ وَحْدَكَ الخَاسِرُ. عُدْ إِلَىٰ الكِتَابِ، واقْرَأْهُ مِنْ جَدِيدٍ؛ مُجَدِّدًا العَزْمَ عَلَىٰ تَحْقِيقِ الهَدَفِ، وَلَوْ طَالَ الزَّمَنُ، فَإِنَّ المَرَّةَ والمَرَّتَيْنِ غَيْرُ كَافِيَتَيْنِ لِتَحْقِيقِ ذَلِكُمُ الهَدَفِ الكَبِيرِ؛ وَحَسْبُكَ أَنَّكَ تُجَاهِدُ نَفْسَكَ وَهَوَاكَ فِي ذَلِكَ، وَإِنَّكَ لَنْ تَعْدَمَ أَجْرَ المُجَاهِدِ نَفْسَهَ وَهَوَاهُ فِي ذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَحَبِّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ الله تعالىٰ كَمَا تَقَدَّمَ.

---

(1) الشَّطْرُ: النِّصْفُ، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 3/ 187.

وَأَمَّا عَمَلُنَا فَمَا كانَ فِي الكِتَابِ مِنْ صَوابٍ فَمِنَ اللهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، فَهُوَ المَحْمُودُ والمُسْتَعانُ، ومَا كانَ فِيهِ مِنْ خَطَأٍ فَمِنْ مُصَنِّفِهِ ومِنَ الشَّيْطانِ، واللهُ تَعالَىٰ بَرِيءٌ مِنْهُ ورَسُولُهُ ﷺ.

وَإِنِّي وَإِنْ وَفَّقَنِيَ اللهُ تَعَالَىٰ لِمَا فِي هَذَا الكِتَابِ؛ فَمَا أَنَا إِلَّا نَاقِلٌ وَوَسِيطٌ بَيْنَ الأَئِمَّةِ العُلَمَاءِ، أَصْحَابِ العِلْمِ والعَمَلِ، وبَيْنَ القَارِئِ والسَّامِعِ، وَلَسْتُ أَدَّعِي لِنَفْسِي مِمَّا ذَكَرْتُ حَالًا وَلَا وَصْفًا؛ وَإِنَّنِي مُتَوَسِّلٌ رَبِّي تَبارَكَ وَتَعالَىٰ بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَىٰ وصِفَاتِهِ العُلْيَا، ثُمَّ بِمَا فِي هَذَا الكِتَابِ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ، أَنْ يُصْلِحَ لِي صَلَاتِي وعِبَادَتِي عَلَىٰ النَّحْوِ الذِي يُحِبُّ، وأَنْ يُعِينَنِي عَلَىٰ تَحْقِيقِ الخُشُوعِ مِنْ نَفْسِي عَمَلًا، كَمَا أَعَانَنِي عَلَىٰ الوَصْفِ والبَيَانِ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ بِمَنْ مَنَّ بالأَوَّلِ أَنْ يَمُنَّ بالثَّانِي جَمِيلٌ؛ فَهُوَ صَاحِبُ ذَلِكَ وصَاحِبُ كُلِّ بِرٍّ وَرُشْدٍ وَفَضْلٍ وَكَرَامَةٍ وإِحْسَانٍ.

ثُمَّ إِنَّنِي سَائِلٌ ربًّا كَرِيمًا، بَرًّا رَحِيمًا أَنْ يَجْزِيَ خَيْرًا كَثِيرًا كُلَّ مَنْ أَعَانَ عَلَىٰ هَذَا الكِتَابِ مِنْ إِخْوانِيَ الأَبْرَارِ، الذِينَ أُعَنِّيهِمْ مَعِيَ مَشَقَّةَ إِخْرَاجِ الكِتَابِ.

تَمَّ تمامُ هذهِ المادَّةِ بِحَمْدِ اللهِ تعالَىٰ، وتمامِ مِنَّتِهِ، عصر يومِ الخميس: 29/ رمضان/ 1439هـ، المُوافِقُ: 14/ 6/ 2018م؛ والحَمْدُ للهِ الذِي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصَّالِحاتُ.

وصلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وبارَكَ علَىٰ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ، وعَلَىٰ سَائِرِ النَّبِيِّينَ وآلِهِ وصَحْبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُم بِإِحْسانٍ إِلَىٰ يَوْمِ القِيامَةِ.

وكتبه

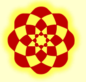
زكريا بن طه شحادة



مُحتويات الكتاب


تم بحمد الله





تعريف بكتاب:

(الصَّلَاةُ طَرِيقُ العَوْدَةِ، وَتَقْرِيرُ المَصِيرِ)

كِتَابُ (الصَّلَاةُ طَرِيقُ العَوْدَةِ، وَتَقْرِيرُ المَصِيرِ) يَدْرُسُ مَوضُوعَ الصَّلاةِ دِرَاسَةً تَجْدِيدِيَّةً، فَهُوَ يُقَرِّرُ أنَّ الصَّلاةَ هِيَ النُّسُكُ الأَهَمُّ في حياةِ العَبْدِ؛ فَبِهَا يَتَقَرَّرُ مَصيرُ العَبْدِ عندَ اللهِ تَعالَىٰ في الآخِرَةِ: فَلاحًا ونَجَاحًا، أَوْ خَيْبَةً وخُسْرانًا، فَهِيَ الشَّارِعُ الأَعْظَمُ، والفَجُّ الأَوْسَعُ، والمَحَجَّةُ الأَبْيَنُ، والصِّرَاطُ الأَقْوَمُ، والطَّرِيقُ الأَقْصَرُ لعَوْدَةِ العَبْدِ إِلَىٰ وَطَنِهِ الأَوَّلِ الذِي خُلِقَ فِيهِ أَبوهُ، وَوُعِدَ بالعَوْدَةِ إِلَيْهِ. وَإِنَّنا في سبيلِ تقريرِ هَذَا المَعْنىٰ بَيَّنَّا شُرُوطَ الصَّلاةِ التِي يُكْتَبُ لصَاحِبِهَا الفَلاحُ والنَّجَاحُ، كَمَّا وَقَفْنَا علىٰ مَعْنَىٰ الخُشُوعِ وَحَقِيقَتِهِ وحُكْمِهِ وَمَرَاتِبِهِ، كَمَا ذَكَرْنَا أَسْبَابَ الخُشُوعِ التِي مَتَىٰ تَحَقَّقَتْ؛ تَحَقَّقَ بِهَا الخُشُوعُ، ثُمَّ قَرَّرْنَا مَشَاهِدَ الصَّلَاةِ القَلْبِيَّةِ التِي تُعينُ عَلىٰ تَحْقيقِ الصَّلَاةِ الخَاشِعَةِ، ثُمَّ خَتَمْنَا بمَشَاهِدَ مِنَ صلاةِ الخَاشِعِينَ؛ فَكانَ بِذَا إِشْرَاقَةً جَدِيدةً في عَرْضِ مَوْضوعِ الصَّلاةِ؛ راجينَ اللهَ تَعالَىٰ السَّدَادَ والقَبُولَ، والنَّفْعَ العَامَّ الكَبيرَ للإِسْلامِ والمُسْلِمينَ، والحَمْدُ الذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.